"الرواية المرشحة لجائزة الرواية الأوروبية"

CRIME SERIES CRIME SERIES CRIME SERIES

Telegram:@mbooks90

الغواص

مينوس إفستاثياديس

ترجمة: د. محمد عباس عبد العزيز

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الغواص

تأليف: مينوس إفستاثياديس

ترجمة: د. محمد عباس عبد العزيز

تحرير: شروق طارق

تصحيح لغوي: خالد رجب

2024

الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2023/9762

الترقيم الدولي: 9789773198626

الغلاف: عبد الرحمن ناصر محمد

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60 شارع القصر العينى – 11451 - القاهرة – مصر

ت: 20227921943+ 20227954529+

www.alarabipublishing.com.eg

alarabipublishing@gmail.com

Translation copyright © 2018 by Minos Efstathiadis
This edition was published by arrangement with Iris Literary Agency,
irislitgr@gmail.com
Originally published as *O Δύτης*

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مينوس إفستاثياديس

الغواص

روايةٌ مِنْ اليونان

ترجمها عن اليونانية: د. محمد عباس عبد العزيز

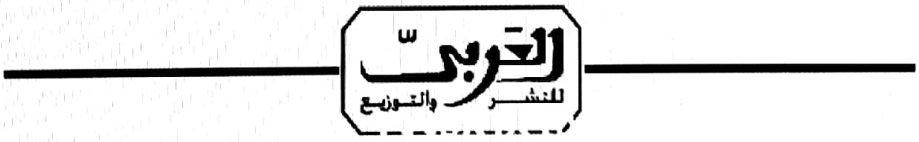

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

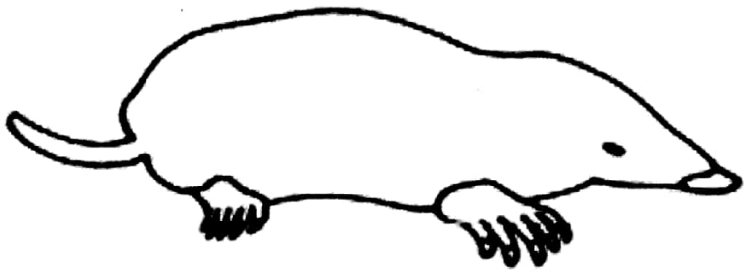

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى هؤلاء الذين مروا ببيت الحقيقة.

" في الصمت أنت لا تعرف. لكن يجب أن تستمر.

لا أستطيع أن أستمر. سأستمر"

"صامويل بيكيت"، "اللامسمى"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1

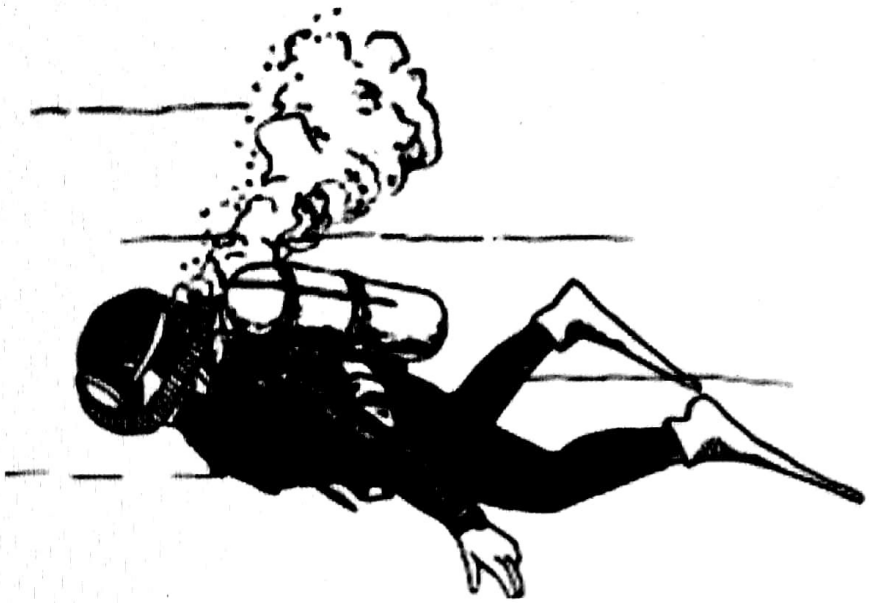

"إنهض! حلّ الظلام". لم يكن قد بزغ الفجر بعد عندما سمع صوتًا أجش يقطع الأحلام في منتصفها، ويلقيها على استحياء على حافة الواقع.

كان والده يقول الحقيقة بطريقة معكوسة. يجب عليه النهوض من الفراش ليلًا. حانت ساعة العمل.

"إنهض! حلّ الظلام". فتح عينيه مُحدقًا ليرى ما الذي يوقظه من خلف ذلك الظلام. لم يتكلم أحد. فوالده متوفًى منذ سبع سنوات، وترك له هذه الوصية المتكررة كميراث.

Telegram:@mbooks90

في السماء توجد سحابة في اتجاه الغرب، تحمل آخر انعكاس للقمر. ينحني ليشرب من الصنبور في الفناء، يدعون الماء بالصاحب، لأنه ينسيهم الشعور بالجوع. يضع بشكل احتفالي صنارة الصيد في الجزء الخلفي من معطفه، حُدِّد طولها بدقة متناهية حتى لا تُميز ألبتة في أثناء خطواته. فالصيد ممنوع منعًا باتًا، مثل غيره من الأشياء الكثيرة الممنوعة.

يركض على الطريق للاختباء خلف ظلال وجذوع الأشجار القليلة المتناثرة. يهبط مسرعًا المائة وخمسين درجة سُلم الكنيسة، وقبل أن يصل إلى الميناء ينعطف يسارًا في الممر الترابي. لم يتبقَّ سوى أقل من كيلومتر على الشاطئ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمر الوقت سريعًا، بينما هو يراقب باستمرار خط الأفق والنجوم، وتلك الساعة غير المرئية العالقة بينهما. ما زال هناك نصف ساعة حتى يظهر أول ضوء، ومع ذلك لم يلتقط خطاف صنارته أي شيء حتى الآن. يستعد ليحرك صنارته، لكن حركته تجمدت عندما اخترق الظلام صوت رجلين. من المستحيل أن يفهم ما يقولانه، كما أنه غير مهتم بذلك أيضًا. فكل ما يهمه هو عدم الإمساك به وهو يصطاد.

تقترب الأصوات ببطء وثبات. لا توجد شجرة أو أي مكان للاختباء ضمن دائرةٍ نصف قطرها خمسون مترًا على الأقل، سيُسمع صوت الركض على الحصى كطقطقة الخيل. يشعر كأنه يريد أن يتبول، لكنه يعرف حيل الخوف الرخيصة، يضع قدمه اليمنى في المياه، إنها متجمدة كعقله، بدأ ظِلُّ الرجلين في الظهور من نهاية الممر، يأخذ نفسًا، يضغط بيده على الصنارة ثم يغطس في المياه، يكاد يكون رأسه مغمورًا في الماء، بينما فمه لا يكاد يبرز على سطحه.

يصل الرجلان إلى المكان حيث يصطاد. حتى لو بحثا عنه، فلن يتمكنا من تحديد موقعه. إنه يسبح بالفعل في صمت على بعد خمسين مترًا أو ستين. يمسك الرجلان بشيء في أيديهما ويصيحان بكلمات غير مفهومة، عبارات اعتراضية.

لقد بدآ العدّ.

- واحد.. اثنين.. ثلاثة.. هوب.

يصل صوت السقوط إلى أذنيه متضاعفًا بسبب تأثير المياه. يغادر الرجلان ويبدو أن حمولتهما قد استقرت بكل تأكيد في البحر، ظلَّ في مكانه حتى ابتلعهما الليل. لا تبدو السباحة لعبة صيفية، إذ إنه ما زال يقبض بيديه على صنارته ويرتدي كامل ملابسه، وزن معطفه يساوي وزن مدينة كاملة، معلقة من الأعلى في مكان بعيد، دون أضواء.

يستغرق الأمر ثلاث دقائق أو أربعًا حتى يصل إلى السطح ويطأ القاع بقدميه. الحمولة التي ألقاها الرجلان تطفو بجانبه، إنه كيس كبير من..

يا للهول! إنه جسد بشري، أصبح غير قادرٍ على التفكير أو فعل أي شيء، يسحبه إلى الشاطئ، يحبس منظر المرأة الشابة أنفاسه وهي تنظر إليه بعينيها الميتتين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجاحظتين. كانت ملفوفة في بطانية. هل هو الفضول أم أن شهوةً عابرة جعلته يجردها من آخر غطاء لها؟

يتراجع بدافع الغريزة بضع خطوات إلى الوراء، يلاحظ وجود علامة سوداء غريبة على الجزء السفلي من الجانب الأيسر لثديها، يقترب منها ثانية كي يرى جيدًا، إنه جرح لم يُكتب له الشفاء، لم ير شيئًا كهذا من قبل، والآن هناك شيء يسحبه بقوة بالقرب منها، غير قادر على المقاومة بعد، يمد أصابعه كي يتحسس الجرح، فراغ لا يمكن تفسيره، كيف فُتح جسد إنسان بهذا الشكل؟

يجب عليه إبلاغ شخص ما، لكنه لا يريد أن يخاطر بأن يعلم الجميع أنه كان يصطاد، خاصةً في الليل. في النهاية يقرر الفرار من المكان، هذا الجرح تحت الثدي، والعينان الجاحظتان، والجثة الجميلة ستطارده. ربما لأنه يعرف تلك الفتاة، في يوم من الأيام كانت كل المدينة فخورة بها.

بعد ساعتين كانت الشرطة تنقل جثتها من المكان، فقد وجد عامل الميناء جثتها بعد الفجر بقليل، وقد جرفتها المياه إلى الشاطئ. صدرت الأوامر سريعًا، وتمت تجهيزات الدفن في لمح البصر، يُسمح فقط للوالدين برؤية وجه ابنتهما للحظات معدودة.

جحافل من الناس تشق طريقها نحو المقبرة ظهر اليوم نفسه. وخلال مراسم الدفن كان جسدها بالكامل مغطى بإحكام تحت التابوت، كان الأب على وشك أن يتفوه بشيء ما، لكن لحسن الحظ شخص ما يغلق فمه في الوقت المناسب.

"غرق"، إذا بحثت في سجلات المدينة، فستجد هذه الكلمة كثيرًا أمامك، إنها النسخة الرسمية. لم يُكلف الطبيب الشرعي بالقضية قط. حتى ولو كُلف بها، فماذا عساه أن يقول؟

شخصان فقط عرفا ما الذي حدث. أولهما تحدث إليها في الليلة السابقة، وقف أمامها ساعة كاملة يكرر العبارات نفسها، يحذرها من مصيرها، لكنها ظلت تنظر إليه في ذهول مستسلمة لمصيرها المحتوم.

الشخص الثاني الذي يعرف سبب الوفاة، كان قد هرب بالفعل بعيدًا. بعد عدة سنوات أيقن أنه كان يستطيع أن يغلق بأصابعه ذلك الجرح الموجود أسفل الثدي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن هناك بعض الجروح التي لا تندمل وتظهر ثانية في المستقبل.

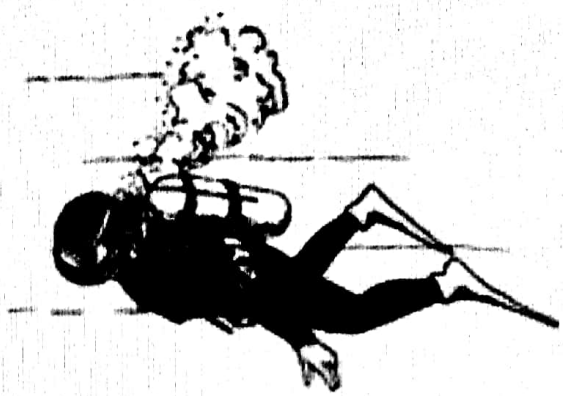

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

"سيفرق بيننا الضوء.. سيفرق بيننا الضوء". بعدها يتلاشى ويختفي صدى ذلك الصوت البعيد. عندما أفتح عيني، لا أتذكر سوى هذه العبارة. هل هي بقايا حلمٍ أم هو حديث بعض الأسماك؟ بعض الرسوم الكرتونية تتحرك على شاشة التلفزيون التي ما زالت تُومض منذ ليلة أمس، رنين جرس الباب يوقظني للمرة الثانية في الساعة العاشرة وعشرين دقيقة صباحًا.

رجل يقف دون حراك في مدخل البيت، وينظر نحوي بفضول.

- السيد "كريس باباس"؟

- بالفعل.

- آسف على إيقاظك.

- لا.. أنا..

لا أجد أي شيئًا لإنهاء جملتي، لو كانت عندي موهبة اختلاق الأعذار لصرت محاميًا وليس محققًا. اتجهنا إلى غرفة مكتبي دون أن ننبس ببنت شفة، وجلسنا في مواجهة بعضنا البعض. جلد كجلد ثعبان رمادي، تجاعيد تشبه خط السكة الحديد، خطان باليان عوضًا عن الحاجبين، وليس هناك أي أثر لشعرة واحدة، بين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملامح وجهه البالية يختبئ آخر لون، تلمع عيناه كما لو كان مصابًا بالحمى الزرقاء، يبدو لي أنهما تخمنان أفكاري.

- أنت على حق، أنا طاعن في السن. عادة لا يجب أن أكون هنا. فلا أحد يحتاج أن يعيش حتى يبلغ هذا القدر من العمر. لكن في معظم الأحيان ليس لدينا حق الاختيار، فمن سخرية القدر أن تُحدد مصائرنا دون حضورنا.

تبدو كلماته غير منطقية. يراودني شعور ممل أنه يقصد من وراء كلامه شيئًا مختلفًا عن الذي أفهمه منه، ربما هذا بسبب أني استيقظت لتوي، أو بسبب رأسي.

- هل تريد فنجان قهوة؟

- لا داعي لذلك.

- سأعد فنجانًا لنفسي على أي حال.

- إذًا فنجان شاي.

في هدوء المطبخ، أُعِدُّ الفنجانين. خارج النوافذ تُشكل الأسطح الرمادية المبتلة العمود الفقري لمدينة "هامبورج". بينما هيئة الرجل المجهول وكلماته غير المترابطة تحيط بالمكان حولي، سقطت المياه الساخنة على يدي. امتزج الصراخ ببعض السباب. قرأت ذات مرة أن معجون الأسنان يساعد على تخفيف الألم، فعدتُ إلى مكتبي ممسكًا بأنبوب Colgate بدلًا من الشاي والقهوة.

- حرقٌ؟

- نعم، المياه..

- زيت وملح.

- ماذا؟

- تحتاج إلى تغطيته بالزيت، وبعد ذلك ترش عليه الكثير من الملح.

هل نبرة صوته المطمئنة أو ارتباكي هو الذي دفعني إلى قبول نصيحته؟ كنت أحمل زجاجة بلاستيكية في يدي عندما أدركت أنه قد تبعني بهدوء إلى المطبخ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هذا ليس زيت زيتون.

- هل نوع الزيت يشكل أي فارقٍ؟

- كل شيء له دور محدد. هل تسمح لي أن أفعل ذلك بنفسي؟ هل لديك ملح خشن؟

- في الخزانة.

مسح الحرق ببعض المناديل الورقية المبللة بزيت البذور، وبهدوء رش فوقه طبقة رقيقة من الملح. يعتني بيدي، بينما أنا أراقب يده. عروق رصاصية تمر خلالها، كأنها أنهار متناهية الصغر تبحث عن بحيرة ما وراء جسده. خارج الغرفة يتردد صدى صوته بطريقة أكثر غموضًا الآن.

- سيد "باباس"، أريد منك أن تراقب إحدى السيدات. اسمها "إيفا ديبليج"، وهي تعيش هنا.. في "هامبورج". تبلغ من العمر واحدًا وأربعين عامًا وتعمل سكرتيرة في مكتب محاماة.

- مراقبة عادية؟

- لا أعرف ما الذي تتضمنه كلمة عادية، لا أريدها أن تغيب عن ناظريك لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة كاملة.

- سيكون الأمر أسهل إذا أخبرتني بالضبط ما الذي نبحث عنه.

- اجمع أكبر عدد ممكن من الأدلة قدر استطاعتك. إذا كان بإمكانك أيضًا أن ترسل إليَّ بعض المستندات المرئية أو الصوتية، فسأكون ممتنًا للغاية.

- تريد صورًا وبعض مقاطع الفيديو. حسنًا، لكن عن ماذا؟ عن علاقة غرامية مثلًا؟

- عن أي شيء تراه أنت مهمًا، سأترك لك تقدير هذا الأمر.

- ما الذي أحتاج إلى معرفته أيضًا عن هذه السيدة؟

- لا شيء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أتطلع ثانية إلى الرجل الجالس بجانبي. كم يمكن أن يكون عمره؟ مائة؟ أكثر من مائة؟ هذه هي المرة الأولى التي أتحدث فيها مع عميل في مطبخي. ريبتي من فكرة أننا خارج المكان المناسب والزمان المحدد تأتي في المقام الأول قبل أي شيء.

- سيد "باباس"، سأعود يوم الخميس في السابعة مساءً. أترك لك مقدم أتعابك، وبعض المعلومات الضرورية عن السيدة "إيفا ديبليج"، وأيضًا هاتفي. بإمكانك الاتصال بي أي ساعة تريد. لو استطعت الحصول على أدلة صوتية أو صور، فستحصل على أموال إضافية، سأترك لك تحديد المقابل الذي تريده.

يقف بحركة بطيئة نسبيًا، بينما يوحي معطفه الأسود الطويل بشخصية تنتمي إلى الماضي في فيلم تعبيري، يسحب ظرفًا من جيبه الداخلي ويضعه بعناية على طاولة المطبخ، يقف قليلًا عند الباب، بينما لا تزال تعلوه تلك النظرة اللامعة.

- من الغريب.. أنه ليس لديك زيت أفضل. فاليونانيون مشهورون بهذا.

- كيف تعرف أصلي؟

- إلى اللقاء سيد "باباس".

يحتوي الظرف على عشر ورقات نقدية من فئة المائة يورو، وبطاقة بيضاء مدون عليها أحد العناوين في "هامبورج"، وصورة بطاقة شخصية. "إيفا ديبليج"، لديها شعر أشقر قصير، وأنف صغير، وشفتان مشدودتان، عظمتا وجنتيها البارزتان قليلًا على وجهها تضفيان جوًا سلافيًا، وتجعلانها تبدو أصغر بخمس سنوات أو ستٍّ. تحدق إلى عدسة الكاميرا، كأن لا أحد خلفها، احتقار ولا مبالاة ينافسان بعضهما البعض.

بعد فوات الأوان أدركت الشيء الناقص، فالعميل لم يذكر اسمه، كما أن الظرف لا يحتوي على أي شيء آخر. هل سيكون رقم الهاتف كافيًا؟ أعتقد أن الألف يورو ستفي بالغرض.

الثلاثاء 18 يناير. في مثل هذا الوقت، تكون المراقبة في شوارع "هامبورج" ممتعة كتسكع العراة في القطب الشمالي. أرتدي كل ما يمكن ارتداؤه، ثم أضيف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سترة أخرى.

في مترو الأنفاق أفكر ثانيةً في القضية، يطلب جميع الأزواج المخدوعين والعشاق الغيورين تقريبًا هذه المراقبة الدقيقة، التعطش إلى الأدلة الفوتوغرافية أو الصوتية يظل في المقام الأول، رغم أنهم يعرفون بالفعل أنها ستؤذيهم بدرجة كبيرة. هل تُخفي الطبيعة البشرية شيئًا من المازوخية؟ أم أن إمكانية الحصول على بعض الحقائق المؤلمة تعد أكثر قيمة من تجنب الألم نفسه؟

رياح ثلجية تضرب مخرج محطة مترو "شتيفانبلاتز"، الشوارع خالية من الناس، فقط حركة السيارات القليلة هي التي توحي أن المدينة ما زالت على قيد الحياة، أنا الآن بالفعل في "ميتلويج"، وبعد قليل يجب أن أتجه يسارًا حتى أصل إلى " فونتيني".

أشعر بالامتنان للأشجار التي قُبِلت أن تنمو في "هامبورج"، كما أني ممتنٌ لكل مدينة بها أشجار. يومًا ما سنعيش في قبور أسمنتية، وفي فجر كل يوم خدم بثيابٍ سوداء وحراس بملابس بيضاء سيزيحون عنا أغطية تلك الجحور العميقة الخالية من الأحلام حتى نتمكن من القفز خارجها. سنتطلع إلى الكون، كأننا نُحييه للمرة الأخيرة. وستظل الشمس معلقة في مكانها غير مبالية، معتقدة أنه لا أحد أسوأ منا لعب تلك اللعبة.

بلا شك يعتبر فندق " إنتركونتيننتال" في شارع "فونتيني " دليلًا على الجمال المعماري الزائف. فهو يشبه صندوقًا ضخمًا قام مهندس معماري آخر فاقد للتذوق الجمالي بتقسيمه إلى مربعات، وألقى بها على جانب الطريق. يقع المبنى الذي تعمل فيه "إيفا ديبليج" على بعد ستين أو سبعين مترًا. أبحث دون جدوى في مدخل المبنى، لا توجد أدنى علامة على مكتب محاماة. أوشكت أن أقع على وجهي فوق الرصيف عندما ألقيت نظرة على هاتفي المحمول لأول مرة، كانت رحلتي قد بدأت من الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق بعد الظهيرة. أعيش في عالم شخص آخر لمدة يومين كاملين.

في الواحدة واثنتين وثلاثين دقيقة بالضبط أترك موقعي وأدخل فندق "إنتركونتيننتال" مسرعًا. تحت النظرة الناعسة لعامل البار احتسيت "الكونياك" في حركتين تشبهان ركلة كونج فو. دون تغيير وتيرتي أعود على الفور إلى موقعي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السابق. منذ بدء المراقبة لم يخرج سوى ثلاثة رجال من المبنى. أربع دقائق أو خمس فقط هي المدة التي استغرقها احتساء "الكونياك". احتمالية ظهور "إيفا ديبليج" في هذه الأثناء موجودة لكنها ضئيلة جدًا، أو على الأقل هذا ما أخبر به نفسي.

في الثالثة واثنتي عشرة دقيقة أعيد الكرة نحو بار فندق "إنتركونتيننتال". يُقدم النادل "الكونياك" في الحال، فقد أصبح يدرك الآن أهمية الزمن المفقود، (ربما يقرأ "بروست"). "الكحول الطازج يحفز العقل"، هكذا أقول لنفسي. بدأت الشكوك تراوِدُني، ماذا لو أخطأ العميل في كتابة العنوان؟ ماذا لو أُغلق مكتب المحاماة أو نُقل إلى مكان آخر؟ بالنسبة لي يبدو الحل بسيطًا.

"فرانز سليمان"، في الطابق الثالث، لا يستجيب لرنين الجرس المستمر، أين أنت الآن يا عزيزي "فرانز" وأنا في أشد الحاجة إليك؟ لحسن الحظ تسكن "كريستينا باخ" في الطابق الثاني، سيدة لطيفة ذات صوت ناعم، باستطاعتها الغناء في حفلات الأطفال لأولياء الأمور السكارى.

- ماذا تريد؟

- صباح الخير. نحن نعمل في DHL لخدمة التوصيل، ونبحث عن السيد "سليمان" في الطابق الثالث. يجب أن نترك له إخطارًا باستلام أحد الطرود.

فُتح الباب لتستقبلني رائحة طلاء الجدران البلاستيكية الحديثة التي تُشعر بالدفء، لست على عجلٍ، أربعة طوابق، أكثر من عشرين بابًا، لا يوجد بين السكان أي إشارة لوجود مكتب محاماة أو "إيفا ديبليج". على هذا النحو غالبًا ما تنتهي بسرعة أحلام البقاء في الممرات الدافئة.

في الرابعة واثنتين وعشرين دقيقة بعد الظهيرة أحتسي كأس "الكونياك" الثالثة، بينما الشعور بالشفقة تجاهي بدا واضحًا الآن في عيني النادل، في السادسة والربع إمكانية أن أتحول إلى رجل ثلج تُعد سهلة المنال، إذ تستمر درجة الحرارة في الانخفاض. في السابعة إلا عشرين دقيقة تشعر لعبة الحظ بالأسف من أجلي. فُتح باب المبنى وخرجت منه امرأة ذات شعر قصير، ترتدي وشاحًا ومعطفًا بنيًا من الجلد يغطيها حتى الركبة، وبنطالًا أخضر غامقًا، صوت حذائها يُسمع على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممر، تُخرِجُ هاتفها من أحد الجيوب الداخلية، من الواضح أنها تتحدث بصوت منخفض، على كل حال لا أستطيع سماعها، فالمسافة بيننا حوالي خمسين مترًا على الأقل. تسير بسرعة وأنا لا أستطيع أن أقترب منها أكثر من ذلك في مثل هذه الشوارع الخالية، تستمر مكالمتها الهاتفية دقيقتين إلى ثلاث دقائق.

يفصل بيننا نحو عشرة ركاب ونحن نصعد إلى عربة المترو نفسها. منذ اللحظة التي خرجنا فيها من المترو في محطة "شتينستراس"، أخذت "إيفا ديبليج" تسير بسرعة أكبر، فكرة أنها تحاول الهروب مني تبدو فكرة هزلية للوهلة الأولى، ومثل كل الشخصيات الهزلية فهي أيضًا ترفض الاختباء. تلهث أنفاسي باستمرار، تختفي الشوارع خلفنا كحب ينتمي إلى الماضي، بينما ننزلق نحو متنزه متجمد في مدينة أشباح، لم يكن من المفترض أن أحتسي الشراب دون أن آكل أي شيء.

يتحول صوت ارتطام حذائها العالي على الرصيف إلى إيقاع مقلقٍ. كم من الوقت تسير على هذه الحالة؟ من الواضح أنَّ "إيفا ديبليج" تزيد وتيرة سرعتها باستمرار، أو أن قوايَ بدأت تنهار. لقد تجاوزنا بالفعل أربعة جسور.

"نجمة الميناء"، هكذا يسمى الفندق الذي دخلت إليه مسرعةً. تحت الضوء الأصفر الخافت الذي يحيط بالمدخل، تتدلى لافتة عليها صورة نجمة باهتة، من الواضح أن هذا المبنى المتهالك المكون من ثلاثة طوابق يحاول السخرية من اسمه وحالته والنجوم.

أجد نفسي بعد عشر دقائق أمام مكتب الاستقبال. يتطلع إليَ الموظف شبه النائم كما لو كان لديَ ثلاثة رؤوس بلا جسد، أشعر أنا أيضًا بالشيء نفسه. يحرك مسبحة حمراء بأصابع يده اليمنى.

- ألديكم غرف خالية؟

- خمس وأربعون يورو.

- السيدة التي دخلت قبل قليل.. كم ليلة حجزت؟

بقي صامتًا تمامًا، كأنه لم يسمع سؤالي، حُلت مشكلة السمع سريعًا حالما وضع في جيبه الخمسين يورو التي تركتها على الطاولة.

- حجزت السيدة هذه الليلة فقط.

- أريد الغرفة المجاورة لها.

هناك بعض الأشياء التي نفهمها دون الحاجة للتعبير عنها. لو لم يكن عاملًا ليليًا، لكان بمقدوره العمل في سوبر ماركت، وليس في مثل هذا المكان. يستغرق الأمر منه بعض الوقت لإخفاء الخمسين يورو الثانية.

- وخمس وأربعون يورو لليلة الواحدة.

لست في وضع يسمح لي بالتفاوض. في الحقيقة أنا غير قادرٍ حتى على الوقوف على قدمي، وهو يعرف ذلك بالتأكيد؛ ولهذا السبب فإنه ليس في عجلة من أمره عندما بدأ بالتخطيط بقلمِ رصاص قديم في دفتر ملاحظاته.

- بطاقة الهوية من فضلك.

- ليست معي.

تتلاقى نظراتنا مرة أخرى. نقف متقابلين، صامتين، يعلو وجهينا ابتسامةٌ ساخرة. سيتطلب الأمرُ خمسين يورو أخرى أو حفنة من الدولارات كما كنا نسميها قديمًا كي يتحرك العالم ثانية. حول حلقة مفاتيح على شكل نجمة كبيرة يتدلى مفتاح الغرفة رقم 106.

- هل لديك أي مُسكّن للآلام؟

يحني رأسه، يجر قدميه، ثم يختفي خلف باب يصدر صريرًا أقوى بقليل من صرير بوابة الجحيم السابعة. يوجد أمامي دَرج يقود إلى الطابق الأعلى، من المؤكد مرت به الكثير من الأفعال المشبوهة، والأسرار الهشة، والرغبات المكبوتة، وسجائر لا يمكن عدها، لكنه لن يشي أبدًا بأي شيء من هذا. عاد موظف الاستقبال وألقى حبة الدواء فوق الطاولة.

- هدية من المكان.

أصعد – بدوري - إلى الأعلى ممسكًا في يدٍ ميدالية بلاستيكية على شكل نجمة وفي الأخرى حبة الدواء. أسير كالأعمى في ممر الطابق الأول بسبب لونه الأخضر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الغامق، وإضاءته الخافتة بشكل يثير الشفقة. يبدو رقم 106 كأنه عائم على سطح ضبابي مخادع. قبل أن أتوه في ذلك الضباب، ألقي نظرة على اللافتة المجاورة. غرفة 107، ملجأ "إيفا ديبليج".

يرحب بي جو منزلي بحت: سرير حديدي مزدوج، ومرآة قذرة، ومصباح واحد محترق، لكن مصباح القراءة ما زال على قيد الحياة. ليس هناك كلمات نصِف بها الحمام، فهو يشكل بذاته كوكبًا جديدًا لا يرغب أحد في زيارته. أنحني تحت الصنبور، بينما حبة الدواء والمياه تؤديان معًا رقصة "الفالس" وهما متجهتان نحو حلقي شديد الجفاف.

لحسن الحظ لا يصدر السرير صريرًا. مع أول نظرة إلى السقف بدأتُ أتبين حالتي. آمل أن ينتمي هذا الجسد الضعيف والهزيل إلى رجل آخر قابلته ذات مرة في رحلة وحيدة إلى القارة القطبية الجنوبية، لا أعرف اسمه، لن أرى وجهه، أود ألا ألتقيه أبدًا.

سيكون من الرائع تناول شيء ما، لكن هذا الاحتمال يبدو بعيدًا مثل ذلك المصباح المحترق الذي يتدلى من أعلى. ما القوة التي دفعت "ديبليج" إلى هذا المكان الكئيب؟ ليس لديها ولا لديَّ أنا أيضًا إجابة عن هذا السؤال، وصلنا إلى هنا معًا. تبدو "هنا" فجأة كأنها منعزلة جدًا عن المدينة، عن الناس، وعن المستقبل. أصابتني الحمى بالهذيان أو أنها جعلتني أرى بوضوح أكثر. أرهف السمع حولي على أملِ أن أميز شيئًا في هذا الصمت العظيم. كم مضى من الوقت؟ فجأة يُسمع صوت شيء يرتطم بالأرضية الخشبية. ألصقت أذني بالجدار الفاصل بيننا.

- لا.. لا تقتربي أكثر.

صوت رجالي يعطي الأوامر في الغرفة المجاورة.

- هناك.. هكذا! أفضل بكثير.

عمر المتحدث بين الثلاثين إلى الخامسة والثلاثين تقريبًا. بعد قليل يُفتح الباب 107 وخطوات تعبر الممر. من وَقْعِ الخطوات المميزة أدركت أنها "إيفا ديبليج". بعد مرور لحظات يُغلق الباب خلفها مجددًا، بقي الرجل في الغرفة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا بد أن ألحق بها، لكني لو أسرعت، فهناك خطر أن أكون قريبًا جدًا منها، ولو تأخرت فقد أفقدها. نهضت مستعدًا للخروج، عندما سمعت صوت خطواتها في بداية الممر، تسير الآن بإيقاعٍ مختلف. يفتح الرجل باب الغرفة 107 حتى قبل أن تصل هي. الأرضية الخشبية تعكس جميع الأصوات، تمر "إيفا ديبليج" متأرجحة أمام باب غرفتي، وعندما تصل إلى جانب الغرفة الأيمن تتوقف قليلًا، حركتها تشبه السير في رقص جنائزي.

تدخل ثانية إلى الغرفة، يُسمع صوت المفتاح الحاد، بعدها يسود صمت مطلق لمدة دقيقتين أو ثلاثٍ. وفجأة تبدأ الموسيقى. أنتفضُ واقفًا من هول المفاجأة، لا تحتاج موسيقى الـ"رامشتاين" إلى صوت مرتفع كي تخترق الجدران الورقية، معزوفة "رائحتك جميلة جدًا" (Du riechst so gut) تشبه محاكاة ساخرة بشعة، بينما نحن محاصرون داخل ذلك الفندق المتهالك. تنتهي المعزوفة، ومن ثمَ تبدأ من جديد دون أي توقف.

عُزف المقطع الموسيقى نفسه ست مرات بوتيرة ثابتة. أتخيل مشاهد جنسية بلا هوادة في الغرفة المجاورة، بينما يجلس عميلي بمفرده في منزله في انتظار مكالمتي، وينقر بأطراف أصابعه على الطاولة، حيث اعتاد تناول العشاء معها كل يوم. إنها أوهامي ثانية. في الحقيقة لا أستطيع سماع شيء آخر من الغرفة 107. الموسيقى ولا شيء غيرها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

يُغرق اللون الأخضر الأدكن للحوائط الغرفة في مستنقع قد اختفت منه الضفادع، ولم يعد يطفو عليه شيءٌ سوى حذائي، يا للسخرية! لقد نزعته من قدمي حتى لا يشعر بي أولئك الذين كانوا يستمعون باستمرار إلى الـ"رامشتاين". يسود الآن هدوء مزعج، لا أستطيع النوم، وأشعر بمرارة الفشل في فمي.

توقفت معزوفة "رائحتك جميلة جدًا" بعد ست مرات متتالية. بعدها لم يحدث أي شيء في الغرفة 107. على الأقل من مكاني هذا لا أستطيع أن أدرك ما يجري هناك، بقيت جالسًا على السرير، وأذناي ملتصقتان بالحائط، بينما أصابعي تمسك بالهاتف الذي يسجل المقطع نفسه مرارًا وتكرارًا. تحت وطأة الإرهاق والخمول وتأثير الدواء المسكن، استسلمت للنوم حتى دون أن أدرك ذلك.

عند الرابعة وأربعين دقيقة أسحب الستارة التي تغطي النافذة الوحيدة الموجودة، يتدفق الظلام في الخارج، ويغرق الشوارع، أغلق بابي، وأخرج إلى ردهة الفندق، شيء يُنبئني أن الغرفة المجاورة فارغة، أيًا كان ما يدور هناك، فقد انتهى بالفعل.

- هل يوجد أحد هنا؟

أسعل أمام "الريسبشن":

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل يوجد أحد هنا؟

يتحرك الباب إلى الأمام، ويظهر من الغرفة الخلفية موظف الاستقبال، وقد بدا على وجه أثر العمل الليلي، يحاول أن يعدل ما تبقى له من خصلات شعره المتناثرة، أو يحاول أن يتقبل ببساطة فكرة أنه جرى إيقاظه مرة أخرى. أترك المفتاح على المنضدة، في تلك الأثناء يظهر فنجان كان مُختبأ حتى الآن في مكان ما في الأسفل ويلتصق بشفتيه. يكافح من أجل استعادة وعيه، بينما أنا أثقل عليه لأجمع القطع المفقودة.

- هل تعرف في أي وقت غادرا؟

- هل تريد كأسًا؟

أريد كأسًا بالطبع. ولتكن ما تكون هذا الكأس الملعونة.

تهبط الكأس الثانية سريعًا على المنضدة، وتظهر قنينة "راكي" بلاستيكية بين يديه. موظف الاستقبال مهاجر تركي، وأنا مهاجر نصف يوناني. من الواضح أن هناك شيئًا مشتركًا يجعل خطوطنا الملتوية تتقاطع في هذا المكان.

نحتسي الراكي.

- رحلا الساعة الحادية عشرة والنصف تقريبًا كما لو كان يطاردهما شيء.

- كم عمر الرجل؟

- في الثلاثين من عمره تقريبًا.

- هل رأيتهما من قبل؟

- ربما السيدة، لكني لست متأكدًا. يمر بي العديد من الوجوه، والكثير من الليالي.

أضع وشاحي حول رقبتي استعدادًا للمغادرة، بينما يصب "الراكي" مرة أخرى.

- خذها معك. سوف تحتاج إليها، والكأس هدية منا.

أعبر أربعة جسور. في "هامبورج" الجسور ليست بجمال جسور فينسيا. كما أنها لا تشتهر بحكايات كحكايات أمستردام الخيالية. على الرغم من ذلك، يحملون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحلم نفسه الذي لا يمكنهم البوح به، كما أن لديهم قصصهم القصيرة عن اختراق الأرض للماء، أو العكس. تستمر الكأس في رحلتها بين يدي، عرف التركي طريقي أكثر مني، لقد كان على حق، كنت في حاجة إليه، لكن حتى "الراكي" لا يمكنه حمايتي من البرودة والتعب فترة طويلة.

تصل بي السيارة عند منزلي في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة، وهكذا أجد نفسي جالسًا في مكتبي أمامي قطعة من الجبن المتعفن بصورة مأساوية كأنها تقول لي: "ماذا تفعل أيها الملعون؟". قبيل الفجر أقر بأن مراقبة "إيفا ديبليج" قد فشلت فشلًا ذريعًا، وأنه عليّ إبلاغ موكلي. لكن في مثل هذا الوقت؟ ولما لا، فقد قال لي: "في أي وقت".

يرنُّ هاتفه أربع مرات قبل أن يجيب. من الغريب أنه لا يبدو نائمًا. تتجاهل روايتي بالضرورة بعض التفاصيل غير الواضحة، وتركز على الباقي. يستمع إليّ بانتباهٍ، دون أن يقاطعني، أو يسألني أي شيء. بخلاف اعترافي له أنه قد غلبني النوم في الفندق، أطلب منه تحديد موعد من أجل إعادة مقدم الأتعاب.

- كيف حال يدك الآن سيد "باباس"؟

- جيدة.. أعني، أشعر بقليل من الألم.

- يجب أن يفحصها طبيب إذا ما استمر الألم. أود أن تستأنف المراقبة من الغد. تمامًا كما اتفقنا. لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة متواصلة.

لقد أنهى الاتصال بي بالفعل، من تحت أغطية السرير أدرك أنني نسيت للمرة الثانية أن أسأله عن اسمه. أشعر كأن آلاف الكؤوس التي تتمثل أمامي الواحدة تلو الأخرى وهي ممتلئة بـ"الراكي" قد بدأت لتوها حفلة راقصة، بينما أسمع من بعيد موسيقى الـ"رامشتاين"، "رائحتك جميلة جدًا".

أفتح عينيّ في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرًا، وأستغرق نصف ساعة أخرى كي أنهض من مكاني. ما زال الحرق كما هو. أضيف إليه الزيت والملح كطباخ مشعوذ، أستحم بيدٍ واحدة، ثم أتناول قهوة "دوبل". يجب أن أعثر سريعًا على شيء أتناوله، والحل السهل يكمن خلف باب الشقة المجاورة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد خمس دقائق، تكوّمت في مطبخ السيدة "كينو"، التي أخذت بالفعل تقلي لحم الخنزير المقدد، والبصل، والبيض، والفلفل، والجبن. رائحة البيض "الأومليت" الخارجة من الفتحات الصغيرة توحي بدفءٍ أسري لا ينتمي إليه أيٌ منا في الحقيقة.

السيدة "كينو" أرملة ذات أصول فرنسية. كان زوجها ألمانيًا، تسكن في "هامبورج" منذ خمسة عقود. و"كريس باباس" يوناني -ألماني، أعزب، مقيم في "هامبورج" منذ عقدين، لا توجد مساعدة محقق في المجرة أكثر سحرًا من السيدة "كينو". و"كريس باباس"، هو المحقق الأقل أجرًا في المدينة.

تجلس بجواري، ترغب في الحديث، لكني أبدأ بتناول الطعام. لا تتفوه بأي شيء حتى أنتهي من الطعام، بينما تستمر هي في النظر إلى راحة يدي المحروقة.

- حادثة. سكبتُ الماء المغلي على يدي.

- أين كنت أمس طوال اليوم؟

- توليت قضية جديدة. لكنها انتهت الآن.

لقد اتخذت قراري بالفعل، فعلى الرغم من رغبة موكلي، فإن مراقبة "إيفا ديبليج" لن تستمر. حتى لو أردتُ أنا ذلك، فحالتي لا تترك لي أي احتمال. هي مسألة وقت كي أجري آخر مكالمة هاتفية. سأردُّ مقدم الأتعاب إليه.

تبدو "هامبورج" صاخبة في الخارج، والمنظر من هنا من أعلى يخلق إحساسًا بالطمأنينة الخادعة بأنه لا شيء يتغير، وأنه يمكننا أن نسير بلا توقف في الشوارع نفسها. تلمس السيدة "كينو" راحة يدي. نشاهد معًا كل مساء أفلامًا قديمة، لا، لا يمكن أن تكون أمي، فلديها زوجها ومنزلها في برلين، لا، لا يمكن أن تكون صديقتي أيضًا، تلك التي لا وجود لها.

- ماذا وضعت عليه؟

- زيتًا وملحًا.

- لماذا؟

- أفكِّر في طهيها. فلنترك هذا الأمر.. لو سمحت. لقد تحسنت بالفعل. ماذا سنشاهد اليوم؟

- فيلم «التعويض المزدوج «.

- مرة أخرى؟

- "بيلي وايلدر" و"رايموند تشاندلر" مرارًا وتكرارًا! "كريس".. شخص ما يطرق باب مكتبك.

اثنان من ضباط الشرطة يقفان في ردهة المبنى السكني خارج شقتي، الرجل الطويل الذي يرتدي الزي الرسمي يبلغ من العمر نحو خمسة وثلاثين عامًا، وتوحي هيئته كأنه صبي ساحر مطيع، الساحر الثاني قصير وممتلئ الجسم، في الخمسينيات من عمره، ويرتدي سترة سوداء وبنطالًا أزرق به الكثير من الطيات، على وجهه يظهر أثر "روتين" العمل مع الكثير من البطاطا المقلية والنقانق.

- هل تعرف أين يكون السيد "كريس باباس"؟

- يقف أمامك.

- نريد أن تُجيب عن بعض الأسئلة.. الشخصية.

بطريقة أخرى، هذا يعني أنه يجب علينا الذهاب إلى مكتبي. يجلسان على الكرسيين الفارغين، ويفحصان المكان لبضع ثوان بحب استطلاع مبتذل. يعرفني الساحر بنفسه:

- "كورت يانسن"، مفتش شرطة.

لحسن الحظ، قرر أن يبدأ من دون مقدمات أو مجاملات زائفة.

- أين كنت مساء أمس واليوم صباحًا؟

- قضيت اليوم في العمل والنوم.

- هل يمكنك أن تعطينا شرحًا أوضح؟

- بالنسبة للنوم، لم أجد بعد تفسيرًا مقنعًا. حتى العلم لم يجد له تفسيرًا. أما

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالنسبة للعمل فأنا ملتزم بالسرية المهنية. إن كنتما تريدان أي شيء آخر، فمن الأفضل أن تسألا بوضوح.

- حسنًا. دعنا نجرب ذلك إذًا. هل يتصادف أنك تتعامل مع قضية تخص رجلًا كبيرًا في السن؟

- ماذا تقصد بقولك "كبيرًا في السن"؟

- لو رأيته، فأنت تعرف جيدًا ما أعنيه بالفعل.

- ما اسمه؟

- نحن لا نعرفه، لكننا نتخيل أنك ستساعدنا في هذا.

- كيف أساعدكم إذا لم تخبروني باسمه؟

- "سيد باباس"، بإمكاننا أن نواصل السخرية من بعضنا البعض، لكن ليس لديَّ الوقت ولا الرغبة. لذلك سأجعل الأمر بسيطًا قدر الإمكان. سأعرض عليك صورة لهذا الرجل وستخبرني إذا كنت تعرفه.

يُخرج بسرعة هاتفًا محمولًا من داخل سترته، ويضغط على زرين ويسلمني إياه. صورته واضحة كالشمس، بالطبع أتعرف إلى صورة الرجل على الشاشة، كان يجلس أمامي قبل ساعات قليلة، على الكرسي نفسه الذي يجلس عليه مفتش الشرطة. لكني أقرر عدم الاعتراف بذلك، لماذا؟ على ما يبدو بسبب هول الصدمة المفاجئة. في الصورة يغلق موكلي عينيه، كما أن تعبيراته الهادئة تمامًا لا تترك أي مجال للشك. إما أن يكون نائمًا أو ميتًا.

- حسنًا، هل تعرفت إليه؟

- لا.

- لو كنت مكانك، فسأفكر ثانية. فلن تكون هناك فرصة أخرى كي نتعاون معًا. هل ستخبرنا في النهاية مَن هذا الرجل؟

مع مرور الوقت يزداد احتمال أن ألقي نفسي في حفرة دون أسماء أو تفسيرات أو اختيارات، إن قلت الحقيقة، فسيتوجب عليَّ الاعتراف بأني قبلت مراقبة سيدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بناءً على رغبة شخص لا أعرفه، كما أني تلقيت بالفعل أموالًا منه، وكلاهما خطأ مهني فادح.

- ماذا هناك سيد "باباس"؟ هل سنلعب الغميضة وقتًا طويلًا؟

- لا

- لا؟

- لا أعرف ألبتة الرجل الذي في الصورة.

- اخترت طريقًا وعرًا، وهذا حقك، ربما تكون قد خمنت بالفعل أننا نتحدث عن شخص ميت. سيتعين عليك الآن أن تشرح لنا كيف انتهى الأمر ببطاقة عملك في جيبه.

- يوجد الكثير من بطاقات العمل هنا وهناك، تقريبًا كل عميل لي يأخذ معه بطاقة. من الواضح أن أحدًا أعطاه إياها.

يقفان معًا في اللحظة نفسها كي ينصرفا، إنها الفرصة الأخيرة لي أيضًا للحصول على بعض المعلومات.

- أيمكنني طرح سؤال؟ أين وُجد ميتًا؟

- بما أنك لا تعرفه، فلماذا تهتم بمثل هذه التفاصيل التي لا معنى لها، سيد "باباس؟"

- هذا المكان تحديدًا.. قد يكون مرتبطًا ببعض القضايا التي أعمل عليها. ربما توجد علاقة أخرى لم أكن على دراية بها حتى الآن.

- وجدناه في فندق "نجمة الميناء" وهو فندق ثلاث نجوم، قريب بعض الشيء من محطة القطار الرئيسة. بشكل أكثر تحديدًا في الغرفة 107. فهل يُذكِّرك كل هذا بأي شيء؟

- لا، ما سبب الوفاة؟

- أنت تسأل كثيرًا سيد "باباس". تطرح الكثير من الأسئلة عن شخص لا تعرفه ألبتة. على الرغم من ذلك، أعدك أننا سنلتقي مرة أخرى، قريبًا جدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4

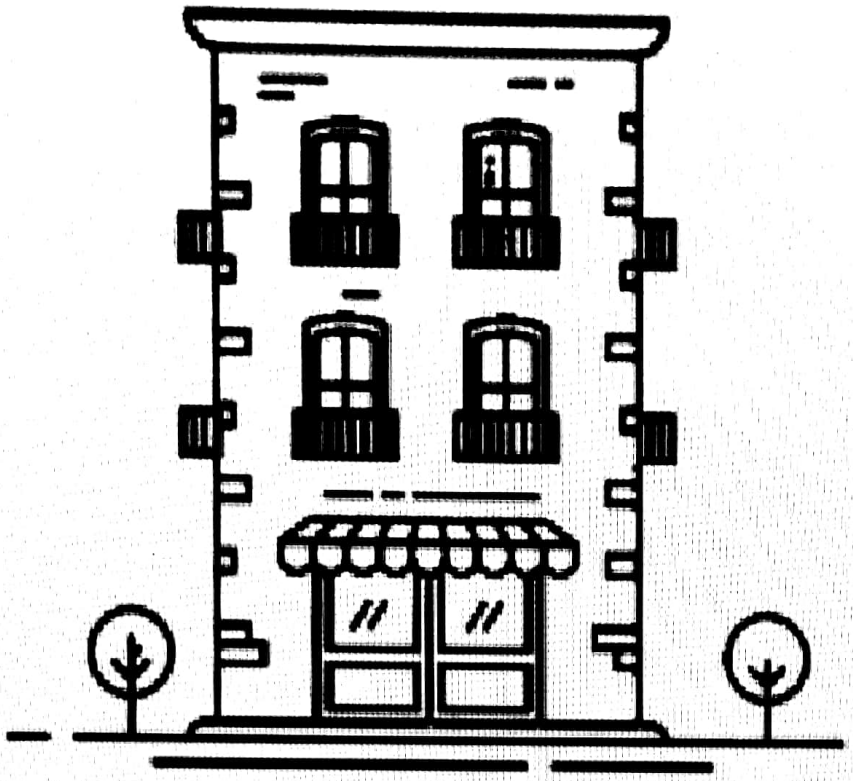

"Oh mich pepli gering plig in eso. أستمع إليها دون توقف، أكتب حروفها على ورقة، ومن ثم أمحوها، أعيد كتابتها مرة تلو الأخرى بطرق متعددة، حتى تمتلئ الورقة بمقاطع غير مترابطة. لا شيء يمكن الجزم به، فالصوت يبدو بعيدًا، كأنه قادم من أحد الكهوف. بعد كثير من العمليات الحسابية المعقدة، هذا هو الاستنتاج: " Oh mich pepli gering plig in eso".

خمس كلمات ربما يمكنني تخمينها: "آواه يا ويلاه، قليلًا، في، أعماق". ما زالت هناك كلمتان غير معروفتين: "pepli، plig". قد تكونان اسمين. حتى لو افترضنا ذلك، هل تعطي أي معنى؟ لا شيء على الإطلاق. هذا هو بالضبط اللغز الذي تركه موكلي على البريد الصوتي الخاص بهاتفي المحمول. اتصل بي في العاشرة وسبع وأربعين دقيقة من صباح هذا اليوم، بينما كان هاتفي مغلقًا، وكنت نائمًا كي يتلفظ مرة واحدة فقط بجملته غير المفهومة. هذا هو الشيء الذي اختار أن يتركه كرسالة أخيرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنها الآن الخامسة بعد الظهر، والفجوة الزمنية بين مكالمته الأخيرة والوقت الحالي أخذت تتحول إلى كتلة هائلة من الأسئلة. ألقى بالفعل رجال الشرطة بعضها بجانب تهديداتهم. أجلس إلى مكتبي، بينما موكلي الآن في عداد الموتى.

رجل بلا اسم. مراقبة بلا تبرير. مهمة ليلية فاشلة. خطأ بلا عذر. رسالة بلا معنى. ربما تشير كلمة "بلا" إلى الاتجاه الوحيد. نحو اتجاه بلا عودة.

في كثير من الأحيان، تبتسم ساخرًا من نفسك في مواجهة الفوضى، فعدم القدرة على الاستيعاب ربما يعود إليك أنت، إلى حواسك المضطربة، إلى تركيزك المُشتت، إلى طبيعتك الانعزالية منذ ولادتك. في أعماقك تعلم أنه لن يُعثر على أي تفسير. الدوامة التي تسحبك ببطء ليس لها شكل محدد، ولا يمكنك حتى أن تخترع واحدًا لها بنفسك. تستمر في الجلوس إلى مكتبك، في فتور وبلا حراك. تتحدث فقط إلى نفسك. لمن غيرك يا ترى؟

بعد اثني عشر عامًا من العمل في مهنة مبهرة؛ محققًا خاصًا بأجرٍ منخفض، تمكنت أن أكون على تواصل مع ضابط شرطة، أعني أنه الشخص الوحيد الذي يتواصل معي دون أن يحاول أن ينال مني. يعمل "جورج ويبر" في "فريدريش شتات"، وهي بلدة صغيرة تبعد مائة وخمسين كيلومترًا عن "هامبورج"، السبب في أن لديه بطنًا مثيرًا للإعجاب يعود إلى عدم قدرته على الصمود أمام النقانق والبيرة. مجموعته النادرة من الطيور المغردة هي سبب كونه وحيدًا عازبًا. ترجع قدرته على الوصول إلى سجلات الشرطة المركزية إلى منصبه مفتشًا للمدينة.

على الطرف الآخر من الهاتف يمكنني سماعه وهو يشعل إحدى سجائره المفضلة، بينما أحاول أن أصف له ما حدث. ينفث بصخب دخان سجائر من نوع "شوارزر كراوسر"، ويتجنب التعليقات غير الضرورية. في النهاية، يخبرني أنه يحتاج إلى مزيد من الوقت لجمع المعلومات حول "إيفا ديبليج"، حيث إنه لا يظهر أي شيء يتعلق بها على جهاز الكمبيوتر الخاص به. قبل أن ينهي المكالمة يعطيني المعلومات الثانية التي أبحث عنها. يعيش "أورهان نيسين" البالغ من العمر ستة وخمسين عامًا في البناء رقم 38 شارع "وينستراس"، في منطقة "فيلهيلمسبرج".

هل توجد بالفعل حياة عديمة القيمة؟ أم يجب أن نخترع كلمة أخرى، كلمة أقل إيلامًا - أعني صحيحة من الناحية السياسية - لأولئك الذين يعيشون هنا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصعد سلالم مبنى خرساني ضخم غير مطلي، حيث يعيش موظف الاستقبال التركي لفندق "نجمة الميناء". قضبان حديدية من قطعة واحدة تحيط بأطراف السلالم والممرات والشرفات والعقول وكل شيء. قضبان، قضبان، قضبان. بعيدًا عن "هامبورج" المطبوعة على البطاقات البريدية، وقريبًا جدًا من نهاية السراب. "الباب الثامن على اليسار، في الطابق الثالث"، هكذا غمغم الشاب الذي كان يدخن جالسًا على كرة القدم في الطابق الأرضي.

ها هو الباب، لونه أبيض، لا شيء مكتوب بجانبه، ولا يوجد جرس. أطرق الباب بيدي.

تفتح لي الباب فتاة بضفيرة شديدة السواد، تبلغ من العمر ثماني سنوات أو تسعًا. عيناها تفحصانني بالفعل، تفصل بيننا قضبان حديدية أخرى، وأسلاك سميكة. أسألها:

- أين والدك؟

تنادي بشيء ما باللغة التركية، ويظهر "أورهان" من خلفها. لا توحي نظراته بأي مفاجأة. ربما شيء من الغضب، أو السخط، أو الكفر، لكنها لا تحمل أي استفسارات. لقد كان "أورهان" ينتظرني.

- في أي ورطة أوقعتموني؟

- نحن.. من نكون؟

- أنت والأشخاص الآخرون من الغرفة 107.

- كم عدد هؤلاء الأشخاص؟

- هل تمزح معي؟ ألم تجدوا أحدًا تدمرونه غيري؟ تركي فقير وأحمق؟

يسحبني إلى إحدى الغرف. من الواضح أننا نجلس على سرير الزوجية. ملاءة حمراء، أربعة جدران، لا شيء غير ذلك. صورة زفاف معلقة. في الصورة تبدو المرأة متألقة، على الأقل تظهر هكذا قبل عشرين عامًا، عندما لم تكن تشك حتى في وجود هذا الكوخ البائس في حياتهم. والآن؟ قضبان حديدية. فالمستقبل الذي تخيلته ينهار، ليلقيك في جحور لم تخترها قط.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الوقت نفسه توجد زوجته وأطفالهم الثلاثة في الجزء المتبقي من المنزل الذي يشكل غرفة المعيشة والمطبخ وغرفة الأطفال معًا في مكان واحد، بينما نحن الاثنان معزولان في مأوى غرفة النوم الخانقة. يمسك "أورهان" بكأس من "الراكي". يدخن السجائر ويطرح الأسئلة محدقًا إلى وجهي. كأسي نصف ممتلئة، أحاول مقاومة رغبة البدء في التدخين ثانية، من حق التركي أن يحصل على إجابة، لكني لا أستطيع أن أقدم له أي إجابة. فكل ما سأخبره به سيكون أكاذيب مخزية.

- يجب أن أعرف بعض الأمور، إذا ساعدتني.. أعدك أن أفعل الشيء نفسه.

- وعود كاذبة.

- ماذا تعرف عن المرأة في غرفة 107.

- حضرت "إيفا ديبليج" إلى الفندق أول أمس، وطلبت حجز الغرفة 107 لليوم التالي، ودفعت الثمن مسبقًا. قالت إن شريكها "تيم" سيصل أولًا الساعة الخامسة بعد الظهر تقريبًا. وهذا ما حدث بالضبط. حضر الشاب في الوقت المحدد تمامًا، ثم تبعته هي بعد ذلك بساعتين، بعدها حضرت أنت، غادر الاثنان قبل منتصف الليل مباشرة.

- والعجوز؟

- ظهر في صباح اليوم التالي قبل الساعة الحادية عشرة بقليل. لقد أثار اهتمامي سؤاله بشكل مباشر عما إذا كانت الغرفة 107 خالية.

- هل تحدث بطريقة أو بأخرى حول "إيفا ديبليج"؟

- لا، أراد فقط إجراء مكالمة هاتفية، أوصلته إلى هاتف "الريسبشن" وغُدتُ أدراجي. استغرق اتصاله الهاتفي بضع ثوان.

- هل سمعت ماذا قال؟

- لم أفهم أي شيء، تمتم ببعض الكلمات غير المفهومة، وأغلق الهاتف على الفور، سألته عن بيانته الشخصية، لكنه توسّل إلي كي أتركه يستريح لبعض الوقت أولًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقد كانت بطاقة هويته في مكان ما في حقيبته، لكنه لم يستطع تذكر مكانها بالتحديد، بدا على وشك الانهيار، من باب الشفقة عليه، أعطيته مفتاح الغرفة 107. في الثالثة بعد الظهر ذهبتُ لإيقاظه بغرض الحصول على البيانات.

يتوقف "أورهان"، يكافح لإشعال سيجارة أخرى، لكن القداحة ترفض الاستجابة لأصابعه المتوترة، نهض واقفًا، وأخذ يسير ذهابًا وجيئة في الغرفة، من الواضح أنه غير راغب أو غير قادر على الاستمرار في الحديث، يشرب "الراكي" ويدخن السجائر.

- طرقتُ الباب خمس مرات أو ستًا، لكنه لم يرد، أحسست بالقلق، شعرت أن شيئًا ما قد حدث له، أحضرت المفتاح الثاني سريعًا، لم يترك مفتاحه في مكانه خلف الباب، لسوء حظي. لأنه بهذه الطريقة تمكنت من فتح الباب. كان الحبل مربوطًا بحلقة في السقف، هذه الحلقات قوية جدًا، لقد صمدت قرنًا من الزمان، كانت تمسك بالمصابيح الكبيرة القديمة الثقيلة. كان يتدلى تحت المصباح بقليل... مشدودًا. اتصلت برجال الشرطة وانتظرتُ، لم أرغب في تركه. لقد بدا وحيدًا جدًا... معلقًا مثل طائر عجوز، بلا أدنى سبب. قل لي، أريدك أن تقول لي: لماذا ينتحر رجل عمره ألف عام؟ هكذا بدا عمره أو أكبر تحت ضوء المصباح المجاور لرأسه.

- وماذا حدث مع رجال الشرطة؟

- ما الذي يمكن أن يحدث؟ كالعادة. اصطحبوني إلى مركز الشرطة. تكالبوا علي كالمسعورين. كيف سمحت لزبون بالإقامة في الغرفة دون أن يعطيك بياناته؟ لقد جرى سؤالي أكثر من ألف مرة، وبالطبع، هددوني بتفاهاتهم المعروفة. بأي شيء أجيب؟ بأن هذا الأمر يحدث باستمرار؟ كما لو أن رجال الشرطة لا يعرفون ذلك!

- كيف يحدث هذا؟

- هل أنت معتوه تمامًا؟ تأتي مجموعة من الزومبي كل ليلة وتُظهر لي بطاقات مزيفة، صور وثائق بوجوه مختلفة تمامًا، جوازات سفر مصنوعة من الورق المقوى الرخيص، رخص قيادة مهترئة يُفترض أنها لهم، صادرة من بلدان بعيدة في الشرق وفي إفريقيا. ماذا علي أن أفعل؟ أكتبُ ما يعطونني من بيانات، أسجل ما يحلو لهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إذن ماذا كتبتَ عني؟

- لا شيء. لقد سجلت اسمًا عشوائيًا، وعندما غادرت، محوته تمامًا. إنها واحدة من أقدم الحيل. أنت رسميًا لم تُقِم في الفندق قط.

- ووضعتَ كل النقود في جيبك؟ "بزنس" رائع.

- آه، حان وقت العِظة! كيف برأيك يمكننا العيش في هذه الجحر الضيق؟ من أين تأكل هذه الأفواه الخمسة؟ من الثلاثين يورو التي يعطيني إياها المدير مقابل مناوباتي الليلية التي تستغرق ست عشرة ساعة؟ بعبارة أخرى، تلك التي نسجلها في المستندات الرسمية ثماني ساعات فقط؟ هل جئت لتهددني؟

- لا، لا، أنا أسأل فقط كي أفهم لو..

- ماذا تفهم يا صاح؟ إن كنا على قيد الحياة أو أصبحنا في عداد الموتى وراء ميناء "هامبورج" الجميل؟

أنهض كي أغادر. قبل أن أفتح الباب، أسمع صوته مجددًا:

- لديَّ معلومة أخيرة لك. إنها تستحق أكثر من غيرها.

يميل جسده نحو الأرض، لم يعد يستطيع التقاط أنفاسه، أبحث في جيبي بالفعل عن الأوراق النقدية المناسبة.

- تعتقد أنه يمكنك شراء كل شيء؟ أنت على حق. هكذا نبدو في عينيك. لكن احتفظ بأموالك اليوم، سأقدم لك المعلومة هديةً، فأنت أحمق خاص، أليس كذلك؟

أشاركه الرأي. يقدم لي سيجارة فأتناولها منه.

- اسمي "أورهان".

- "كريس".

- من أين؟

- نصف ألماني ونصف يوناني.

- يعني "خريستو". إذًا فأنت في صراع مع نفسك، أليس كذلك؟ عِرقان وعالمان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مختلفان.

دخان السجائر الذي يفصل بيننا ينتمي إلى عرقين وعالمين مختلفين.

- اسمع. لقد رأيت المرأة من قبل، لم أتفوه بكلمة واحدة للشرطة، هكذا.. كردة فعل ليس إلا. لقد حضرت "إيفا ديبليج" قبل بضعة أشهر. دخلت الفندق في أحضان رجل آخر. كان الرجل في الستين من عمره أو ربما أكبر من ذلك. طلبا مني غرفة، وأعطيتهما بشكل عشوائي الغرفة 107. تركت لي بطاقة هويتها كما هو المعتاد، ودفع الرجل نقدًا. كان كلاهما يرتجف.

- لماذا كانا يرتجفان؟

- من العشق.

- من ماذا؟

- كما سمعت. إنه لأمر نادر. كانا يتبادلان القبلات، وقد استسلم أحدهما للآخر. من الصعب على الإنسان تحمل رؤية شيء كهذا. كان عليهما الاختباء في غرفة بأسرع ما يمكن. لم ينزعجا من "الديكور" ولا من النظافة. لقد كانا بحاجة إلى جدران فقط.

- كم من الوقت بقيا هناك؟

- لا تتعجل، أمامنا الكثير كي نصل إلى هذه النقطة، في تلك الليلة نفسها، وبعد نحو ساعة، دخل الفندق شابٌ مغربي أو جزائري أو ربما يحمل جنسية إحدى تلك البلاد، لا يزيد عمره عن الخمسة وعشرين عامًا، يضع "جل" على شعره، سماعات في أذنيه، ويده ملتصقة بهاتف محمول، طلب الذهاب مباشرة إلى الغرفة 107. لم يرُق لي ذلك الشاب، لهذا كان عليّ الاتصال بهما وسؤالهما. نزل على الفور مرافق "دمبليج" إلى "الريسبشن"، أخذ الشاب المغربي، وألقى ورقة من فئة المئة يورو ناحيتي. هناك بعض الأشياء لن أفهمها ألبتة.

- "Oh mich pepli gering plig in eso".

- ماذا تقول؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل تتذكر إن كان الرجل العجوز قد تفوّه بشيء كهذا في اتصاله الهاتفي من "الريسبشن؟"

- اللعنة! ربما أكون قد سمعت شيئًا هكذا! لكن ماذا يعنى ذلك؟ وكيف تعرف أنت ذلك؟

- ترك رسالةً على بريدي الصوتي، لكنني لا أفهم ما تعنيه.

- هل يمكن أن أسمعها؟

نجلس على السرير، ندخن ونحتسي "الراكي"، بينما نستمع إلى الجملة نفسها مرارًا وتكرارًا من هاتفي المحمول: "Oh mich pepli gering plig in eso"

يبدو الصوت بعيدًا، هناك معنى ما ينزلق من بين الكلمات. لم ينتَبنا الشكُ ولو لحظة واحدة أنه لغز لا ينبغي لنا حله.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

5

يغطي الليل المباني بظلامه كأمٍ تُخفي أطفالها المشوهين، أتجول في شوارع "هامبورج" وأنا أدخن سيجارة "أورهان" الأخيرة، لم يكن إصراره هو الذي دفعني إلى قبولها بقدر منظر أسرته، كانوا يجلسون مجتمعين حول طاولة بلاستيكية بيضاء مستديرة، والأطفال يتطلعون إليّ كما لو كنت شخصًا مهمًا، كأحد أولئك الذين لديهم القدرة على تغيير مجرى الأمور، لكن زوجته كانت تدرك بالفعل أنهم مخطئون، متوقعة بكل تأكيد إخفاقي فيما هو آتٍ. غادرت مسرعًا، ممسكًا بالسيجارة بين أصابعي.

أعود إلى المنزل بعد العاشرة، يكشف تغيير الضمادة عن وجود قرحة دائرية، لم تعد تبدو كجلد محترق، بل وحمة. سيمر بعض الوقت قبل أن أعرف ما يعنيه ذلك.

من باب الحظ ليس إلا، لم يعرف رجال الشرطة أي شيء بخصوص زيارتي إلى فندق "نجمة الميناء"، فقد محا "أورهان" أي أثر لها. فلا وجود لي على الإطلاق في دفاتر الفندق. أما بالنسبة لـ"إيفا ديبليج" فهي حاضرة. الصورة الخيالية للعاشقين الشغوفين اللذين يقتحمان ذلك الفندق الفوضوي في أحضان بعضهم البعض لا تغادر ذهني أبدًا. ركضا ليختبئا في الغرفة 107 وبعد قليل ينضم شاب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا إلى رفقتهما الجامحة. أي دور سيلعبه؟ موظفو الاستقبال ليسوا معروفين بخيالهم الرومانسي، وهم محقون في ذلك. فالأشخاص الذين يصعدون إلى مثل تلك الغرف نادرًا ما يقومون بذلك بغرض إلقاء قصائد "لوركا". ومع هذا، فالصورة الخيالية التي تتشكل أمامي ما زالت تحتفظ بطهارتها. فلا شيء له رائحة مألوفة كرائحة إنسان متوهج.

بعد منتصف الليل بقليل أجد نفسي مستلقيًا على أريكة السيدة "كينو". على شاشة التلفزيون يُعرض فيلم «التعويض المزدوج »، بائع التأمينات الذي يرسم خطة للجريمة الكاملة يقع هو نفسه في الفخ المثالي؛ أي في شباك الحب، أنا شبه نائم عندما يرن هاتفي المحمول، تدخل القوانين غير المكتوبة حيز التنفيذ تلقائيًا. توقف السيدة كينو العرض التلفازي، بينما أرد على اتصال "جورج ويبر".

- في أي منطقة في اليونان كنت تعيش؟

- في منطقة "البيلوبونيز". هل تتصل بي الساعة الثانية صباحًا لتسألني عن شيء كهذا؟

- هل هي جزيرة؟

- ليس بالضبط. كيف تعرف ما تعنيه كلمة "جزيرة؟" هل تتحدث اليونانية؟

- تعلمتُ بعض الكلمات في المدرسة، كنت أحاول إقناع زميلة لي يونانية أن اهتمامي لا ينصبُّ فقط على النقانق. إذًا فلماذا يطلق عليها اسم جزيرة بما أنها ليست كذلك؟

- إنها قصة طويلة، لكن الوقت غير مناسب لحكيها.

- اليونان مليئة بالقصص العظيمة. في أي مدينة من "البيلوبونيز" نشأت؟

- في منطقة "إيغيو". متى سيتوقف هذا الاستجواب؟

- هذه الـ"إيغيو" لا يمكنني العثور عليها في أي مكان. ربما أكتبها بشكل خاطئ. هل سمعت عن قرية تسمى "بوكا؟"

- نعم، إنها قريبة من هناك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صمت. يشعل "ويبر" سيجارة وينفث الدخان، الصمت ذاته في كل مرة. أمر ما يقلقه، هناك شيء خاطئ. أنتظره حتى يختار اللحظة المناسبة كي يفصح عنه. لم يتأخر كثيرًا.

- اسمع يا "كريس"، رجال الشرطة الذين يعملون على القضية غاضبون منك. هناك الكثير من المعلومات التي تخفيها عنهم.

- مثل؟

- لا تلعب دور الغبي، على الأقل ليس مع هؤلاء. على كل حال، مما استطعت جمعه، كانت "إيفا ديبليج" تعمل قبل بضع سنوات في "هامبورج" سكرتيرةً في شركة محاماة. في عام 2012 انتقلت إلى "برلين"، ومنذ ذلك الحين تعمل في وظائف مؤقتة، أو تدعي أنها عاطلة عن العمل.

- لماذا سألتني عن المكان الذي نشأتْ فيه في اليونان؟ ما علاقة هذا بها؟

- منذ عام تقريبًا، تُقدم "إيفا ديبليج" نفسها كونها مقيمة في اليونان. تعيش في تلك القرية، اسمها "بوكا". لا يوجد عنوان، فقط "بوكا".

- "حيث لا تحمل الشوارع أسماء".. كما تقول الأغنية. في كثير من الأحيان، الشوارع في القرى اليونانية ليس لها أسماء.

- تبدو جميلة.

- إنها جميلة.

- تتفق " إيفا ديبليج " معنا بالتأكيد. لأنه هذا هو المكان الذي ستتوجه إليه الليلة. غادرت على الرحلة المسائية قبل ثلاث ساعات متوجهةً إلى اليونان.

في غابة الضياع يتجول رجل لا يمسك في يديه بخيط للعودة. ستغرب الشمس، وستغرد طيور مجهولة، وستجذبه المتاهة نحو مركزها. أريد أن أتحدث إلى هذا الرجل، لكنني لا أستطيع، لأنه من المحتمل أن أكون أنا نفسي.

أحزم حقيبتي، أعدّت السيدة "كينو" الشطائر والقهوة للطريق. نحن محاطون بالضباب الصباحي، الرحلة التي حجزتها قبل ساعة فقط عن طريق الإنترنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ستقلع في السابعة وأربعين دقيقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

6

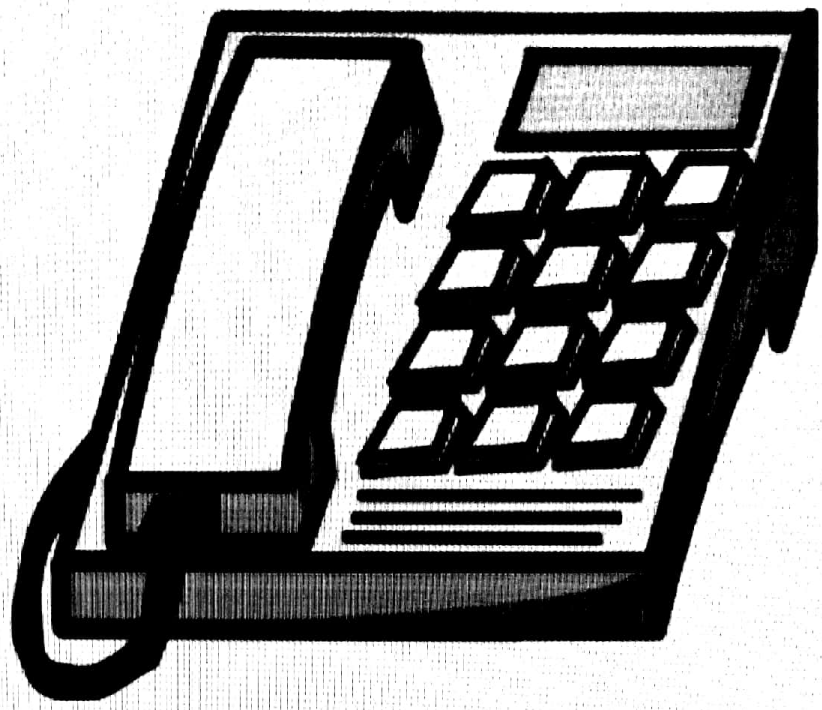

استغرقت الرحلة أكثر من ثلاث ساعات، لم يغمض لي جفن. نهبط على المدرج، مساحات شاسعة من الأرض تمتد نحو اليسار واليمين، مضاءة بالأضواء الجنوبية. بينما كنت أتبع علامات الخروج رن هاتفي الخلوي.

- معك المفتش " كورت يانسن " التقينا أمس في مكتبك، أتصل من مقر شرطة "هامبورج". يجب أن أخبرك أنه اعتبارًا من اليوم سنلغي ترخيصك المهني.

- لماذا؟

- بإمكانك الطعن على القرار، على أي حال، إلى حين صدور قرار مختلف، ليس لديك الحق في العمل محققًا خاصًا. ستتسلم اليوم رسالة تتضمن أسبابًا تفصيلية لـ..

لن أتسلم أي شيء. فأنا لست في ألمانيا.

- أين أنت سيد "باباس"؟

- أفضّل أن تشرح لي أولًا سبب سحب رخصتي المهنية.

- لقد أخفيت عنّا معلومات أساسية، انتهكت القانون، كما أنك لا تريد حتى ذكر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اسم موكلك المتوفّى.

- الرجل المتوفّى ليس موكلي.

- على هذا النحو سيكون التعامل بيننا؟ إذن لماذا ترك رسالة على جهاز الرد الآلي الخاص بك من فندق "نجمة الميناء" قبل أن ينتحر بقليل؟ "التكنولوجيا"، سيد "باباس" تفوز دائمًا.

- تفوز على من؟

- عليك أنت. لقد حصلنا على سجل هاتف الفندق. وإلى أين قادنا؟ إلى الهاتف المحمول وبريدك الصوتي.

- إذًا لم تتمكنوا بعد من التحقق من هوية المتوفّى؟

- لا، لكنك تعرف اسمه، وكذلك تعرف ما تعنيه الرسالة. سنتوصل نحن أيضًا إلى ذلك قريبًا.

- ليس لديّ أدنى فكرة عمن يكون هذا الرجل. أما بالنسبة للرسالة.. نعم، لقد سمعتُها، لكن لا معنى لها على الإطلاق.

- إن كنت لا تستطيع فهمها، فلماذا تركها لك؟ كيف يمكنني أن أصدقك؟ ومع ذلك، لديك فرصة أخيرة للتعاون معنا. حينها يمكنك إيقاف قرار إلغاء رخصتك المهنية الدائم. عليك فقط الموافقة على إلغاء خصوصية جميع مكالماتك. إذا كنت تقول الحقيقة، فليس لديك ما تخشاه.

- لا، أنا لا أقبل ذلك، خاصة أنكم تجسستم على بريدي الصوتي.

- الاتصال جرى من هاتف الفندق، وقد حصلنا على موافقتهم بالفعل، أنا متفهم سبب غضبك، لكن الأمور ستزداد سوءًا، فلن نقبل أن تتعامل معنا باستهزاء.

- أنا لا أستهزئ بكم.

- إذًا أخبرني على الأقل أين أنت.

- في الشمس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما إن ينجحوا في إلغاء خصوصية الهاتف سيستمعون إلى حواري مع موكلي ليلة فشلي في المراقبة. وبعدها، سوف أغوص أكثر في الهراء البيروقراطي، على أساس أنني لا أسبح فيه بالفعل.

أستقلُّ حافلة خارج المطار، ويخبرني السائق بالنزول في المحطة الأخيرة، تحت أشعة الشمس القاسية، تظهر كتلة رمادية موحدة من المباني السكنية البائسة، والكثير من هوائيات "التلفزيون"، إضافة إلى الازدحام المروري. تمتد الرحلة إلى ما لا نهاية. نتوقف تحت حصن خرساني ضخم، حيث سجلت أدخنة عوادم الحافلات أرقامًا قياسية عالمية مرارًا وتكرارًا. يؤكد لي رجل يدخن السيجار بشراهة أن هذه هي محطة الحافلات لمنطقة "البولونيز"، تمكنتُ من التقاط بعض الأنفاس والحصول على تذكرة سفر إلى "إيغيو".

ترد السيدة "كينو" سريعًا على الهاتف.

- ستأتي الشرطة مرة أخرى، يجب ألا تتسلمي أي أوراق بالنيابة عني، في حالة ما إذا سألوكِ، فأنتِ لا تعرفين أين أنا.

- ماذا تقول هذه الأوراق؟

- إنَّ "التكنولوجيا" ستنتصر لا محالة.

- على من؟

- الناس.

- كيف وجدت اليونان؟

- لا أعرف؟ هبطت قبل ساعة فقط. قذارة... وشمس في كل مكان.

- ألا يجتمع هذان معًا؟

ما إن وصلت الحافلة إلى "إيغيو"، يطلب مني رجل عجوز أن أدفع حقيبته بجوار حقيبتي داخل الحافلة. أعثر على المقعد رقم 32 ويتضح على الفور أنه لا يناسب حجمي نهائيًا. أبذل جهودًا مضنية للجلوس بكرامة، وأنا أتساءل إن كان يجب عليَّ أن أجتزئ من ساقي عشرين أو ثلاثين سنتيمترًا. وكما لو أن هذا لم يكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كافيًا، يقرر شخص أن يحشر نفسه في المقعد المجاور لي.

رسالة نصية من السيدة "كينو" على هاتفي الخلوي. وصل رجال الشرطة للتو إلى مكتبي، دقوا الجرس، في النهاية ألقوا ظرفًا من تحت الباب. من الواضح أنني الآن فقدت رخصة المحقق الخاص رسميًا.

يقوم المسافر الذي يجلس بجانبي - نحن متلاصقان بالفعل كأننا نجلس في أحضان بعضنا البعض - بحركة غير متوقعة، فيلتفت ناحيتي كما لو كان يريد طلب يدي للزواج، ولكن بدلًا من هذا يتحدث معي.

- هل ستذهب إلى "باترا"؟

- "إيغيو".

- أنت من هناك؟

- لا.. أقصد.. بعض الأقارب البعيدين الذين..

- ما اسمك؟

- "خريستو".

- "كوستا". وما لقبك؟

إذا واصلنا الحديث على هذا النحو، فسأكون مُجبرًا بعد مرور دقيقتين أو ثلاثٍ أن أشرح له كيف كان شعوري آخر مرة مارست فيها الجنس الفموي. آخذُ وقتًا حتى أجيبه، فتراجع قليلًا.

- أعتذرُ عن السؤال.

- أعيش في ألمانيا منذ سنوات عديدة و..

من الواضح أنني ارتكبت واحدة من الخطايا السبع المميتة بنطق الكلمة التي تؤدي إلى دوائر الجحيم؛ ألمانيا. انفجر في وجهي "تسونامي" جديد من الأسئلة؛ أين تعيش؟ متى أتيت؟ لماذا أتيت وحدك؟ أنت غير متزوج؟ لماذا؟ متى غادرت؟ وماذا كنت تفعل هناك طوال هذه السنوات؟ هل حاولت العودة؟ ألم تشعر بالحنين للمكان على الإطلاق؟ وماذا تعمل؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تجرف الموجة كل شيء في طريقها، أحاول أن أهرب بأنصاف إجابات أو بعض التلميحات وحتى بالصمت، لكن لا يوجد رد فعل قادر على إيقافه، سرعان ما يظهر السبب الحقيقي وراء كل هذا الاهتمام، يريد أن يؤجر لي منزلًا في "إيغيو". يتبع ذلك العديد من التوضيحات الحتمية. فالفنادق في المنطقة قليلة، وغرفها كئيبة ومنعزلة، ولا توجد بها مطابخ أو تدفئة، والأهم من ذلك، أن أسعارها لا يمكن أن تنافس عرضه الخاص.

- مئتان وخمسون يورو لمدة شهر.

لا أجيبه.

- مئتا يورو.

- لكنني لن أبقى شهرًا كاملًا.

- مئة وخمسون ولتبقَ أي مدة تريد، سنطهو لك أيضًا، نحن في الطابق السفلي، وقتما ترغب، ستتصل بنا، ليس هناك أي ضغوط.. لكنَّ مئة وخمسين يورو فرصة رائعة.. سيكون هناك أيضًا بعض القهوة أو كأس نبيذ طبعًا.. كما أقول لك، فقط مئة وخمسون.

أقدّر النقود التي معي. الحقيقة هي أنه لولا مقدم أتعابي من موكلي المتوفى ما كنت هنا الآن، أرخص محققي "هامبورج" في أرخص منزل في "إيغيو".

أميل بجسدي تجاهه.

- حسنًا، سآتي وأجرب.

ينظر إليّ مندهشًا، بينما ينهار جسده على مسند المقعد منهكًا من معركة فاز بها للتو. يلتقط أنفاسه، غير مصدق أنني قبلت اقتراحه.

تغادر الحافلة فجأة الطريق السريع، أضواء غريبة، تجاوزات مفاجئة، انعطافات سخيفة، إشارات خادعة، أجزاء أسفلت غير متساوية، كل شيء يتراقص أمامنا، يستمر الفصل الجديد من الرحلة، الذي ظهر من لعبة "فيديو" ذات حس فكاهي سخيف، لأكثر من ساعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الرابعة والنصف بعد الظهر، أحمل حقيبتي على ظهري وألحق بـ "كوستا" عبر شوارع "إيغيو" الضيقة. تبدو لي المدينة كما كانت، لكن مع بعض التغييرات الطفيفة. عند نهاية الطريق لم يكن من الممكن أن أتجاوز حيرتي. فقد وصلنا إلى "أغيوس أندرياس"، المنطقة التي عاش فيها والدي وكبر وتوفي هناك في نهاية المطاف. وكذلك والد أبي. ومن يدري كم عدد أقاربي الآخرين. نقف الآن في شارع "أغيوس أندرياس"، يُخرج "كوستا" مفاتيحه، ويفتح البوابة الخارجية لمبنى أبيض مكونٍ من طابقين.

- تفضل!

لا أبدي أي حركة.

- لماذا تقف هكذا؟

ما أزال متجمدًا في مكاني.

- لقد وصلنا إلى منزلي!

أنظر إلى الطريق المتعرج الذي ينتهي في مكان ما بعد المنعطف التالي. تستقبلنا من خلف الباب الوحيد للطابق الثاني رائحة طعام مطهو وطاولة وثلاثة كراسي، وأحدث طراز لـ "تلفاز" مربع الشكل ينتمي إلى العصر الحجري القديم، من آخر الشقة يصيح صوت أنثوي خائر ببعض الكلمات غير المفهومة.

يجيب "كوستا" في يأس:

- من فضلك، رجاء، ليس الآن.

تمر بضع ثوانٍ من الصمت، أرسم صورة خيالية لامرأة تحاول النهوض من سريرها في نهاية الممر، نجلس في المطبخ، بينما هي تقترب منا ببطء، يبتسم وجهها العجوز لي فقط، وجه الشبه بينهما واضح في ذلك الفك الذي يشبه المثلث. إنها والدة "كوستا".

- أردت فقط أن أرحب بك، أهلًا وسهلًا بك يا بني.

- مساء الخير سوف..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا تنهض! اجلس. فأنت مرهق من السفر، ويجب أن تأكل شيئًا أولًا. أشكرك على المعروف الذي أسديته لنا.

تختفي أسرع مما ظهرت، لماذا شكرتني؟ وما المعروف الذي أسديته لهم؟ يضع "كوستا" طبقي عدس، وطبق سلطة وخبزًا ونبيذًا أحمر، لحسن الحظ، سرعان ما استسلمنا للصمت، العدس أفضل من السلطة، والنبيذ أفضل من العدس، والخبز أفضل من النبيذ. لونه أسود، قاسٍ، ذو رائحة أصبحت في طي النسيان، تنتمي إلى عصر آخر. يخبرني "كوستا" كما لو أنه قرأ أفكاري:

- ما زالت أمي تصنع الخبز إلى الآن.

يعطيني مفاتيح المنزل أمام الباب الخارجي، يبدو التردد واضحًا عليه كما لو أن أمرًا ما يخنقه، يريد شيئًا مني، لكنه لا يستطيع أن يجد طريقة للتعبير عنه. أما أنا فلديَّ سؤال حاضر.

- "كوستا"، كيف أذهب إلى منطقة "بوكا؟"

- أنت تقصد إلى قرية "كامراس؟"

- إلى "بوكا" تحديدًا.

- بطريقة أو بأخرى "بوكا" هو شاطئ قرية "كاماراس". لكنه يبعد بضعة كيلومترات عن القرية، توجد حافلة كل ساعة، لا أظن أنها تصل حتى الشاطئ.

- هل هناك من يؤجر دراجات في المدينة؟

- وماذا تفعل بالدراجة؟

- سأتجول بها في أنحاء فرنسا.

- ماذا؟

- حسنًا، أريدها كي أذهب بها إلى "بوكا".

- هل فقدتَ عقلك؟ إنها على بعد عشرة كيلومترات على الأقل ونحن في فصل الشتاء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يبدو الطقس جيدًا بالنسبة لي. هل هناك من يؤجر دراجات؟

- لا، لكن لديّ دراجة ابن أختي في قبو المنزل. بإمكاني أن أعطيك إياها إذا أردت، اسمع.. بالمناسبة أريد أن أطلب منك.. معروفًا. هل يمكن أن تدفع لي إيجار السكن الآن؟

طوال هذه المدة وهو بحاجة إلى المال، ويتردد في طلبه. أعطيته مئة وخمسين يورو، وشكرني ثلاث مرات، سأجد الدراجة في بداية الدرج، لكن لا يجب أن أتركها بمفردها، لأنها ستُسرق.

يحلُّ الليل في شارع "أغيوس أندرياس"، أحيانًا تستيقظ الذكريات كما لو كانت إنسانًا ينتمي إلى الماضي، يسير باتجاه الحاضر ويجلس عند قدميه، يتبادلان نظرات شكٍّ، لكنهما نادرًا ما يتفوهان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

7

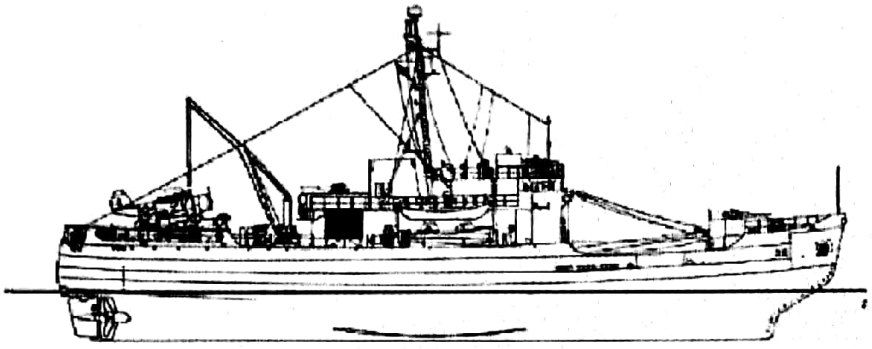

لا تذكرني الظلال بأي شيء، ولا ملامح الأشياء، ولا السكون الجامد للمكان، هكذا أفضل. إطالة زمن كل حلم أفضل من ذكرى الجدران، في عتمة الفجر، يبدو أن الغرفة المجهولة قد خرجت من إحدى زاويا الزمن.

أعثر في المطبخ على علبة قهوة يونانية، لكن لا وجود للسكر أو الحليب، أمام باب الشرفة الوحيدة ترتفع بناية سكنية تجتاح العالم، اثنتان وعشرون درجة إلى أعلى، خلف باب السطح، بحيرة خرسانية تغطي المبنى. لم تشرق الشمس بعد، كثير من أسطح المنازل، وقليل من قمم الأشجار، وسماء بلا غيوم أو نجوم؛ عارية كالملك، أحتسي قهوتي هناك.

ترك "كوستا" الدراجة في الطابق الأرضي بجوار الباب الخارجي. كدليل على الدعاية السوداء أو الفشل الإعلاني مكتوب على إطارها الصدئ؛ "دراجة جبلية سحرية Magic Mountain Bike))". تحت نحيب السلسلة الرتيب أقود الدراجة عبر شارع "أغيوس أندرياس". في نهاية المنطقة السكنية، يبطئ المشهد من حركتي، فباتجاه الغرب يمتد خليج "كورينث" إلى حافة الأفق، قناة بحرية على مد البصر. لأول مرة، يوجد شيء له معنى. أو بالأحرى شيء لا داعي لأن يكون له معنى.

في نصف الساعة التالية، تمر ثلاث سيارات بمحاذاة دراجتي، لكن في اللحظة الأخيرة يقرر سائقوها الإبقاء على حياتي، في كل مرة أجد صعوبة أكبر في تصديق أن شخصًا ليس أعمى تمامًا أو مغفلًا كليًا يجلس خلف عجلة القيادة. يبدو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرأي الثاني ذو قيمة أكبر.

بطريقة غريبة، تصل رحلتي إلى "كاماراس" دون دماء. تستقبلني قوالب بلاستيكية، خطوط بيضاء، وحديد تسليح، وبقايا خرسانية، وعمال مُنحَنُونَ ومشرفون جادون بسجائر مشتعلة، إنهم يبنون الطريق السريع الجديد، بدءًا من نهاية الطريق القديم، ينظمون المرور، ويُعيدون بناء ما يهدمون. من بين كل التفاصيل التي أخبروني بها تُرى ما الصحيح؟ يتدلى جسر فوق رؤوسنا مفكك، تحت الإنشاء، ذو اتجاهين، متهالك، في طور التكوين مرة أخرى، سريالي للغاية.

تبعد "بوكا" كيلومترين الآن. رجل ذو شارب يداعب خصلات شعره الطويل يرشدني إلى الاتجاه الصحيح. بعد خمس دقائق من قيادة الدراجة على طريق منحدر، ينتهي بي المطاف عند مفترق طرق. أستدير يسارًا، وسرعان ما يبرز جزء من الشاطئ. تشير بعض أسطح المنازل البعيدة أن "بوكا" ربما تكون في الاتجاه المعاكس. أصل بسرعة إلى نقطة الصفر، حيث لا يوجد عبور من هناك. يجب أن أخلع حذائي كي أنزل إلى البحر، الماء لا يتخطى كاحلي، ومع ذلك فإنه يوقظ خلايا جسدي حتى آخرها، أجلس على الحجارة، حيث يظهر الشاطئ، ويأخذ في الاتساع مجددًا. على بعد أمتار قليلة، يوجد رجل عجوز ينظف قضبان سياجه الخشبي عن طريق فركها بالرمال.

- هل ضللتُ الطرق؟ في وجود هذا المد البحري، من الصعب أن تعبر من هنا. ألم تأتِ إلى هذه القرية من قبل؟

- ما اسمها؟

- "بوكا".

- أبحث عن أحد معارفي، سيدة ألمانية. اسمها "إيفا ديبليج". نما إلى علمي أنها تمتلك منزلًا هنا.

- لا.

- في عمر الأربعين... شعرها أشقر. من الوارد طبعًا ألا تعرفها.

- أنا أعرفهم جميعًا. ربما تسكن في منزل شخص آخر، لكنها لا تمتلك منزلًا هنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعيش هنا زوجان من أصل يوناني- سويسري، وامرأتان فرنسيتان. هؤلاء هم جميع الأجانب. ونحو عشرة ألبان. هل أقدم لك "تسيبورو؟"

- لا.. لا، شكرًا.

- انتظر، من العيب أن تأتي إلى المكان للمرة الأولى وتغادر دون أن تشرب شيئًا، سأحضره ونحتسيه سريعًا.

في غضون دقيقتين، كنا نقف ممسكين بكأسين في أيدينا، ويفصل بيننا الدرابزين الخشبي لفناء منزله، عليه أن يفركه بعناية بالرمال كل ثلاث سنوات قبل أن يطليه؛ فالبحر يأكل كل شيء، كل شيء، يؤكد هذا الأمر لي كأنه أهم سرٌ يمكنك تعلمه في هذه الحياة، وربما يكون كذلك بالفعل.

يمتد الشاطئ باتجاه الشمال، مشكلًا أنفًا ينغمس في الماء على استحياء، بدأت أشعر بالإرهاق بفعل أزيز الدراجة ومتعة الـ"تسيبورو". كيف اشترت "إيفا ديبليج" منزلًا هنا ولا يعرف الجد بأمره؟ بدا لي لحظة أنني لم آتِ لأعثر عليها، هل جئتُ كي أبلل قدمي؟ أم أنني وصلتُ إلى هنا لأتساءل عن سبب قدومي؟

الشخص الثاني الذي أقابله كان يصطاد، ما إن أقتربُ منه حتى أدرك أن صوتًا مفاجئًا مروعًا يصدر من هاتفه المحمول.

- نعم؟ أين؟ ماذا؟ متى؟ نعم.. نعم.. الآن.. أنا قادم. ينهي الصياد حديثه، ومن ثمَ، يتطلع إليَ في حيرة. من الواضح أن عقله مشغول بشيء آخر، ولم يعد يعرف ماذا يفعل الآن بشأني.

- لو كان بمقدورك، اِجمع خيط الصيد واترُكه هناك. يتحتم عليَ أن أذهب. حدث شيء خطير.

- ماذا حدث؟

- هناك شخص يواجه خطرًا في البحر.

- هل باستطاعتي المجيء أنا أيضًا؟

يومئ برأسه. أترك الدراجة بجوار خيط الصيد، ونبدأ بالركض.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تداهم الفروع والأوراق الأسفلت، وتغطي معظم الطريق المتعرج. يقود "ديميتري" بسرعة ممسكًا عجلة القيادة بيد واحدة، وباليد الأخرى، يستخدم الهاتف المحمول باستمرار، من الواضح أن لا أحد يجيبه، بعد عشر دقائق، نترك السيارة ونتجه نحو طريق ترابي شديد الانحدار ينتهي عند إحدى الصخور. لا شيء في الأسفل سوى الماء. فالجبل الذي يرتفع خلفنا منذ بضعة ملايين من السنين قرر الغوص مباشرة في البحر.

يقترب منا قارب خشبي أبيض طوله نحو خمسة أمتار، ويبطئ من سرعته. دون سابق إنذار، يوازن "ديميتري" نفسه على حافة الصخرة، ويقفز داخل القارب. يسألني قائد القارب الذي يرتدي سترة واقية صفراء كاملة عما سأفعل، يغطي صوته على هدير محرك "الديزل". أصِلُ ببطء إلى حافة القارب. تحول لون المياه إلى اللون الرمادي، مما يعكس حزنًا لا يمكن وصفه. أهبط على أرضية مقدمة القارب، أوشك على السقوط جراء قوة اندفاعي، لكن يده الصفراء تمسك بي. لا تستغرق رحلتنا سوى بضع دقائق، يلوح إلينا رجل يقف على رصيف خشبي. يناديه قائد القارب.

- إنسان؟

- نعم، على بعد مئة متر.. من هذا الاتجاه، ناحية الجنوب. يوجد تيار شديد.

- اتصل بخفر السواحل.

- لقد اتصلت بهم بالفعل.

في البداية كنت أعتقد أننا نتبع مسارًا عشوائيًا. فالمسافات والاتجاهات في البحر تخدع بسهولة. بمرور بعض الوقت أدرك أننا نطوق منطقة معينة. نقف نحن الثلاثة صامتين في أماكن مختلفة من القارب، ونمسّط سطح المياه الفارغة.

يظهر زورق خفر السواحل بعد نصف ساعة. يقتربون منا لتبادل ثلاث عبارات أو أربع مع قائد القارب. من الواضح أنهم يعرفونه ويعرفهم. تشير حركة يده الدائرية نحو المنطقة التي نحاول جاهدين تمشيطها، يتحركون بعيدًا، ويبدؤون عمل دائرة متداخلة مع دائرتنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فجأة يتوقف زورق خفر السواحل عن دورانه الثابت، ويتوجه بسرعة نحو نقطة معينة بعيدة عنا تمامًا. لقد رصدوا شيئًا ما، ما إن اقتربنا منهم، حتى طلبوا منا التوقف. لقد مدوا بالفعل شبكة في محاولة لانتشال شيء ما من الماء. يمر الوقت بطيئًا بشكل مزعج، بينما نحن نؤدي دور المراقبين ليس إلا، تتحرك السجائر بخمول في أيدينا صعودًا وهبوطًا، كمكابس تالفة لمحرك نفدت طاقته وتضاءلت جودته. لقد علقت جثة بالشبكة، بعد عمليات حسابية وتحويلات متتالية، يبدؤون برفع الشبكة في الهواء. لقد جذبتنا التيارات بالقرب منهم. يرفعون الشبكة بعناية، وفي نهاية الأمر يمسك رجلان بالجسد الميت من الذراعين والساقين. يرتدي الميت بدلة غوص زرقاء، وبينما هم يحاولون وضعه على سطح السفينة، يلتفت وجهه عن طريق الخطأ نحو قاربنا. لقد انتشل خفر السواحل للتو جثة "إيفا ديبليج" الغارقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

8

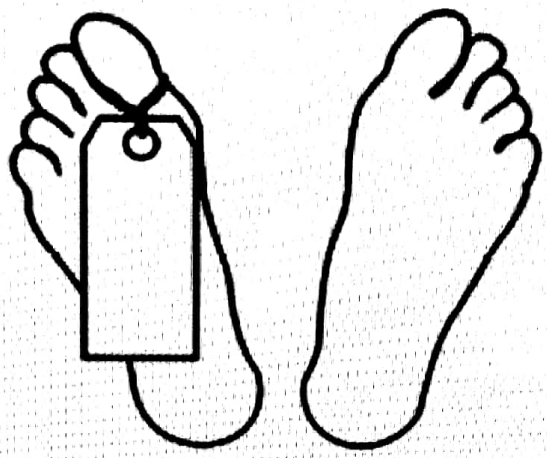

يبتعد زورق خفر السواحل وهو يشق البحر خلفه. في الثواني القليلة اللاحقة يختفي كل أثر له، ولم يعد يُسمع سوى دفقات الأمواج الخافتة، أصبحت "إيفا ديبليج" بعيدة الآن بالفعل، دون أن أتحدث إليها قط. نحن أيضًا نختفي مثل دوامات المياه، مع بعض الكلمات التي يتردد صداها عميقًا، كلمات لم يسعنا الوقت لنتبادلها.

أهبط مع "ديميتري" على الصخرة ذاتها، ويواصل قائد القارب رحلته البطيئة، فقط كي يختفي بدوره، لم يحن وقت الظهيرة بعد، ومع هذا، فجدولنا الزمني لبقية اليوم يتضح جليًا أمامنا. لقد استدعانا ضباط خفر السواحل للإدلاء بأقوالنا، احتمال الهروب غير مطروح، ففي حالة قررت عدم الذهاب، لن يستمر حظي فترةً طويلة. سيبدأ رجال الشرطة اليونانيون في البحث عني، وهذا هو آخر شيء أحتاج إليه.

بعد مسافة قصيرة؛ نحو كيلومترين باتجاه "باترا"، يوجه "ديميتري" عجلة قيادة السيارة فجأة ناحية اليمين، الطريق الذي نسير عليه شبه مدمَّر، تسببت جذور أشجار الصنوبر برفع الأسفلت وتحطيمه. تبرز أصابعهم البنية على ظهر الطريق، متشابكة مثل قبضات أيادي متمردة ضد التجانس البشري.

يتحدث "ديميتري" متعبًا، بطريقة تحمل على النعاس: "لم يُستخدم هذا الجزء من الطريق فعليًا منذ أربعة عقود"، ومن ثم، إلى أين يؤدي؟ لا مكان على الإطلاق،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان يشكل فيما مضى جزءًا من الطريق السريع، تغيرت التخطيطات، وجرى عمل تحويلات، وأنشئ طريق جديد، وهوى القسم القديم في إهمال أبدي. كلما تابعنا التقدم، يخضع الأسفلت أكثر فأكثر إلى ملكية من النباتات الخضراء. يوقف "ديميتري" محرك السيارة ويقدم لي سيجارة.

- سننتظر "ستيليوس" هنا، بيته يوجد داخل غابة الصنوبر.

- والقارب؟

- أرساه في أحد الجداول أسفل الغابة. من الممكن أن يتأخر قليلًا؛ فلديه طفل أيضًا.

بعد عدة ساعات والكثير من السجائر يظهر "ستيليوس"، لقد استبدال بالسترة الواقية بنطلون جينز وسترة عسكرية باهتة. في الطريق إلى "إيغيو" أستوضح ما إذا كانا يعرفان المرأة الغريقة. لا، ليس لديهما فكرة عمن تكون. ربما شيء ما في لهجتي يدفع "ستيليوس" إلى أن يسألني من أين أتيت. بمجرد سماعهما لكلمة "ألمانيا"، يلتفت كلاهما نحوي. لحسن الحظ، لا أحد يواصل الحديث. يسود الصمت داخل السيارة، لكن سرعان ما يكسره ضابط من خفر السواحل يرتدي قميصًا أبيضًا متسخًا بأسنانه السوداء الأكثر اتساخًا.

أدخلوني أولًا إلى مكتب رئيس خفر السواحل. يئنُّ الكرسي تحت وزنه الثقيل، بينما يحاكي بأسئلته ببغاء معاقًا ذهنيًا.

الاسم واللقب؟ العمر؟ محل الإقامة؟ الجنسية؟ كلاهما؟ يعني لديك جنسيتان؟ كيف يمكن هذا؟ هل هذا قانوني؟ وما الذي جاء بك إلى هنا؟ لأجل ماذا؟ السياحة؟ في منتصف الشتاء؟ متأكد أنك لا تمزح؟ في "أغيو؟" كيف تعرفت إلى الاثنين الآخرين اللذين كانا على القارب؟ ماذا؟ اليوم أول مرة تلتقيهما؟ كيف يعقل ذلك؟ ماذا تقول لي الآن؟ هل ركبت دراجة هوائية؟ لماذا؟ ومن أعطاك الدراجة؟ ما صلتك به؟ لا توجد؟ إذن لماذا تقيم في منزله؟ علاقة ودية؟ منذ متى وأنتما صديقان؟ وتريدني أن أصدقك؟ ما الذي تفعله بالضبط في ألمانيا؟

أتأخر في الإجابة عن هذا السؤال. كدت أتلفظ تلقائيًا بـ"محقق خاص"، لكني أتجنب ذلك في اللحظة الأخيرة. سيلفت انتباهه، وسيؤدي ذلك إلى جولة أخرى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من الأسئلة الغبية. كما أن هناك سببًا آخر يمنعني. لم أعد محققًا خاصًا، فقد أُلغيت رخصتي، إذًا من أكون في النهاية؟

- "بارمان"؟

- نعم، أعمل في أحد "البارات" في "هامبورج".

- حسنًا. إذًا سأسجل أنك موظف خاص. هل تعرف السيدة المتوفاة؟

- لا.

- وكيف تكون متيقنًا هكذا رغم أنك لم ترها عن قرب؟ في ألمانيا، تعتقدون أنكم تعرفون كل شيء.

يعتدل في جلسته سعيدًا، بينما يئنُّ الكرسي تحته تعسًا. رئيس خفر السواحل يشعر كأنه ابن عم "سقراط" الآن.

- كنا على بعد خمسة أمتار أو ستة فقط من القارب الآخر عندما انشلت الجثة. كان وجهها غير مألوف بالنسبة لي. علاوة على ذلك، أعرف قلة قليلة من الناس في المنطقة. لم أرَ السيدة من قبل.

- حقًا.. لماذا اخترت "إيغيو؟" فنحن لا ندخل ضمن الأماكن السياحية، خاصة في الشتاء.

- سأذهب في جولة في أنحاء "البيلوبونيز".

في لحظة ما أتمكن من التملص من مكتبه، بعدها يأتي دور "ديميتري" للإجابة عن آلاف الأسئلة. في قاعة هيئة الميناء، يتكدس ستة أشخاص، جالسين على مكاتبهم، ينظرون إلينا كأننا في آخر مراحل الطاعون. أخرج أنا و"ستيليوس" معًا ونقف أعلى سلم حلزوني في انتظار دوره للإدلاء بشهادته. يسألني "ستيليوس" عن مكان عملي.

أتمتم قائلًا:

- "بارمان".

تظهر على وجهه تكشيرة غير واضحة، لكن لحيته الكثيفة سرعان ما تخفيها،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الأقل أنا لست عاطلًا عن العمل بعد الآن.

تقع المدينة خلف الميناء مباشرة، وهي عبارة عن مدرج، حيث يأخذ الغرور البشري في التسلق إلى أعلى وأعلى. أتذكر أمسيات دور السينما في ألمانيا بصحبة أفلام "ثيودوروس أنجيلوبولوس". داخل أفلامه ذات طابع الوحدة والغربة يتناثر العديد من المشاهد التي جرى تصويرها في "إيغيو". في كل مرة تكون لديَّ الأسئلة نفسها. لماذا كان يختفي جمال هذا المكان من ذكريات طفولتي الباهتة؟ كيف استطاع هو أن يصور بوضوح شيئًا لم أرَه نهائيًا؟

هنا إذًا، خارج مبنى خفر السواحل البائس، يعود "أنجيلوبولوس" من موته مرةً واحدة أخيرة. يخترق بنظراته قشرة المبنى الصلبة، فينهزم البؤس أمامه. حتى ولو للحظة واحدة، لكنها ستظل خالدة إلى الأبد.

انتهت الإجراءات، ومن ثمَّ، نعود إلى السيارة المتوقفة.

- هل بإمكانكما أن تتركاني عند قرية "بوكا؟" يجب أن أستعيد الدراجة.

- لن نذهب إلى "بوكا". لدينا موعد.

- مع من؟

- مع الغريقة في المشرحة. طلب ذلك ضباط الميناء. يجب أن ندلي بشهادتنا حول ما إذا كنا نعرفها أم لا.

تنتظرنا "إيفا ديبليج" بفارغ الصبر في إحدى الغرف الواقعة في "بدروم" المستشفى. لمدة أربعين دقيقة نضطر إلى الانتظار في الخارج. أخيرًا يظهر ابن عم "سقراط" ويدخل أولًا. بدأت قلة الصبر تتسرب إليَ كما لو كانت تتساقط عليَ من السقف. يرفع موظف المستشفى الملاءة.

أزرق. أزرق فقط. لا يوجد لون آخر. لقد غمرت مياه البحر "إيفا". فشفتاها وجفونها ورقبتها ويداها وكاحلاها وقدماها كلها مطلية بالمادة الزرقاء نفسها التي لا يمكن إزالتها، أحاول عبثًا العثور على سحجات أو نتوءات أو أي علامة تدل على وجود مقاومة. لا تظهر عليها أدنى علامة تشير إلى العنف، الأمر ذاته تشهد به البهجة الغامضة في تعبير وجهها.

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨
المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحصل رئيس خفر السواحل على إجابات متتالية بالرفض. لا يتعرف أيٌ منا على المرأة الميتة، أكذب للمرة الثانية في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة. في البداية على الشرطة الألمانية، ثم على خفر السواحل اليوناني. من أين تظهر تلك الكذبة البيضاء؟ ففي كلتا المرتين كان الكذب جزءًا من الحقيقة؛ لأنني – في الواقع - لا أعرف اسم موكلي الميت، ولا أعرف حتى من هي "إيفا ديبليج".

لم يعد لديَّ أي رغبة في العودة إلى "بوكا" بعد الآن، يعرض عليَّ "ديميتري" و"ستيليوس" اصطحابي معهما بالسيارة، لكنني أرفض، يقولان إن المدينة بعيدة بعض الشيء عن المستشفى. هذا أفضل. أحييهما، ومع آخر ضوء من اليوم أسلك الطريق المنحدر.

تظهر فجأة حدود المقبرة البيضاء، لقد دفنوا والدي هناك. بعيدًا عن بوابة الدخول، يفصل خليج "كورينث" إقليم وسط اليونان عن إقليم "البيلوبونيز" مثل شخصين وقعا في الحب بجنون، ولكن في النهاية، دُفعا قسرًا إلى وداع أخير، أتخيل الموتى ينهضون من القبور في الليل، وهم ينفضون التراب عنهم، ويقفزون بخفة فوق أرض المقبرة، ما زالوا عاجزين تمامًا عن الكلام وفي حالة نشوة، مثل جميع أولئك الذين يسافرون إلى الجانب الآخر للاحتفال بالضياع.

تنتهي جولتي بين الرخام أمام مقبرة العائلة. سلسلة من الأسماء المتتالية، الأجداد والأشقاء والأزواج والأولاد والأعمام وابن العم وأبي، حتى أن بعضهم، في أثناء حياتهم، تجنبوا الكلام مع بعضهم البعض. وقتها كانوا يتبادلون النظرات الغاضبة، وإحساس قوي بالغرور، ويحملون داخلهم مرارة عديمة القيمة. جميعهم محشورون هناك في الداخل، قصصهم لم تعد موجودة الآن. يستلقون فوق بعضهم البعض، في انتظار قدوم المشاغب التالي.

في السابعة مساءً، أدخل شقة "أغيوس أندرياس"، لكن ليس لديَّ وقت حتى لشرب الماء. صوت طرقات على الباب. يلحق بي "كوستا" إلى المطبخ. إنه يخمن كيف كان يومي سيئًا، وأعتقد الشيء نفسه بالنسبة له.

- أين الدراجة؟

- سأحضرها غدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل تركتها بالخارج؟ سيسرقونها.

- لو سرقوها فسأدفع لك ثمنها.

- بمناسبة ذكرك النقود.. هل معك أي فكة؟

- ألم أعطِك بالأمس إيجار البيت؟

- عشرة يورو فقط يا صاح.. من أجل متجر البقالة.

- والمئة والخمسون؟

- لقد راهنت وخسرت.. اللعنة على حظي. إذا كنت لا تريد، فلا تعطِ شيئًا.

أترك عشرين يورو على الطاولة، وتختفي بطريقة سحرية. يتعلق نظري ثانية بالمبنى السكني المقابل. كثيرًا ما أحلم أن تتردى كل سقطات الكوكب. بعدها ماذا سيبقى؟ الأعشاش على الأشجار، همسات العشاق على الشواطئ، انعكاس القمر، التربة المبللة.

- هل أكلت أي شيء يا "خريستو؟"

- كما قلت. لا شيء.

- وأنا كذلك. انتظر سأسخن بعضًا من عدس الأمس.

بدأ "كوستا" في إعداد وجبتي الثانية في اليونان، أنا لا أعيش في يوم تتكرر أحداثه كيوم "فأر الأرض"، لكني أحيا في مساء يتكرر عدسه. لك أن تتخيل أنني لم أتناوله قط في ألمانيا، إذ كنت أظن أنه لا يعجبني.

في صباح اليوم التالي، أصل إلى "بوكا" في الساعة الحادية عشرة والربع. تخلل ذلك الرحلةَ بالحافلة التي استغرقت نصف ساعة، بالإضافة إلى نصف ساعة أخرى سيرًا على الأقدام. تهب الرياح بشدة، والأمواج تتكسر أعلى المكان الذي تركت فيه الدراجة أمس، كل محاولة للعثور عليها غير مجدية، يزداد الإحباط؛ لأنني سأضطر إلى العودة إلى "كاماراس" بالطريقة ذاتها، أي سيرًا على الأقدام، وبعد أن أكمل مسيرة الكيلومترين، ستكون حافلة العودة إلى "إيغيو" في انتظاري، مليئة برائحة مزيل العرق السام وغاز العوادم الطازج. أترك خلفي منازل "بوكا" المهجورة، التي

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبدو أنها مساكن صيفية.

- هل تبحث عن الدراجة؟ لقد أخذتُها. إذا تركتها بالخارج مرة أخرى، فيجب عليك أن تنسى أمرها! فيما مضى، لم يكن أحدٌ يسرق هنا. لقد تغير الزمن. الآن يقفزون إلى الداخل للحصول على خرطوم الري.

يتوقف الجد عن حك القضبان، ويُخرج من منزله "الدراجة الجبلية السحرية (Magic Mountain Bik) (".

- هل عثرت على فتاتك الألمانية أخيرًا؟

- لا.

- حسنًا، أقول لك ثانية، ليس لديها منزل هنا. لكن بعدها جلستُ وفكرت في الأمر. ربما عاشت في منزل السويسري. فهناك يتحدثون الألمانية أيضًا.

- ما اسمه؟

- سوف أضحك عليك، يسميه الجميع هنا السويسري، في الصيف الماضي، رأيته لأول مرة مع زائرين، زوجين على ما أعتقد. يعيش وحيدًا طوال حياته. يوجد منزله في ذلك الزقاق، على اليسار، في مواجهة البحر، ستجده بسهولة. يوجد هناك شجرة كافور كبيرة في المنتصف.

- هل السويسري هنا الآن؟

- لا أظن هذا، سيظهر في الربيع. إذا كان لديه الوقت، بالطبع.

أشكره. أركب الدراجة وأنطلق ناحية الزقاق. وفجأة أضغط على المكابح. ماذا تعني تلك الجملة الأخيرة غير المكتملة؟ بدأ الجد بالفعل في حك القضبان مرة أخرى.

- ماذا الذي نسيت هذه المرة أيضًا؟

- قلت لي: "إذا كان لديه الوقت بالطبع". ما الذي تقصده بقولك هذا؟

- أنه لا أحد بمقدوره أن يعيش إلى الأبد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا تقصد؟

- يعتقد السويسري أنه قادر على هذا. كيف يمكنه أن يفلت من "خارون"؟ رغم أن عمره يظهر كأنه ألف عام. لكن من المؤكد أنه سيموت هو أيضًا في يوم ما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

9

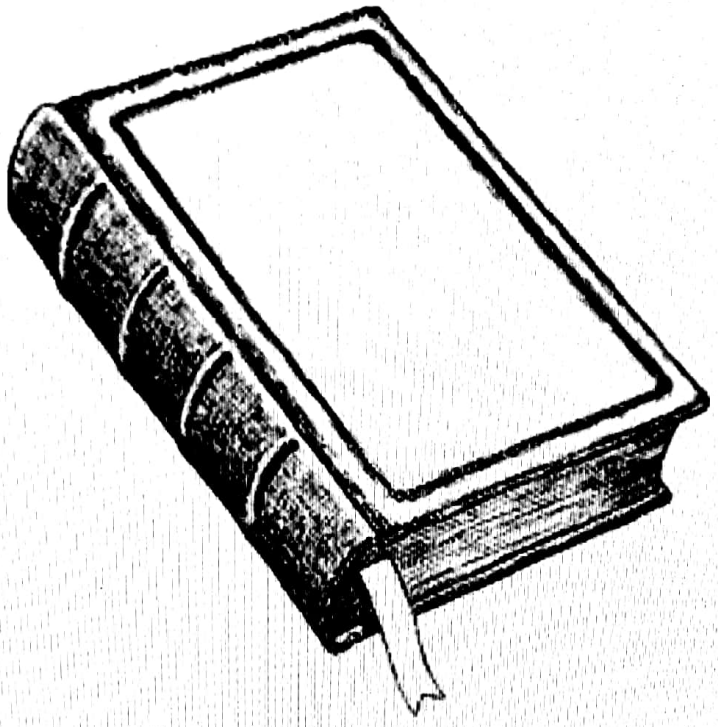

وفق أروع الروايات الأسطورية، فقد ورثت مدينة "إيغيو" اسمها مباشرة من العنزة (*Aix*) التي أرضعت وربَّت والد الآلهة والبشر؛ "زيوس" العظيم. بالطبع، يتم أيضًا تداول تفسيرات أكثر فقرًا وأكثر واقعية بشكل واضح ترتبط بالطبيعة الزلزالية للمنطقة، معتمدة على الأصل الاشتقاقي لكلمة "إيغيو" من الفعل اليوناني القديم ("άissō"«αΐσσω») والذي يعني يهتز، أو يحرك. ومع ذلك، فإن التسمية لا تعطي اهتمامًا للتحليلات المنطقية و- كأي عاشقة محبة - تظل المدينة راسخةً في المكان نفسه منذ عصور ما قبل التاريخ حتى يومنا هذا.

يبدو أن الحاكم الأول للمنطقة؛ "إيغالفس" ابن "إيناخوس"، ملك "أرجيفس" لم يكن ملكًا وحسب، بل كان رئيس كهنة وساحرًا في الوقت ذاته. يُذكر أنه قد تولى الحكم عام 2100 قبل الميلاد. بدافع تخليد ذكراه الطيبة، أطلق اسم "إيغيالوس" على عاصمته التي شيدها. في نحو القرن السادس عشر قبل الميلاد، يهاجر "الأيونيون" من "أتيكا" إلى منطقة "أيغياليوس" الواسعة، ويتحدون مع السكان الأصليين ويسنون قانون "ذوذيكابوليس" "*اتحاد الاثنتي عشرة مدينة*" الشهير. وطبقًا للأسطورة، فقد تم هذا الاتحاد في سلام، وهو أمر نادر في حقبتهم البعيدة، ولا يمكن تخيله يحدث في عصرنا الحالي تقريبًا.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما زوّج الملك "سيلينوس" ابنته "هيلايك" بـ"إيوناس"، حاكم أثينا تم بناء مدينة "هيلايك" الشهيرة. وعلى الفور أُعلنت عاصمة للبلاد، ولمعت في المنطقة كأنها حليٌ قادم من عالم آخر. يُحكى همسًا أن بعض الآلهة أصبحت تغار من جمالها الصارخ.

لكن كالعادة، ضاع كل شيء في ليلة واحدة. يقولون إنه ما زال بإمكانك سماع الصدى المخيف لذلك الظلام إذا كنت تجرؤ على الاقتراب بأذنيك من الأرض. ففي أثناء الزلزال المدمر عام 373 قبل الميلاد، زمجر البحر وخرج من مسكنه وابتلع قطعة الأرض الأكثر جمالًا.

يصف "بوسانياس" نفسه أن "هيلايك" كانت مليئة بالمعابد. فمن بين أهم معابدها؛ معبد "هيلايكونيو بوسيدون" ومعبد "أوماغيريو زيوس"، الذي احتضن داخل دائرته الخاصة المقدسة الاجتماع الحاسم لاتخاذ القرار بشأن الحملة ضد "طروادة". كدليل على الماضي المجيد أو سخرية منه، يوجد حتى اليوم شارع في "إيغيو" يُدعى " أوماغيريو زيوس".

لم أطلب سماع كل هذا التاريخ القديم، ولكن من المعروف أننا لا نحصل دائمًا على ما نريد بالضبط. أنا في مكتب محاماة السيد "نيكولاوس بابابوستولوس"، الذي يقع في الطابق الثالث في بناية ذات إطلالة بانورامية على الميناء و"إيغيو".

يتحدث المحامي ببطء ودون انقطاع، مشيرًا إلى أجزاء معينة من المدينة عبر الزجاج الواسع. جئت إلى هنا بكل تأكيد من أجل غرض وحيد؛ هو معرفة اسم السويسري مالك المنزل في "بوكا". ومع ذلك، فقد أدركت من البداية أن شيئًا كهذا لن يكون سهلًا حتى بدا الأمر كذلك. في اليونان، يجب أن تعرف اسم المالك أولًا حتى تتمكن من تحديد مكان ممتلكاته بعد ذلك. هذا الرجل العجوز ذو البدلة الرمادية المجعدة، بشاربه المماثل للون البدلة يحاول أن يشرح لي مرة ثانية سبب اعتماد هذه الهراء تحديدًا. من الواضح أن حكايات الماضي الأسطورية أكثر إثارة للاهتمام.

أنا على وشك المغادرة عندما يسألني عن اسمي. دون سبب معين أتجنب استخدام اسمي الألماني والمهني؛ "كريس باباس" وأفصح عن اسمي الحقيقي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كاملًا؛ "خريستوس باباديميتراكوبولوس". تظهر عليه علامات دهشة مفاجئة. هل يا ترى مقطع "بابا" المشترك في بداية لقبينا هو سبب تلك النتيجة المثيرة؟ من المؤكد لا. يصرِّح "نيكولاوس بابابوستولوس"، وبكل بفخر أنه لم يكن يعرف والدي فحسب، بل كان يعرف جدي أيضًا.

يتبدل البرنامج في غضون ثوانٍ. فبدلًا من السماح لي بالرحيل، يقوم المحامي بإسناد قضيتي إلى موظف عبر الهاتف، مع تأكيده مرتين على عبارة "الأولوية القصوى". ما إن ينهي اتصاله، حتى يطلب مني في إصرار الجلوس أمامه. أنجرف لا محالة إلى الجولة الثانية من الغوص في أعماق الماضي. تاريخ المدينة، وعادات سكانها، تأخذ أماكن المعالم الأثرية العظيمة وغير العظيمة في التكشف أمامي مع كثير من التفاصيل.

يؤكد لي "بابابوستولوس" بشكل مفاجئ أنه لا داعي للقلق. سنجد السويسري الذي أبحث عنه، حتى لو كان علينا الاتصال بجميع المحامين ومحرري العقود في المنطقة. لست قلقًا ولكن.. ليس هناك لكن.

- كانت شجرة دلب "بوسانياس" الضخمة التي ربما تكون أقدم شجرة في اليونان اليوم، تبسط ظلها في المكان نفسه لأكثر من ألفين ومائتي عام. هل يمكنك تخيل حجم معرفتها على مر الزمن؟

لا لا يمكنني. يبدو أن المحامي لا يخمن حاجتي الماسة في النهاية إلى المغادرة، فيضيف:

- بجوار شجرة الدلب مباشرةً، بُنيت اثنتا عشرة نافورة على شكل أفواه أسود في موقع الينبوع القديم. عالم الآثار الألماني "إريك شليمان"، المشهور بحفرياته في "طروادة" القديمة و"موكناي" هو من سمَّاها بهذا الاسم نسبة إلى ينبوع "بوسانياس" المجاور لها. إلى الأعلى قليلًا، تبدأ سلالم "فيلوبومين"، وقد تم بناء درجاتها العريضة البالغ عددها مائة واثنتين وسبعين درجةً عام 1901. هل تعرف ما الذي تراه هناك سيد "باباديميتراكوبولوس"؟

يوقظني سؤاله من عالم أحلام اليقظة، أهز رأسي، يبتسم "نيكولاوس بابابوستولوس" في عجرفة ويستغرق بعض الوقت ليكشف السر لي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- "تمبيلوراخي". طريق مرصوف بالحصى التقليدي يربط الجزء السفلي بالمدينة العليا. أستمع إلى أهم مصادفة. لقد ركب العديد من البلاط بيديه في "تمبيلوراخي".. جدك.

- من؟

- نعم، جدك. أراهن أنك لم تكن تعلم هذا.

- لكنه.. كان نجارًا.

- بالفعل كان نجارًا. نجارًا مميزًا. ما زلت أملك في منزلي إحدى الطاولات التي صنعها. لكنه لم يعمل بالخشب فحسب، بل صنع أشياء أخرى مختلفة أيضًا.

يرن هاتف "نيكولاوس بابابوستولوس". على الأقل لقد استيقظت من أحلام اليقظة تمامًا، يطلب من المتصل الحضور، وبعد ثوانٍ قليلة يقف محامٍ شاب أمامنا ممسكًا ورقة بيديه.

- حسنًا.. بيع الأجانب وشراؤهم في منطقة "بوكا" في "كاماراس". في العام الماضي اشترت سيدتان فرنسيتان عقارًا مساحته أربعة آلاف وثمانمائة متر. اسماهما..

- لا لا. أنا أبحث عن شخص ما، سويسري على وجه التحديد.

- لا يوجد سويسري في قائمتي.

- هل أنت متأكد؟

- الجنسيات مذكورة بالتفصيل. في العقد الماضي يظهر أحد الألمانيين.

- ما اسمه؟

- "أنطون روت". قبل سبع سنوات اشترى منزلًا بالأرض المجاورة له تبلغ مساحته نحو ألف وخمسمائة متر مربع.

- هل يظهر سن "روت"؟

- لحظة واحدة.. حسنًا، وُلد الألماني في عام 1918. ربما يكون هناك خطأ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مطبعي. في بعض الأحيان محرري العقود...

لم يُرتكب أي خطأ. قبل أن يكمل عامه المائة بقليل ورطني "أنطون روت" في لغز الموت المزدوج. ساعات قليلة تفصل بين انتحاره في ألمانيا وغرق "إيفا ديبليج" في اليونان. الخلاصة؟ الموت يتنقل بسرعة، وغير خاضع لأي قيود في أي مكان.

رغم إصراري على دفع أتعاب موظفه، فإن "نيكولاوس باپابوستولوس" يرفض قبول أي نقود. قبل أن يودعني، يقدم لي بطاقة دعوة ويؤكد مرتين أن حضوري سيكون تشريفًا خاصًا له. التفاصيل مطبوعة بحروف فنية على البطاقة. يتحدث الآن دون أن يلتقط أنفاسه. يُخرج هو نفسه مأساة قديمة، هو مخرج هاوٍ. على كلٍّ فنحن نُعتبر هواة، وخاصة أمام عظمة "إسخيلوس". يحدق إليَّ، شغوفًا إلى الإجابة. لذلك أعده بأنني سأحضر. بعد غد، الساعة.. نعم، سأحضر، أكرر تأكيدي. أشكره وأقبض بقلق على الدعوة بين يدي.

في لحظة ما أتمكن من الإفلات من مكتب المحامي ومن ثرثرته. أنا جالس الآن تحت شجرة صنوبر وأدخن بشراهة. يمتد "تمبيلوراخي" أمامي على هيئة أفعى حجرية، بينما جدي جاثم على الأرض يُركّب بعض تلك البلطات الحجرية، التي يغطيها الليل الآن. لا يظهر في خيالي كرجل عجوز كما عرفته. إنه شاب، بلا زوجة وأولاد، بلا عينين حزينتين. يأخذ البلاط بيديه العاريتين، ويفحص كيف سيجعله متوازنًا فوق نقاط معينة. هناك قلق واحد فقط يشغل عقله باستمرار؛ يجب ألا نتعثر في أثناء الهبوط. ليس نحو الجزء الأسفل من المدينة، لكن نحو الماضي.

أشعل سيجارة أخرى، وأفكر في أن المكان نفسه هو من نسج خيوط تلك القصة التي علقت فيها حتى الأعماق. هذا هو بالضبط سبب وجودي هنا؛ لأنني أيضًا كنت أنمو ذات مرة في هذه التربة بين البلاط الحجري.

"نعم". يجيب المفتش "يانسن كورت" بحدة مرتين. أستطيع أن أسمع سؤاله الصامت؛ لماذا أتصلُ به الساعة التاسعة ليلًا؟ بالتأكيد ليس بغرض سؤاله عن أي تطورات في القضية. "التحقيقات جارية"، كما يقول بشكل صارم، ويمكنني التنبؤ من نبرته أنهم ما زالوا غير قادرين على تحديد هوية موكلي المتوفى. عندما أخبره باسم "أنطون روت"، لا يصدر المفتش أي صوت على الطرف الآخر من الهاتف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ينتظر مني أن أضيف شيئًا آخر. لكن دون جدوى. فأنا أريد فقط أن أترجَل نحو "تمبيلوراخي".

يقولون إن "الإسكيمو" لديهم عشرات الكلمات المختلفة للثلج. وقياسًا على ذلك، يجب عليهم في اليونان استخدام كلمتين مختلفتين على الأقل لفصل الشتاء. إنه نهاية شهر يناير، ويمكنك بالفعل أن تتنصت على فصل الربيع في سكون الليل.

في أحد الميادين وقبل منتصف الليل بقليل أشاهد نحو عشرين شخصًا يأكلون "السوفلاكي". أختار طاولة وأحاكيهم، بينما ذهني مشغول بـ"إيفا ديبليج" الزرقاء. لا أتأخر عن العودة إلى المنزل. كنت سأبقى بالخارج طوال الليل إذا لم أهرع لأجري بحثي على الإنترنت. في المطبخ أجد "كوستا" عالقًا أمام فنجان قهوة فارغ. يطلب سيجارة مني.

- أيمكنك تخمين سبب انتظاري هنا؟

- يمكنني.

- هل معك القليل من النقود؟

- كل يوم يا "كوستا؟". ألم نتفق على مئة وخمسين يورو لمدة شهر؟ وبعد ذلك أعطيتك عشرين يورو أخرى.

يرحل في صمت.

السيرة الذاتية لـ"أنطون روت" على الإنترنت تتجاوز الصفحتين وتتخطى الخيال. ولد في عام 1918 في "كايزر سلاوترن". بدأ مسيرته المتشابكة بدراسة التاريخ اليوناني القديم. في عام 1936 يدخل قاعة الجامعة لأول مرة، ومن ثمَّ، لا يتوقف أبدًا. درس الأحياء، والاجتماع، وعلم النفس، والرسم، والهندسة المعمارية، والأدب المقارن. درجات علمية، ألقاب فخرية، ومنح دراسية، منشورات علمية، ودعوات جامعية، ومحاضرات في المؤتمرات. لا يمكن مضاهاة قدرته التي تتجاوز حدود المجالات المعرفية المختلفة تمامًا فيما بينها. لكن في الوقت نفسه أجد نقصًا في المعلومات حول حياته الشخصية. فلم تجرِ الإشارة في أي مكان إلى وجود عائلة، أو زواج، أو علاقة، أو أطفال. تظل الحياة الخاصة لـ"أنطون روت"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعيدة عن أعين الجمهور.

يعتبر عام 1987 عامًا محوريًا. فقد صدر كتابه الأول بعنوان "الغواص". تم الدمج بين عناصر المقالة الفلسفية، والأطروحة العلمية، والخيال، والدراسة التاريخية، لصياغة عمل من الصعب تصنيفه حتى يومنا هذا. القبول الأولي الباهت للعمل سرعان ما يتحول إلى اهتمام متزايد من الدوائر الأكاديمية المتنوعة. مع مرور الوقت تأخذ الموافقة على القيمة النفيسة للعمل طابعًا عالميًا. لا يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى يظهر العديد من الدراسات التي تحاول تفسيره. عادةً بطرق متناقضة.

مع ذلك، فإن "أنطون روت" نفسه لا يتبنى موقف أي شخص، فهو لا يدلي بتصريحات عامة على الإطلاق، يواصل أبحاثه العلمية ودراساته في مختلف المجالات، ورحلاته حول العالم مدعوًا من أشهر الجامعات.

تُرجم "الغواص" إلى اثنتي عشرة لغة، وأخذ صيته يذيع. يشير المؤلف غالبًا إلى أجزاء من كتابه، ويستشهد بأمثلة وبمصادر ببليوغرافية غير معروفة، ويقرأ مقتطفات، ويقيم روابط مع أعمال أدبية وكتابات علمية أخرى.

يقولون إن هناك غموضًا يتعلق بالإطار المفاهيمي للكتاب يؤدي إلى الكثير من الثنائيات. كما هو واضح، فهناك دائمًا من يحتاج إلى معرفة "ما الذي يعنيه الكاتب حقًا؟". في هذه الحالة خاصة، كلما زادت التفسيرات الممكنة وغير الممكنة، انزوى "أنطون روت" في صمته. يبدو أنه منزعج بشكل متزايد من هذا النهج. عند الضغط عليه بأسئلة ذات صلة، يصرح بشكل رتيب إلى حد ما أن "النتيجة الأكثر شيوعًا للتحليل المفرط تمثل تدميرًا للبنية". بل إنه أضاف مرة أن "كل تفسير شامل للعمل يحمل في طياته وفيات ضمنية مختلفة".

لا شك أن أعظم لغز في الكتاب يدور حول العنوان نفسه. لماذا يطلق عليه "الغواص"؟ لم يستطع أحد أن يقدم أدنى تبرير مقنع. ففي ثلاثمائة وستٍّ وثمانين صفحة، لا يوجد أي ذكر لغواص، ولا حتى كلمة غوص. إذن ما الذي يدل عليه هذا العنوان الغريب؟ بعد مرور ما يقرب من ثلاثين عامًا على نشر الكتاب للمرة الأولى، ما زال مفتاح حل اللغز مفقودًا. بل إنه من الممكن أن يظل هكذا إلى الأبد، بما أن الرجل الذي كتبه قد فارق بالفعل عالم التفسيرات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا نهاية للإشارات إلى "أنطون روت" على الإنترنت، الذي لم ينشر كتابًا آخر على الإطلاق. سيستغرق الأمر مني أيامًا، وربما حتى شهورًا لقراءة القليل مما كُتب عنه وعن عمله. كنت سأستمر بالتأكيد حتى الفجر، لولا أصوات طرق على الباب في الساعة الثالثة وعشرين دقيقة صباحًا.

- افتح يا بني، أنا والدة "كوستا".

تقف المرأة العجوز عند المدخل.

- اعذرني على إيقاظك في هذه الساعة. هل تستطيع أن تأخذ "كوستا" إلى المستشفى؟ لا أملك المال لسيارة أجرة، أرجوك أن تذهب به في الحال، فذراعه مكسورة.

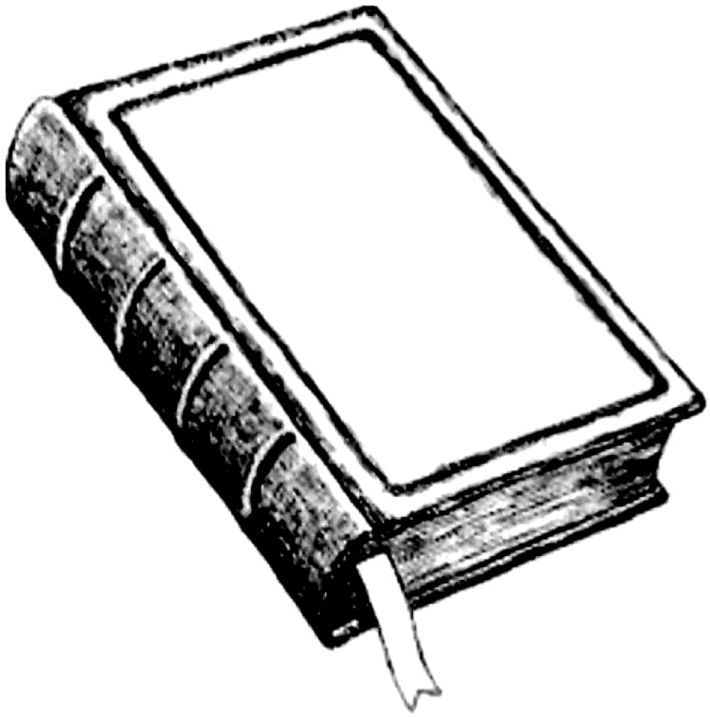

10

يمر الألم عبر جسده كاملًا ويستقر في يده اليمنى، فوق الرسغ مباشرة. يجلس منحنيًا في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، ممسكًا مرفقه الأيمن بيده الأخرى باستمرار، دون أن يصدر أي صوت. يظهر مبنى المستشفى في الظلام كهيكل سفينة لم تعد تتذكر وجهتها. ينزلنا سائق التاكسي أمام مدخل الطوارئ.

- ما الذي حدث؟

لا أحد منا يجيب عن سؤال الممرضة. تنزع عنه سترته ببطء، بينما يتغير لون وجهه من الألم.

- ما الذي حدث؟

يعمُّ الصمت من جديد. تصطحبه إلى عيادة الطبيب، وتشير إليَّ نحو مكان الانتظار، يظهر الطبيب في نهاية الممر. يتطلع إليَّ متضجرًا في أثناء مروره واضعًا يده في جيبه.

قبل أن أواصل تدخين السيجارة حتى منتصفها في الفناء، تأتي الممرضة وتطلب مني أن أتبعها. إنهم بحاجة إلى تصويره بالأشعة السينية، ربما يكون هناك كسر، يرفض إخبارهم كيف حدث هذا. قد يحتاج إلى عملية جراحية، هذا ما تهمس لي به في النهاية السيدة ذات الزي الأبيض التي يظهر عليها الإعياء الشديد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقطع الطوابق مع "كوستا"، ونستقل المصاعد، ونفتح ونغلق الأبواب. يرافقنا في كل هذا العاملُ الذي يوجّهنا، بعد التصوير بالأشعة ننتظر النتيجة. بقي كلانا في نهاية ممر ذي لون برتقالي، لقد أدركت سبب صمته الدائم، إنه لا يبدو قلقًا على ذراعه، ولا حتى مهتمًا بالألم. "كوستا" خائف.

يشكرني على إحضاره إلى هنا، لكن عليّ الآن النهوض والمغادرة، لا يجب أن أخبر أحدًا باسمي، فما أنا إلا أحد المارة الذين ساعدوه، وإلا فإن الأطباء سيتصلون بالشرطة، وعندها سأكون في مأزق. ولا يريد توريطي، ليس في شيء كهذا. ما هذا "الشيء"؟ "لا تسأل. فقط انهض وغادر. الآن". لا يجب أن أستقل سيارة أجرة أيضًا، لأنهم سيسألون بالتأكيد سائقي سيارات الأجرة بالخارج. يجب أن أغادر سيرًا على الأقدام. سنتحدث في وقت لاحق.

أمامي أربعون مترًا لأقطعها قبل أن أصل إلى باب المنزل عندما أتبين وجود خيال شخصين. من أين ظهرا؟ هل كانا يختبئان في الفناء أم خلف سيارة؟ يتحركان الآن نحوي بسرعة مثل كلب متوحش. أعلم أن الهروب هو أسوأ الخيارات.

- من تكون أيها الأحمق؟

الشخص الذي يوجه لي ذلك السؤال الأخوي في الثلاثينيات من عمره، بينما الآخر أصغر منه، من الصعب تحديد الملامح تحت أغطية السترات التي تخفي رأسيهما. يبدو الراجل الصامت أكثر قدرة على القتال، فقد بدأت قدماه تبحثان بالفعل عن المكان المناسب على الأسفلت.

- ماذا بك أيها الأحمق؟ هل سنمضي هنا الليل بطوله؟

- هل تتحدثان الألمانية؟

سؤالي باللغة الألمانية يتسبب لهما بشلل على الفور. يتبادلان النظرات الحائرة.

- هل تتحدث الإنجليزية؟

أرد:

- هل تتحدث الألمانية؟ لسوء الحظ لا أتحدث الإنجليزية على الإطلاق. يمكنك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاتصال بالشرطة إذا كنت تريد.

يشعران الآن بارتباك شديد، ربما حققت الكلمة الدولية (Polize"شرطة") هدفها. يتأرجحان بين الاستياء والشك. في النهاية، يتضح أن الخصم الصامت أكثر ذكاءً أيضًا. فقد تغير وضع قدميه، لقد أدرك بالفعل أنه لن تكون هناك معركة الليلة. يفتح فمه للمرة الأولى.

- دعه. سيكون هذا هو الألماني.

يتراجعان بسرعة وفي هدوء كما ظهرا، تثير الجملة الأخيرة تفسيرات مختلفة. هل خُلط بيني وبين شخص غريب آخر؟ أم أنهما يتحدثان عني حقًا؟ هل أنا المقصود بالألماني؟

في أثناء نومي أحلم أني أتجول في شوارع مكتظة بالناس. الوجوه كلها متشابهة؛ تبدو كأقنعة بلاستيكية. أرى فتاة تبرز من بين الحشد وتتقدم نحوي. إنها تتحدث معي، لكني لا أفهم شيئًا. كلماتها تبدو كصفارات غاضبة، سرعان ما تتناثر في الهواء، تخرج زهرة شفافة من جيبها وتقدمها إليّ. وعندما مدت يدي لها بدأت بالركض. سقطت زهرتها على الرصيف ومن ثمّ تطؤها أقدام مجهولة.

في الحادية عشرة بعد الظهر أتمكن من النهوض وإعداد القهوة. أرسل إليّ صديقي "جورج ويبر" بريدًا إلكترونيًا يحتوي على صور التقطت في مطعم "بوتيه ذفتيرا" في "لايبزيج". العديد من الزبائن يظهرون بابتسامات مصطنعة وملابس أنيقة للغاية. يوجد بينهم زوجان. شابة شقراء تجلس إلى جوار رجل كبير في السن. يتلامس خداهما تقريبًا، بينما الشمبانيا في أكوابهما المرتفعة ربما تعد باحتفال سري وبإثارة واضحة وصريحة بكل تأكيد.

Telegram:@mbooks90

حضر "أنطون روت" إلى مكتبي ليطلب مراقبة "إيفا ديبليج" من كثب. عشيقته بمعنى آخر. انظر! ها هي الأدلة متناثرة في الصور على شاشتي. قبل ثمانية أيام فقط من انتحاره، كان موكلي يجلس بجانبها في مطعم في "لايبزيج". في إحدى الصور، ألاحظ نشوة "أنطون روت" الخجولة تجاهها. هل هناك احتمال ألا تجد الغيرة طريقها إلى زوجين يفصل بينهما أكثر من نصف قرن من الزمن؟ كان يشك في وجود رجال آخرين في حياتها، وقد كان محقًا. فلم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حتى تظهر عشيقته في فندق "نجمة الميناء" مع شخص أصغر منها. اختفت مع "تيم" ساعات في الغرفة 107، يستمعان بشغف إلى المعزوفة نفسها من موسيقى الـ"رامشتاين". هل كانت هذه المعلومات كافية لدفع "أنطون روت" إلى الانتحار؟ حسب المنطق لا. لكن المنطق ليس في سن السابعة والتسعين من عمره، وليس لديه عشيقة أصغر بستة وخمسين عامًا.

أقرر العودة إلى المكان الذي أنتشلت منه جثة "إيفا ديبليج". عمليًا هذا يعني أربعين دقيقة بالدراجة. إذا كان هناك لقب عالمي رسمي تحت مسمى "س. س. أ". (سائق سيارة أحمق)"، كان سيحصل عليه بكل تأكيد أحد سائقي السيارات التي تمر بجانبي. لا يحتاج اليونانيون إلى أعداء خارجيين بأسلحة حديثة. فهم يقضون على بعضهم البعض بصورة أسرع، بينما هم ممسكون بعجلة القيادة والهاتف المحمول وقهوة "فرابيه" في أيديهم. لا ينبغي أن يكون الأمر مفاجئًا عندما يتضح أن قيادة الدراجة في البلاد فحسب تؤدي إلى معدل وفيات أعلى من وفيات "فورمولا 1" في جميع أنحاء العالم.

على العكس، هذه تُعد مفاجأة كبيرة، على الأقل بالنسبة لي، وجود ثلاثة أطقم تلفزيونية بكاميرات وصحفيين في نهاية الطريق الترابي. أنزل عن الدراجة، وأغمغم في الحال. هذه الدعابة السخيفة تتخطى الحدود ما إن يقترب مني رجل يرتدي سترة "كوماندوز" ويحمل ميكروفونًا.

تطغى لهجة ألمانية مميزة على لغته الإنجليزية، بينما يسألني من أين أنا. لم يتبق لديّ سوى القليل من الوقت. فقبل أن يصل اثنان من زملائه يحملان الكاميرات، كنت قد غادرت بالفعل.

غرق غامض لامرأة ألمانية في اليونان!

وفاة سائحة ألمانية في البحر اليوناني. هل هي حادثة فحسب؟

مأساة يونانية - ألمانية في فصل الشتاء.

هذه هي عناوين الصفحات الأولى في وسائل الإعلام الألمانية حول غرق "إيفا ديبليج". عثر خفر السواحل على حقيبتها على شاطئ قريب، ما إن تُعرف هويتها، يتولى الصحفيون الأمر. في العادة أخبار كهذه كان بالإمكان طباعتها بحروف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صغيرة. لكن ليس في مثل هذا الوقت، ولا في ظل تلك الظروف تحديدًا.

بدأت اليونان تجد نفسها في وسط إعصار الأزمة الاقتصادية بعد سبع سنوات من التدهور المستمر، والجميع يعرف أنها لن تكون قادرة الآن على النجاة بمفردها. لا تزال ألمانيا أقوى دولة في أوروبا، والجميع يعلم أنها لا تريد أن تفقد دورها القيادي. لثلاثة آلاف عام، تحظى الأنظمة المتناقضة بالنصيب الأكبر من عدد المتابعين. المتهورون في البلدين يتبارزون بسيوفهم السامة تحت نعرات الكرامة القومية. أمام حلبة الصراع هذه، ما الذي يمكن أن يكون أكثر إثارة من غرق دون أسباب واضحة لسائحة ألمانية في البحر اليوناني؟ خاصة عندما تُضاف جرعة كبيرة من الغموض.

"إيفا ديبليج"، سبّاحة ماهرة، حاصلة على ميداليات في المسابقات منذ صغرها، تحب السباحة في الشتاء. وقد ثبت ذلك من خلال بدلة السباحة الحرارية الخاصة التي ارتدتها لنزول البحر في مثل هذا الوقت. صرحت السلطات اليونانية بشكل قاطع عن طريق طبيبين شرعيين بأنها حادثة، حيث لم يُعثر على أي أثر للصراع أو العنف على جسد المتوفاة. ثم كيف يمكن لسباح متميز أن يغرق في مياه خليج "كورينث" الهادئة؟ لا يمكن تقديم تفسير لذلك. تقرر ألمانيا إرسال فريق من أطبائها الشرعيين، وهم بالفعل في طريقهم للوصول.

أجلس أمام اللابتوب، إذ يتصاعد التراشق بين البلدين. ما شعوري؟ في البداية إعجاب بالسهولة والسرعة اللتين ينتشر بهما ذلك الهراء؛ المواجهات المجهزة سالفًا، والكراهية الأبدية، التعصب للمواقف، الرغبة الشديدة في الصراع التي تؤدي دور أهازيج الحرب خلف كل ذلك. أنا أضحك أيضًا. فلا يسعني إلا أن أضحك. لأنني "كريس باباس" أو "خريستوس باباديميتراكوبولوس"، حسب الموقف، اعتمادًا على اللغة، اعتمادًا على المكان، اعتمادًا على من يستمع ومع من أتحدث، أنا لا أحد. إنه لأمر جميل أن تكون قد وُلدت بين بلدين، فسرعان ما تشعر أن لا أحد منهما يريدك.

في بريدي الإلكتروني، أعثر على ملف جديد بعنوان "ويبر" يحمل عنوان "عاجل". في البداية أجد صعوبة في فهم ما يعرضه فيديو الهواة. أحتاج إلى أن تمر ثلاثون ثانية أو ربما أكثر من ذلك. أولًا، أتعرف إلى الجدران، المستنقع الأخضر.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

توجد كاميرا فيديو داخل غرفة "نجمة الميناء" تُسجِل. هل يا تُرى هي الغرفة 107؟

الآمر – هكذا أدعو هذا الرجل منذ البداية - يجلس في مكان ما غير مرئي، لكن صوته مسموع بوضوح، يعطي الأوامر بلهجة جادة تكاد تكون آلية، تسود بين العبارات فترات من الصمت البارد، يرتدي الزوجان أقنعة سوداء، ولم ينطق أيٌ منهما بكلمة على الإطلاق. الشاب؛ نحيل، يبلغ من العمر خمسة وعشرين أو ثلاثين عامًا، حليق الجسد كاملًا. تكبره المرأة عمرًا، طويلة، ذات شعر قصير، وعلى الرغم من أنها تذعن له دون اعتراض، يبدو أنها تتجاهله من أعماقها. لديها رجلان نحيفتان ورائعتان. ذات وسط نحيف، وليس لديها بطن. وكتفاها المتباعدتان تذكراننا بفتاة شابة تمارس الرياضة بانتظام. بالطبع، لن تُمكنني أيٌ من هذه الصفات من تخمين هويتها. ومع ذلك، امتثالًا لتعليمات الآمر، فهي مجبرة على اتخاذ خطوات قليلة. من الواضح أن هذه الحركة البسيطة تخونها، تلعب "إيفا ديبليج" دور البطولة في الفيلم الذي تبلغ مدته ستًا وأربعين دقيقة.

تظل الكاميرا ثابتة ولا تقرِّب مطلقًا الجسدين العاريين. من المؤكد أن الآمر يجلس على بعد مترين أو ثلاثة أمتار من نقطة التصوير. أستطيع الجزم بأن الكاميرا موضوعة هناك بالضبط بحيث يمكنها التصوير دون أدنى تدخُل من جانبه في عملية التصوير.

لا ينظر أيٌ من الزوجين تجاه العدسة. أما بالنسبة للآمر غير المرئي، فإن شدة صوته ومصدره يشهدان على أنه لا يتحرك على الإطلاق. يعطي أوامره بوضوح، كما لو كان يعطي دروسًا متخصصة في الإملاء. لا يجب إهمال أقل الأصوات المتحركة، ولا يُسمح بأي تشويه حتى للصوت الأخير.

تقود أحداث الفيديو إلى ذروات متتالية، يبدأ مشهد الرجل بغطرسة صريحة، لينتهي به الأمر في نوبة حيوانية، دور المرأة أكثر وضوحًا، فبعد إيماءات الإذعان التقليدية في البداية، تُجبر على عبور سهول الاستعباد الأعمى. ومع ذلك، فقد نجح المشهد في خلق جاذبية لا يمكن تبريرها، مثل فضاء مغلق يسحبك بلا هوادة نحو أحشائه. كيف يُكتب النجاح لشيء مثل هذا؟ لماذا لا يشعرنا بالاشمئزاز؟

إذا كان عليَ إعطاء إجابة، فسأركز على الأوامر نفسها، التي تجذبك ببطء ودون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعي إلى أعمال عنف تجري في الخفاء. فأنت تريد أن ترى ما الذي سيحدث بعد ذلك، وإلى أين ستذهب، أي حدود سيتخطونها. في النهاية، يتناثر الشغف في أرجاء المكان، فمن الواضح أن أبطال العمل أنفسهم يستمتعون بهذه الرحلة. وحينها، فقط حينها، يتسرب إليك الشك للمرة الأولى. هل هذا حقًا يعجبك أنت أيضًا؟ أو على الأقل يعجبني أنا؟

بالإضافة إلى ملف الفيديو، فإن رسالة "ويبر" - كالعادة - غنية بالمعلومات دون إطالة في الكلام:

سوف تسألني أين عثرَ على الفيديو. أرسل إلى البريد الإلكتروني الشخصي لـ" أنطون روت" في 14 يناير. هذه الرسالة تحديدًا كان لها رمز منفصل. تم فك شفرته مؤخرًا. المرسل غير معروف، من مقهى إنترنت في "دوسلدورف".

هل تتعرف إلى أيٍّ من المشاركين؟ أعني بخلاف "إيفا ديبليج".

ملاحظة لا تتصل بـ" كورت يانسون" في مركز شرطة "هامبورج" مرة أخرى. يعتقد أنك متورط شخصيًا في القضية. يعرف بخصوص رحلتك إلى اليونان.

ردي على "ويبر" كان أكثر إيجازًا:

أنا لم أتعرف إلى أي شخص آخر.

ملاحظة "يانسن" أحمق كبير. أنت تعرف هذا بالفعل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

11

في الثامنة مساءً، أصعد الدرج نحو ميدان "بسيلا ألونيا". أجد مكانًا في "بار" يشبه حذاءً ضيقًا تصدر منه رائحة التبغ. أنا الزبون الوحيد. يقرر النادل دون داعٍ أن يتوقف عن اللعب بهاتفه الخلوي ليقدم لي كأس "ويسكي" من نوع "جيمسون". بعد ذلك، يلفُّ سيجارة، ويغرسها بين شفتيه ويشعلها.

- هل التدخين مسموح به؟

- لماذا؟ أيزعجك ذلك؟

- أنا أدخن أيضًا. أردت فقط معرفة ما إذا كان مسموحًا به.

- في العادة لا، لكن لا توجد مشكلة. من أي بلدٍ أنت؟

- أعيش في ألمانيا.

- هل تكسبون "فرنكات" جيدة هناك؟ انظر! لقد قمنا بثورة للتو في اليونان، لكنها ثورة وهمية.

- وهمية؟ كلمة جميلة وغير معروفة.

- اقتصاد، عدالة، تعليم، صحة، كلها إنجازات وهمية. أعني، كل شيء مزيف، بالطبع، نحن ندخن أينما نُرِد. هذه هي الطريقة التي حققنا بها التغيير العظيم، الذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت البلاد، وأوروبا، والكوكب بأسره في أمس الحاجة إليه. فنحن الرواد دائمًا.

أتجاذب أطراف الحديث برفقة الكأس الثانية من مشروب "جيمسون" عندما وقعت عيناي بالخطأ على باب المحل. بين الملصقات الملونة لمختلف الأحداث، أقرأ بشكل تلقائي:

مأساة "أجامنون"

لـ"إيسخليوس"

يبدأ العرض بعد نصف ساعة، وكأن ذلك لم يكن كافيًا، يؤكد النادل لي أن المسرح لا يبعد أكثر من مائة متر. ماذا لو لم أفِ بوعدي؟ ماذا عساه أن يحدث، متفرج أقل في مسرح على حافة اللامكان. لكن ماذا يتبقى في هذا الكون المخادع إن نسينا وعودنا؟ لقد ساعدني المحامي على الفور دون أي مقابل مادي، ووعدته بأنني سأذهب. حتى أنني مددتُ يدي له برهانًا على ذلك.

كان لديَّ جد يوناني، أتذكر أشياء قليلة منه؛ "يَدُكَ هي كلمتك"، كان يقول شيئًا من هذا القبيل، هذا الجد، شبح ينتمي الآن إلى حقبة زمنية أخرى، كان يعيش على بعد شارعين من هنا، حتى إنه لربما يراني الآن. أليس هذا هو ما تفعله الأشباح؟ "يدك هي كلمتك." نعم، أعرف ذلك، بالطبع أعرف، حكاية غير مناسبة لمحقق صعب المراس. إليك سببًا آخر لعدم الهروب من "أجامنون".

متحف الفولكلور الشعبي في منطقة "إيغيو"، عبارة عن مبنى ذي تصميم بسيط غارق في درجات اللون البني الكئيب، يرتفع خمسة أمتار أو ستة فوق سطح الأرض. كان بإمكانه أن ينتصب هناك من تلقاء نفسه، ليُظهر جرأته على مواجهة الزمن، في الخارج يوجد سُلّمان متقاربان يلتقيان عند المدخل الوحيد، يبدو هذا كإشارة ضمنية واضحة إلى أنه في النهاية، أيًا كان المسار الذي تختاره، فسينتهي بك الأمر في المكان نفسه.

بما أننا انتقلنا إلى عالم المسرح، تجدر الإشارة إلى أن هذا المبنى خاصةً قد لعب مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأدوار خلال أكثر من مائتي عام من الزمن؛ فقد تم تحويله من قصر أسطوري قديم إلى مكان سري للتجمعات المشبوهة، ومن مبنى بلدية فخمٍ إلى مستشفى طوارئ، ومن مدرسة ابتدائية متواضعة إلى متحف

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعبي اليوم. حتى إنه قد استخدم سجنًا أيضًا، ففي بعض الأماكن في الطابق السفلي ما زال بإمكانك أن تجد نوافذ ذات قضبان.

لقد علمت بكل هذا من خلال برنامج عرض الليلة المكون من ثلاث صفحات، الذي أحمله بين يدي، ويمكنني بالفعل أن أخمن أن "نيكولاوس بابابوستولوس" هو من ساهم في إعداده، من خلال المصدر نفسه، علمت أيضًا أن "إسخيلوس"، بالإضافة إلى كونه أبا فن المأساة، يُعتبر أيضًا أحد أكثر الحداثيين ريادةً. فقد سلك دروبًا لم يبسقه إليها أحد، وذلك من خلال إضافة الممثل الثاني، إذ إن المأساة كانت تُعرض حتى ذلك الحين عن طريق ممثل واحد فقط يغيِّر الأقنعة باستمرار. ليس لديَّ وقت لقراءة المزيد. الفتاة التي اشتريت منها التذكرة تقترب مني، وتعلن بصوت هامس أن العرض قد بدأ، تشير إصبعها الممدودة إلى آخر باب على اليسار، وتضيف بشكل قاطع أنه يجب عليَّ الإسراع. أعبر الممر وحدي في طقوس صامتة.

تنقسم القاعة إلى قسمين منفصلين عن بعضهما البعض بصورة غير احترافية. الجزء الأمامي، المخصص للمتفرجين، يُضاء بضوء خافت وبسيط بواسطة مصابيح مثبتة على الأرض. نجلس ستة أشخاص فقط على أكثر من خمسين كرسيًا. المسافات بيننا متباعدة إلى أقصى درجة، كما لو أن كل واحد منا حاول بملء إرادته إبعاد نفسه عن الآخرين. يوفر لي مقعدي المجاور للنافذة رؤية بانورامية للفناء الخارجي.

الجزء الثاني من القاعة يضم هيكل هرمٍ خشبي مكون من خمسة مستويات. اختفت قاعدته في الظلام، بينما إضاءة ساطعة تخترق قمته. بقدر ما تبدو هذه الأشياء غريبة بالنسبة لي، فلا شيء يمكنه أن يهيئني لما هو آت.

ممثلان - رجل وامرأة - يظهران برداء أسود وأبيض على التوالي. الأقنعة التي يرتديانها، بالإضافة إلى السمو الجامد، تضيف أيضًا صورة ساخرة غير صريحة. ربما لأنني لم أشاهد بتاتًا أقنعة من الدراما القديمة قبل ذلك. أذعن منذ اللحظة الأولى إلى التداعيات الخاطئة. ففيديو تلك الغرفة البائسة في "نجمة الميناء" ما زال عالقًا في ذهني. زوجان بوجهين مغطيين هناك، وزوجان بوجهين مغطيين هنا أيضًا. تختفي أوجه التشابه بينهما، وتزداد حيرتي عندما يبدأ العرض؛ لأنني أدرك حينها أن الكلمات تبدو مجهولة تمامًا بالنسبة لي. فأنا أشاهد عرضًا لمأساة يونانية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قديمة.

يغير الممثلان الأقنعة والملابس التي تجسّد شخصيات مختلفة. من خلال النغمة الثقيلة والإلقاء المبالغ أدرك أن "نيكولاوس بابابوستولوس" هو من أدى الأدوار الذكورية. أتمكن الآن من فهم بضع كلمات بين الحين والآخر، ربما هذا بسبب الأسلوب الرنان البطيء. بدأت المرأة دورها بنبرة منخفضة، ثمَّ ترتفع تدريجيًا بانفعالاتها وحدتها. توجد هناك أيضًا مجموعة من الفتيان والفتيات يؤدون دور الجوقة. لكننا لا نرى وجوههم أبدًا، إذ إنهم يؤدون أدوراهم بينما ظهورهم للجمهور.

كلما يمضي الوقت أشعر بالملل أكثر وأكثر، لا يدوم اهتمامي في البداية بالأقنعة والحوار أكثر من بضع دقائق، أحاول جاهدًا أن أبقي تركيزي على العرض المسرحي، إلا أنه بعد نصف الساعة الأولى أجد نظراتي تهرب باستمرار خارج الغرفة. هناك فوق الفناء المهجور وغير المضاء، أفكر في أولئك الذين شاركوني أحيانًا المنظر نفسه على مدار المائتي عام الماضية. كانوا ينظرون بأعينهم، خلف كوابيسهم الشخصية، من خلال توقعاتهم الخاصة، لكننا نقف جميعًا مقابل الفناء نفسه وتحت الظلام ذاته.

تستمر الأحداث في التقدم، ويستمر الممثلون في تبديل الأقنعة وهم يصعدون أعلى وأعلى نحو قمة الهرم. تُسمع الأغاني بنبرة حاسمة من الجوقة الآن، من المستحيل أن أنتبه إليهم بالقدر المطلوب. لقد نال مني مشروب "جيمسون"، بالإضافة إلى الشعور بالتململ وعدم الفهم. أخطط بالفعل للهرب، هل سيكون كافيًا أن أخرج وأنتظر حتى نهاية العرض؟ الحقيقة هي أنني أريد تهنئة "نيكولاوس بابابوستولوس". فرغم أنني لا أفهم الكلمات، إلا أن ملامستها تُلهب المشاعر. ما الذي يمكن أن يدفعك إلى إعادة مثل هذه الأسطورة إلى الحياة؟ بهذه اللغة، في هذه القاعة، أمام هذا الجمهور، في هذا الوقت؟

بينما أحسب الخطوات اللازمة للوصول إلى الباب دون إزعاج، تتناهى إلى سمعي إحدى الجمل. بطيئة وحادة ومفجعة:

" أواه! يا ويلاه! طعنوني بطعنة قاتلة في الأعماق".

يوجد الرجل الآن في أعلى قمة الهرم. يترجّل ويردد بكل قوة:

" أواه! يا ويلاه! طعنوني بطعنة قاتلة في الأعماق".

بعد ذلك مباشرة يسقط على الأرض فجأة ميتًا، يُحدِث صوت ارتطامه بالأرض ضجة، ومن ثمَّ، يسبح في ضوء شديد السطوع يعمي الأبصار. في الوقت نفسه تنظر المرأة إلى السماء، وذراعاها ممدودتان إلى أعلى، بينما جسدها لا يتزعزع من مكانه. تشعر كأنها تمثال.

وأنا؟ أنا ضائع بكل تأكيد. لأنني في قاعة المسرح هذا سمعت للتو مرة أخرى الرسالة التي تركها "أنطون روت" على البريد الصوتي. آخر ما قاله قبل أن ينتحر. منذ فترة طويلة كنت أحاول وضع الحروف والكلمات الألمانية في نسق: "*Oh mich pepli gering plig in eso*" لكن "أنطون روت" كان يقول لي باليونانية القديمة: **"أواه! يا ويلاه! طعنوني بطعنة قاتلة في الأعماق".**

لم أعد أبذل أي محاولة لمغادرة الغرفة، أعني للهرب. أجلس هناك مذهولًا ومندهشًا تمامًا من الكلمات التي، وإن كنت لا أعرف معناها، فإنني أشعر بتأثيرها المحفز. لقد قُتل "أجاممنون"، مرتديًا قناعًا يعبر عن الدهشة أو الألم العميق، على يد "كليتمنسترا" في أعلى قمة الهرم.

لا أدرك كم من الوقت مرَّ حتى نهاية العرض. عندما يضربني الهواء النقي أخيرًا في الخارج، أشغل هاتفي الخلوي، أستمع إلى رسالة "أنطون روت" ربما أكثر من عشر مرات، ليس هناك أدنى شك، لقد اختار عبارةً من مسرحية "أجاممنون" لـ"إسخيلوس".

يظهر "نيكولاوس بابابوستولوس" على عتبة الباب الخارجي للمبنى بعد نصف ساعة. إنه لا يشبه المحامي الذي التقيته في اليوم السابق. يبرز المعطف الأسود، وجهه شاحب كالموتى، ويبدو أنه هو نفسه في عزلة دائمة عما يحيط به.

أقدم له التهاني. تلامس يده الباردة يدي في فتور. أحاول أن أسأله بعض الأمور حول معنى عبارة "أجاممنون" وحول حبكة المسرحية. لكن لا يوجد ردة فعل. من الواضح أن "نيكولاوس بابابوستولوس " لا يستمع إلي. أعرب مرتين عن رغبتي في تهنئة البطلة أيضًا، دون جدوى، لا يعيرني أي اهتمام، كما أنها لم تظهر هي أيضًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مطلقًا. ينظر" نيكولاوس باپابوستولوس" فجأة نحو السماء الليلية، ومن ثمّ يناجي نفسه:

-ها نحن ذا، فقد أوشك العمل على الانتهاء.

بعد مرور بضع ثوانٍ من الصمت المحرج، يتأبط ذراعي دون سابق إنذار ويقترح عليّ المغادرة.

يقع سكن المحامي في الطابق العلوي من المبنى، فوق مكتبه مباشرةً. لا أعرف مساحة السكن الإجمالية أو عدد الغرف التي يحتوي عليها، لكن غرفة المعيشة تمتد من حولنا بشكل كبير. استُبدل بالجدار الشمالي بكامله نافذة زجاجية، مما يعطي الانطباع بأن الميناء والمدينة ينتميان إلى فناء المبنى. الجدار المقابل مغطى بمكتبة كتب. أبعادها وخشبها الأدكن الذي يبلغ عمره قرونًا تعمل كثقل موازن في مواجهة البحر، الذي يتموّج ببطء هناك في الخارج كحيوان جريح. نحتسي "الويسكي" في مكان شبه مظلم.

- من كاتبك المسرحي المفضل سيد "باباديميتراكوبولوس"؟

- "بيكيت".

- رائع. يوجد مقال قصير نسبيًا بعنوان من "*إسخيلوس إلى بيكيت*". كتبه "يورغوس هايموناس"، أحد أمهر المترجمين اليونانيين في مجال التراجيديا، وفي الوقت نفسه واحد من كتاب قصائد النثر العبثية النشطين.

- هل تود أن تخبرني شيئًا عن "أجاممنون"؟ لماذا اخترت هذا العمل؟

- بالطبع لا. لا أحد يستطيع إخبارك، يجب عليك قراءته أولا.

ينهض من مقعده، ويسير نحو مكتبة الكتب ويُخرج كتابًا، وبهذه الطريقة يقع نص "أجاممنون" في يدي. يعيد "نيكولاوس باپابوستولوس" تعبئة كأسينا بمشروب "لاجافولين". مذاق اليود يناسب المكان.

أغادر منزل المحامي عند منتصف الليل، ينتابني شعور جارف بالرغبة في العودة، أقتص أثر "أنطون روت" مرة أخرى دون أن أسعى إلى ذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

12

ارتفاع في ضربات القلب أم أصداء نقر على الخشب؟ أنا عالق في الفراغ بين النوم واليقظة، غير قادر على الاستجابة. هل فعلًا هناك من يطرق الباب الخارجي للشقة؟ نعم، للأسف نعم. سأستيقظ بحركة بطيئة، وأتعثر، بينما أبحث عن مفتاح الضوء، أصبُّ لعناتي على كرسي يعترض طريقي، ومن ثمَّ، سأصل إلى هناك.

تقف امرأة عند المدخل، وذراعاها متشابكتان حول جسدها.

- هل ستأخذني؟

-إلى أين؟

- إلى الطبيب. السيارة جاهزة. ما عليك سوى أن تقود. لا بد أن تقرر الآن. ليس هناك وقت.

لم أرَ هذه المرأة من قبل، ليس لديَّ أدنى فكرة كيف انتهى بها المطاف خارج باب منزلي. يفسر وجهها الشاحب أنه "ليس هناك وقت". ألحق بها كما لو كنت مُنومًا مغناطيسيًا. في الطريق تطلب مني أن أجلب المفاتيح من جيب سترتها الأيمن. تظل ذراعاها ثابتتين حول جسدها، كأنها درع حماية مؤقتة. نركض الآن تقريبًا. تتوقف أمام سيارة "فيات باندا "برتقالية اللون، وتومئ لي كي أفتح لها الباب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخلفي، تجلس على الفور نصف مستلقية على مقعد السيارة.

تعليماتها المختصرة توضح مدى دقتها، لكن عندما نخرج إلى الطريق السريع أدرك أننا نتجه إلى مكان آخر وليس إلى مستشفى "إيغيو". يسترخي جذعها فوق المقعد، مما يؤدي إلى انقباضات عصبية مع كل نفس تأخذه. لا تسمح لي المرآة الوسطى للسيارة برؤية المزيد.

- لا تكن متهوزًا هكذا في القيادة، هل تريد أن تقتلنا قبل أن نصل؟ ما زال أمامنا طريق طويل للوصول إلى أثينا.

- أثينا؟ أنت تعانين صعوبةً في التنفس. مستشفيات "إيغيو" أو "باترا" أقرب من ذلك بكثير.

- ليس بإمكانهم تقديم المساعدة المطلوبة هناك. أنا بحاجة إلى الذهاب إلى أثينا.

لا أفهم شيئًا، لم نجد بيننا أي أرض مشتركة للتفاهم. الرحلة إلى أثينا تستغرق ساعتين لا نهاية لهما. بينما هي تجاهد لاستنشاق الهواء قدر المستطاع، تمكنت من معرفة بعض المعلومات عنها؛ "إليني" صديقة "كوستا". كان من المفترض أن يكون جالسًا على مقعدي هذا بكل تأكيد لو لم يُجرِ عملية جراحية في ذراعه هذا الصباح. كسر مضاعف، وكان لا بد من تركيب شرائح ومسامير بشكل عاجل، وفقًا للتقديرات الأولى، سيحتاج إلى البقاء بضعة أيام أخرى في المستشفى. تتحدث "إليني" عن "كوستا". لكن من أي شيء تعاني هي نفسها؟ لماذا يصعب عليها التنفس إلى هذه الدرجة؟ بدلًا من أن تجيب، تأخذ أنفاسًا عميقة.

تتوفر في مدخل مدينة أثينا كل مقومات الانزلاق نحو عالم الكوابيس؛ سائقون مصابون بجنون العظمة ينتشرون في كل مكان، فالحيوانات المعدنية، التي تشبه السيارات في مظهرها الخارجي، تسعى إلى الانتقام، ولا يتنازل أيٌّ منها عن بضع بوصات من الأرض الأسفلتية المقدسة. هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها هذا الكم الهائل من الغضب يتدفق في الطرقات.

في مرحلة ما، طلبت مني "إليني" أن أقود السيارة محاولًا ألا أضغط فجأة على دواسة المكابح. في الساعة الثالثة وعشر دقائق ليلًا نترك السيارة في ساحة انتظار خالية، ونبدأ في السير بسرعة. لم نكن قد تقدمنا سوى ثلاثة أمتار أو أربعة حينما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سقطت فجأة على ركبتيها. يبدو أن الإسراع قد أدى إلى تدهور حالتها.

مبنى العيادة محاط بحديقة غير مكتملة. تتكئ "إليني" بجسدها علي ونحن نعبر تلك الحديقة. ثلاثة أيام في اليونان وثلاث زيارات إلى المستشفيات. رقم قياسي من الأزمات الصحية. تضعها ممرضتان على نقالة وتختفيان وراء باب مزدوج، تمر خمس عشرة أو عشرون دقيقة من الانتظار.

يطلب مني موظف يرتدي بدلة أن ألحق به. يبدأ بعدها على الفور في التمتمة ببعض عبارات الغزل عبر هاتفه الخلوي، نقطع الممرات، ونستقل المصعد إلى الدور الثالث. يمكنك القول إن المستشفيات جميعها مستشفى واحد، أو أن مستشفى واحدًا يمثل جميع المستشفيات، يتوقف "فالانتين" عن اعترافه الغرامي فترةً وجيزة جدًا، يشير إلى أحد الأبواب، ثمَّ يهرب تقريبًا.

أنتظر لمدة عشر دقائق في مكتب فارغ، يدخل طبيب يرتدي ملابس بيضاء، طويل ونحيف الجسم، ذو لحية رمادية، ويجلس أمامي. لا توحي نظرته الزجاجية بأي شيء على الإطلاق. نبقى هكذا؛ أحدنا في مواجهة الآخر، وكلما مر الوقت، يزداد يقيني أنه لن يتفوَّه بكلمة. فنحن نشبه شخصين يعرفان بعضهما البعض منذ عهد بعيد، لكنهما لم يتقابلا منذ وقت طويل، قررا أن يجتمعا مرة أخرى هذا المساء، لكنهما لم يأخذا في الحسبان أنه لم يعد لديهما ما يتحدثان عنه. بشكل غير متوقع تمامًا، يُسمع صوته:

- هل أنت مَن فعل هذا؟ ليكن في حسبانك سأبلغ الشرطة عنك.

- لا أفهم ماذا الذي تقصده.

- الأمر في منتهى البساطة. سأبلغ الشرطة عنك.

- هل تقصد أن هناك أحدًا ما قام بـ..

- يعرف الجاني تشريح الجسم البشري جيدًا. يتطلب الأمر ضربة دقيقة للغاية لإصابة الرئتين فقط. سيستغرق الأمر يومين أو ثلاثة قبل أن تتمكن من التنفس بشكل طبيعي مرة أخرى. والآن أعطني بياناتك.

أقف مسرعًا، وأفتح الباب، وأعبر الممرات، وأنزل سلمًا حلزونيًا داخليًا يقف في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منتصف العدم. فقط في ساحة انتظار السيارات أستعيد رباطة جأشي قليلًا. لست مهتمًا بالعنف الجسدي من مجهول ضد "إليني"، ولا بالأسلوب المهني المتمثل في ضربة مباشرة على الرئتين، ولا حتى بالتأكيد الشائن للطبيب بأنني الجاني، لا شيء من هذا يعنيني حقًا.

أنا بحاجة إلى الهدوء والتركيز، ربما بهذه الطريقة أستطيع أن أرى بوضوح ذلك الشكل الباهت الذي يتكون ببطء أمامي. أنعزل في إحدى الزوايا، وأحاول جاهدًا أن أتذكر، صوت الطبيب مطبوع بالفعل في مكان ما، أنا على يقين من أنني أعرف نبرة الصوت تلك، لكن من أين؟ أريد أن أسمعه مجددًا، هذه الليلة، أعني في التو والحال، أنا في قمة غضبي؛ لأن بعض الأشياء يجب أن تتم في الوقت المحدد، والوقت المحدد هو الآن، كلنا نعرف ذلك، ونتظاهر بأنه يمكننا تأجيله، لكن يجب أن يحدث ذلك الآن.

أسأل عن اسم الطبيب عند مدخل الطوارئ، لكن على الرغم من إصراري فإن الموظفة الشقراء ترفض بشكل قاطع. أقدم لها عذري الأول والأخير: "أصر الطبيب على أخذ بياناتي، ولهذا غادرت على الفور، ذهبت لإحضار بطاقة هويتي، وعدت كي أعطيه إياها".

تداعب الموظفة الشقراء شعرها بشغف لأكثر من مليون مرة وتطلب مني الانتظار، يبدو أنها تتصل به على الهاتف، بعد دقيقتين من الانتظار تقترح أن أترك اسمي وعنواني. لا. لا، لا يمكن فعل ذلك. إذا طلب الطبيب أن يعرف من أنا، فسيتعين عليه مقابلتي. أؤكد أنها مسألة شرف بالنسبة لي. لست مكترثًا على الإطلاق لمدى الغباء واليأس الذي أظهر عليه وأنا أنطق بهذه الكلمات.

في النهاية يظهر رجلان من أمن المستشفى، ويقوداني إلى مكتب في الطابق الأرضي، ويأمرانني بالجلوس على كرسي. يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، ولكني سأنتظر حتى **المجيء الثاني**. ما زال الشخصان ملتصقين بي بشدة؛ واحد عن يميني والآخر عن يساري.

يُفتح الباب. لا بد أن أتذكر، لا بد، يدخل الطبيب. حتى لو كان متفاجئًا أو منزعجًا من سلوكي الغريب، فهو لا يبين ذلك ألبتة. يقف في مواجهتي كما لو كان يخمن سبب عودتي بالضبط، لكنه لا يفتح فمه على الإطلاق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لقد أحضرت بطاقة الهوية.

- أعطنا اسمك وعنوانك.

"الرجل الخطأ". هذه هي العبارة التي ألقاها أحد رجال الأمن، بينما الطبيب جالس يحدق إليّ وهو غارق في صمته.

- "خريستوس باباديميتراكوبولوس"، مقيم في ألمانيا.

- وأين تقيم في اليونان؟

- في "إيغيو"، شارع "أغيوس أندرياس" رقم 37.

تلمع لأول مرة شرارة صغيرة في عيني الطبيب. هل ينتظر شيئًا ما؟ لكنه لن يتحدث. سينتظر فقط. الرجل الذي أعطيته بياناتي يخبرني أنه بإمكاني الرحيل. يعيد كلامه ثانية، ربما لأنه لا أحد يتحرك. يسود مناخ من التوتر فجأة داخل المكتب، بينما أربع أيادٍ ضخمة تمسك بكتفي.

- هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالًا؟

يوافق الطبيب مجددًا دون أن يفتح فمه. هل بإمكانه أن يخمن كم أتوق إلى أن ينطق حتى ولو بكلمة واحدة؟ لا لا. كيف يمكنه ذلك؟ لم يلتقِني قط. يبقى سؤالي الوحيد هو السؤال الأخير لهذه الليلة، ولا بد أن أسمع صوته بكل تأكيد.

- لماذا تعتقد أنني من ضربها؟ كيف يمكنك أن تكون متأكدًا لهذه الدرجة؟

يمدُّ على الفور إصبع السبابة ليده اليمنى ويشير ناحية وجهي بصمت كما هو الحال منذ البداية.

- ماذا ترى هناك؟

- العنف، سيد "باباديمتراكوبولوس". عيناك تعيش في العنف.

أسرع مرة أخرى إلى موقف السيارات، وأقف بجانب سيارة "إليني" الـ"فيات باندا "برتقالية اللون، لقد بددت كلمات الطبيب الأخيرة كل شكوكي. لا أهتم بالمصطلحات، ولا حيل الذكاء التي يستخدمها. جميعنا يعيش في حالة عنف، وأي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شخص لا يفهم ذلك، إما هو فاقد للوعي، وإما ما زال يؤمن بوجود "سانتا كلوز"، ليس الشخص الذي يقدم الهدايا للأطفال، ولكن شخصًا آخر يحول دون قتلهم. على كل حال، الكذب شيمة سيئة، فهذا الشخص ليس له وجود في عالمنا.

نبرة صوت الطبيب فقط ما كان ذا أهمية بالنسبة لي. منذ بعض الوقت، استأجرت "إيفا ديبليج" الغرفة 107 في فندق "نجمة الميناء" في "هامبورج". جرى تصوير مقطع فيديو هناك. كان البطلان يرتديان قناعين، وكان رجل آخر يعطيهما الأوامر بالاستمرار موجهًا المشهد بأكمله. كان الآمر هو من ظل غير مرئي حتى النهاية.

تعرفت الليلة على صوت الآمر في الغرفة 107. الشبح الذي كان مختفيًا جيدًا حتى الآن. السيد "خريستوس آدم"؛ أستاذ الطب المتخصص في أمراض الرئة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

13

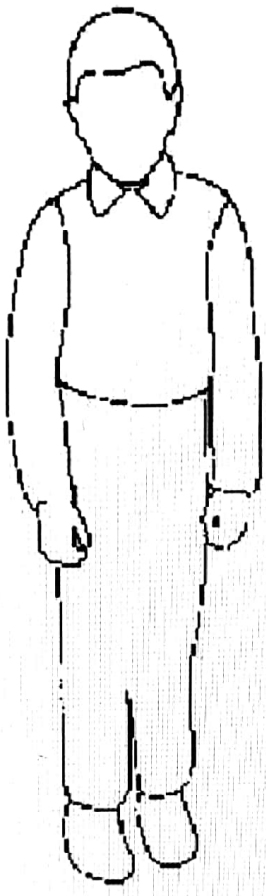

في الخامسة والنصف صباحًا، يخرج "خريستوس آدم" من مدخل العيادة الرئيس. مقعد الحديقة حيث كنت أجلس طوال الثلاث الساعات الماضية مغطى بشجيرة. كلنا نفعل الشيء نفسه؛ أنا برفقة الليل الطويل، الطبيب بأوامره غير المرئية، "إيفا ديبليج" بقناعها الأسود، "أنطون روت" برسالته غير المألوفة. نحن جميعًا نختبئ.

يسير "خريستوس آدم" بثبات نحو ساحة انتظار السيارات التي بدأت تمتلئ الآن. لا أخاطر بالاقتراب منه دون غطاء، لكن سرعان ما يتضح أنه لم يكن هناك داعٍ لذلك، يركب إحدى السيارات المتوقفة، يدير محركها ويتوجه نحو بوابة الخروج. سأحدّد ما إذا كان هناك أي احتمال لمواصلة المراقبة في غضون ثوانٍ قليلة، أركض خارج بوابة العيادة، بينما أراقب بطرف عيني سيارة الطبيب من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نوع "سيتروين" فضية اللون. ينتظر عند إشارات المرور للطريق المتقاطع عموديًا، كي يدخل إلى الطريق الرئيس أمام العيادة. سيمر حتمًا من المكان الذي أكون فيه، ولكن في الاتجاه الآخر لحركة المرور.

تتحول أبواق السائقين إلى معزوفات مطولة من الشباب، أتخيلهم يضغطون على المكابح وهم يصرخون: "يا له من أحمق مجنون!" في أثناء عبوري الطريق بشكل عمودي، وأنا أركض، ثمَّ أقفز من فوق القضيب المعدني الذي يفصل بين حارتي المرور. يبتسم الحظ بكل وضوح إلى يدي المرتفعة. تعبر أربع سيارات بجواري ومن خلفها تظهر سيارة الـ"ستروين". توقفت سيارة أجرة أمامي كانت تمثل غطاء لي.

- هل يمكنك أن تلحق بالسيارة الفضية..

يوافق سائق التاكسي، قد فهم بالفعل، ليس هناك داعٍ إلى الكلام الكثير، لمدة خمس وثلاثين دقيقة ندخن السجائر وأعيننا متعلقة بسيارة الطبيب التي تسير ببطء وسط نهر سيارات المدينة في فترة الصباح. تنتهي الرحلة، أدفع إلى السائق أجرته وأتحقق ما إذا كان أبكم.

- أين نحن الآن؟

- في منطقة "دافني". بالقرب من مستشفى المجانين.

قبل أن أسأل: ما المقصود بهذا؟ كانت سيارة الأجرة قد غادرت. سيارة الـ"ستروين" الفضية متوقفة بالفعل وسائقها يدخل مسرعًا إلى مبنى سكني تحول إلى اللون الرمادي بسبب عوامل الزمن وأبخرة العادم. في المدخل الزجاجي، بجانب أسماء المستأجرين، توجد لوحة فريدة من نوعها.

عيادة أمراض الرئة

"خريستوس آدم"

الطابق الرابع

يتناسب المصعد المُعطَّل تمامًا مع الإهمال السائد في المكان. أصعد السلالم وأنا أطفو وسط رائحة الزيت المقلي والتوابل الطازجة والفواكه المتعفنة. هل حقًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هناك أي مرضى يأتون إلى حظيرة كهذه؟ كل الاحتمالات المتوقعة يتم دحضها حالما أصل إلى الطابق الرابع. يحتل ما لا يقل عن خمسين زائرًا الممر الطويل الضيق للطابق بأكمله. ينتصب طابور من البشر دون حراك، يمتد حتى تصل نهايته عند باب معين. أقف في نهاية الطابور، وأحدق إليهم مذهولًا عندما أسمع ذلك الصوت المبهم لأول مرة. في وسط الصمت يتردد إيقاع لصدى صوت تدفق هواء غير ملموس، كأنها تنهدات قادمة من تحت الأرض. أصغي بانتباه. شيئًا فشيئًا يتضح مصدر الصوت. إنهما الرئتان. بالفعل، هما الرئتان. هؤلاء الناس جميعهم يحملون أجساد مخلوقات ضعيفة تكافح من أجل التنفس.

لماذا تحظى عيادة "خريستوس آدم" بهذه الشعبية الكبيرة؟ إنه طبيب أمراض رئة متميز للغاية، ومتخصص في علاج الأطفال، لا يوجد أفضل منه في البلاد، الجميع يقر بذلك، هذه المعلومة خاصةً يهمس بها لي بأسلوب تآمري الأب الذي يقف أمامي مباشرة في ممر الطابق الرابع. يجلس على الأرض وهو يداعب شعر ابنته البالغة من العمر ثماني سنوات أو تسعًا، والتي اتخذت من حضنه ملجأً لها. ما الوقت المقدر للانتظار؟ "قد يكون حتى فترة بعد الظهيرة، لكن هذا لا يهم على الإطلاق". إن بساطة إجابته تكشف مدى جهلي التام بما هو قائم. في هذا الطابور، لا يوجد سوى آباء وأمهات برفقة أطفالهم. جاؤوا هنا بحثًا عن نفس آخر، قليل من الأكسجين، والجميع يؤمن أن "آدم" بمقدوره أن يمنحهم إياه. مدة الانتظار غير مهمة.

أقف على الرصيف المقابل لمبنى عيادة الطبيب عندما يرن هاتفي الخلوي، أتبادل بعض عبارات الغزل المملة مع السيدة "كينو" حول الاختلافات المناخية بين البلدين، وفي تلك الأثناء بدأت الأمطار تهطل. تثبت السماء أنها تتمتع بحس دعابة نادر، سرعان ما يتبدد الانطباع بأن السيدة "كينو" اتصلت بي لمعرفة أخباري أو تقلبات الأرصاد الجوية في الجنوب.

- "كريس"، لقد وصل إليك ظرف كبير.

- من الذي أحضره؟

- شركة توصيل. اسم المرسل غير مكتوب. فقط اسمك، بالإضافة إلى كلمة "**عاجل**" والتي كُتبت بأحرف كبيرة. ماذا أفعل؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تراودني لبضع ثوانٍ فكرة أن أطلب من السيدة "كينو" فتح الظرف. كَبْحُ الفرامل المفاجئ على الجانب الآخر من الطريق يصرف انتباهي، سيارة "فولكس فاجن باسات" طراز "ستيشن واجن" قديمة لونها زيتي تعتلي رصيف المشاة، يقفز السائق بسرعة ويفتح صندوق السيارة الخلفي على عجل. أعرف هذا الشخص. ما زال الحوار مع السيدة "كينو" معلقًا في وسط كل هذا، وعندما تكرر السؤال الأخير، أطلب منها أن ترسل الظرف إلى 37 شارع "أغيوس أندرياس" في "أيغيو".

- تسليم فوري.

أضيف متأخرًا إلى حد ما قبل أن أنهي المكالمة.

سائق سيارة الـ"فولكس فاجن" هو نفسه "ستيليوس" قائد القارب. أدلينا معًا بإفادتنا لإدارة خفر السواحل، يحاول الآن مسرعًا سحب هيكل ضخم الحجم. لقد دفع الجزء العلوي من جسده داخل السيارة.

- هل تحتاج إلى مساعدة؟

- حالما أعلمك بذلك، ستبدأ على الفور.

يخبرني بهذا، ومن ثمَ يترك شيئًا في يدي ويدخل الآن جاثيًا على ركبتيه إلى صندوق السيارة. الحزام الأحمر الذي أجد نفسي أحمله متصل عند أربع نقاط بهيكل معدني داخل السيارة، من المستحيل رؤية المزيد، فجسد "ستيليوس" لا يترك أي مجال للرؤية.

- اسحبْ! رويدًا رويدًا.

يتضح أن قوة تحمل الحزام أقوى مما كنت أتوقع، بحركات متناسقة، نزحف خطوة بخطوة إلى الخارج فوق الرصيف. أنا، و"ستيليوس"، والهيكل المعدني الضخم نرسم خطًا مستقيمًا سخيفًا. تواصل السيارات إطلاق أبواقها في كل مكان من حولنا. يتساقط المطر، بينما تزيل المدينة عن نفسها الغبار رمادي اللون.

يمسك "ستيليوس" نقالة عليها طفل مربوط بأشرطة، لا يزيد عمره عن اثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا. أخذني جمال الطفل أولًا، كهواء بارد أو شفرة حلاقة حادة، وجهه يذكرنا بالتماثيل المنحوتة بالرخام الأبيض، له تناسق غامض لدرجة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنه يبدو مرعبًا.

- هل ستساعدنا أم ستقف هناك وتحدق إلينا؟

أعود إلى الواقع؛ إلى الرصيف، إلى منطقة "دافني"، يحمل "ستيليوس" أحد طرفي النقالة، بينما الطرف الآخر لا يزال مثبتًا على صندوق السيارة المفتوح. يجب علينا الإسراع. أحمل الطرف الآخر بيدي، يُفتح باب المبنى السكني بركلة قدم، الدرج غير مرئي. خائفون من احتمال تعثرنا. تظل نظرة الطفل هادئة ثابتة في النقطة نفسها. باتجاهي.

لا حاجة إلى الكلمات، ولا إلى الإيماءات. السلسلة البشرية، التي تنتهي عند باب الطبيب، تتنحى جانبًا بصمت وتلقائية فور ظهورنا. ندخل أولًا وقبل الجميع، نحن بالفعل نتدحرج إلى الداخل، أترك مقابض النقالة لـ"خريستوس آدم" ويُغلق الباب خلفي من جديد.

بقدر ما كان الوقت يُطوى سريعًا في رحلة الصعود، فإنه ينصرم الآن بطيئًا ويحوم حول رؤوسنا، نحن جميعًا ننتظر معًا. ماذا؟ مَن؟ الطبيب "خريستوس آدم"؟ أم شخصًا آخر أعلى منه؟ ومع ذلك، فإن الوجوه، التي أعتقد أنها أحاطت بي لحظةً، لا تحمل أدنى علامة شفقة خفية، أو حزن واضح، أو شكوى دائمة.

في طريق العودة يحمل "ستيليوس" النقالة من الأمام، وأنا من الخلف، هذه المرة يبدو الأمر مألوفًا بالنسبة لي، حتى إنني يمكنني تمييز الدرج. ما زالت تمطر في الخارج. يفتح "ستيليوس" صندوق السيارة ويمرر تجاويف النقالة فوق القضبان الحديدية المثبتة في الداخل، لقد صَدِئت القضبان؛ مما جعل المرور فوقها صعبًا، يربط الطفل بحزامين ثم يضع قناع الأكسجين على وجهه، الأسطوانة موجودة على أرضية المقاعد الخلفية.

- كيف انتهى بك الأمر هنا يا "خريستوس"؟ فليس لديك طفل مريض.

- لا، لكني أردت.. أن أسأل الطبيب شيئًا.

- لن تتمكن من سؤاله عن أي شيء. فليس لديه وقت. ستنتهي قائمة الانتظار في وقت متأخر من المساء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **لكن لا بد أن..**

- **سأعطيك رقم هاتفه. يمكنك الاتصال به في الساعة الحادية عشرة والنصف ليلًا.**

- كيف لك أن تعرف متى يمكنني الاتصال به؟

- إنه الوقت الوحيد الذي يمكنه إهداره.

- سؤالي ليس مضيعة للوقت.

- جميع الأسئلة مضيعة للوقت. هل تعرف ما يفعله هذا الرجل؟

- طبيب متخصص في أمراض الرئة.

- لا. لا. أنت لم تفهم. إنه واهب للوقت.

- ماذا؟

- عندما ينفد منك الوقت، قد يتمكن "آدم" من منحك المزيد. أعني القليل من الحياة.

- أي يُعدُّ ساحِرًا؟

- أكثر نفعًا، لأن الساحر يأخذ استراحة، أما هو فلا. هل ستبقى اليوم في أثينا؟

- بما أنني لن أقابل الطبيب.. فمن المحتمل أن أعود إلى "إيغيو".

- إذن اصعد إلى السيارة. سنذهب معًا.

تبدأ سيارة الـ"فولكس فاجن" بالسير ببطء على الطرق المبتلة. استدرت للنظر إلى المقعد الخلفي، لكن "ستيليوس" يومئ لي كي لا أفعل ذلك مرة أخرى، في الوقت نفسه تبدأ المقطوعة الأولى لإحدى الموسيقات الكلاسيكية بالعزف. إنها الطريقة الوحيدة للتحدث دون أن يسمعك أحد. تقريبًا يجب أن أقرأ شفتي "ستيليوس"، الذي ينطق الكلمات بهدوء شديد بين فواصل معزوفات "فيفالدي".

وُلد الطفل قبل خمسة عشر عامًا، ولكن على الأقل كان الزمن رفيقًا به. يؤكد "ستيليوس" أن والدته هي من أورثته ذلك الضياء الذي ترك كل شخص يشاهد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المولود للمرة الأولى عاجزًا عن الكلام. بالطبع، كان للوالدين أسباب مختلفة تمامًا كي يكونا عاجزين عن الكلام. أتخذ قرار بنقله على الفور ووضعه في وحدة طبية خاصة، لم تكن هناك طريقة أخرى آمنة لعلاج فشل الجهاز التنفسي الواضح، فلا أحد يستطيع أن يتنبأ أو يجازف بأي شيء.

النظام الصحي اليوناني، الذي تآكل بسبب الرشوة الممنهجة، وذمر جراء جنون الارتياب العام، بدأ تدريجيًا في استخدام الرضيع كعرض حي مثير للفضول، استمر موكب طاقم التمريض والأساتذة وطلاب الطب في مستشفى جامعة "باتر" في منطقة "ريو" لمدة ستة أشهر، تناقص الاهتمام بعدها بشكل واضح، التشخيص النهائي مزيجٌ من الغموض العلمي المثالي، والدعابات السخيفة، بالإضافة إلى آراء عرَّافة مركز نبوءة "دلفي": "بسبب الخلل الرئوي الحاد، لا يمكن علاج فشل الجهاز التنفسي في المراحل المبكرة إلا باستخدام الطرق التقليدية التي أثبتت جدواها. إن متابعة الحالة تجري وفق معايير طبية بحتة، ومن ثم، فإن متوسط العمر المتوقع لا يمكن تحديده بدقة بأي حال من الأحوال.

بمعنى آخر: تريد إدارة المستشفى إخلاء السرير في النهاية. لذلك يجب على الأم والأب أن يأخذا طفلهما ويختفيا. قد يكونان قادرين على إبقائه على قيد الحياة باستخدام أسطوانة الأكسجين والإيمان بعجائب الطبيعة. بغض النظر عن الدروب الوعرة التي سيتخذها الوالدان في المستقبل، فإن مؤسسة الدولة قد حددت بالفعل موقفها رسميًا: "قُم. احمل سريرك وامشِ".

من البداية، قرر الزوجان تغيير المنزل، انعزلا بعيدًا في مكان ما، حتى لا يراهما أحد ولا يسألهما أحد، لقد كرها بالفعل زيارات الفضوليين الحزينة، وشفقة الأشخاص الأصحاء، لقد عمَّدا ابنهما الوحيد باسم "أدونيس". تُرى هل هو تكريم لأحد الأجداد أم تذكير ساخر بالجمال؟ هناك بعض الأمور لا تحتاج إلى معرفتها. على الرغم من المخاوف المستمرة، يظل "أدونيس" على قيد الحياة لمدة أربعة عشر عامًا. إنه لا يتطور بشكل طبيعي تقريبًا فحسب، بل إنه غالبًا ما يتفوق على أقرانه في القدرة على الإدراك. يعود الفضل في الجزء الأكبر من هذا التطور غير المتوقع إلى شخص واحد، يتحمل تكلفة الرعاية الطبية والتعليم المنزلي للطفل، هذا الشخص المعني يعمل طبيبًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتوقف الحديث فجأة، لا يرغب "ستيليوس" في مواصلة الكلام. ليس من الضروري أن أسمع اسم ذلك الطبيب الذي تكفل بأمر "أدونيس"، بشكل مفاجئ يقترح علي "ستيليوس" أن نمر عبر "إغيو" كي يتركني هناك.

- وكيف ستخرج " أدونيس" من صندوق السيارة بمفردك؟

- بالضبط بالطريقة نفسها التي أدخلته بها.

خجة أنني أريد أن أرى منزله تبدو سخيفة لدرجة أنها تجعله يبتسم، لكنه لا يرفض، ينام الصغير، بينما تستمر الموسيقى الكلاسيكية، أكثر هدوءًا الآن، في العزف بوتيرة أسرع، ما زلنا نتحدث همسًا إلى بعضنا البعض.

- كيف انتهى بك المطاف في الإقامة في شارع "أغيوس أندرياس" في "إيغيو"؟

- ربما عن طريق المصادفة. لقد استأجرت شقة في العمارة رقم 37 المكونة من طابقين.

- في عمارة " بابابوستولوس" المحامي؟

- لا، لا، المحامي يقيم في مكان آخر، في العمارة رقم 37 يعيش شخص آخر؛ يدعى "كوستا"، ووالدته.

- البيت ليس ملكًا لـ"كوستا". فالمبنى ونصف الشارع ملك للألماني.

- ومن يكون الألماني؟

- "نيكولاوس بابابوستولوس"، كان يعيش سنواتٍ عدة في ألمانيا. فقد درس وعمل هناك، عاد إلى "إيغيو" قبل سبع سنواتٍ أو ثمانٍ، كانت الأموال تتدفق، ببساطة كان يشتري كل ما يُمكن شراؤه.

- هل تعرف في أي مدينة في ألمانيا كان يعيش؟

- ليس لديّ أدنى فكرة عن مكان دراسته، لكن لسنوات عديدة امتلك مكتب محاماة في "هامبورج".

بعد عشر دقائق، يومئ لي "ستيليوس" أنه سيغلق الموسيقى، ويوقف السيارة، لقد وصلنا إلى وجهتنا، إلى أرض الصمت، المحادثات البشرية تقلق "أدونيس"،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خاصة عندما يستيقظ، أهبط من السيارة، تحيط أشجار الصنوبر بمنزل حجري وحيد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

14

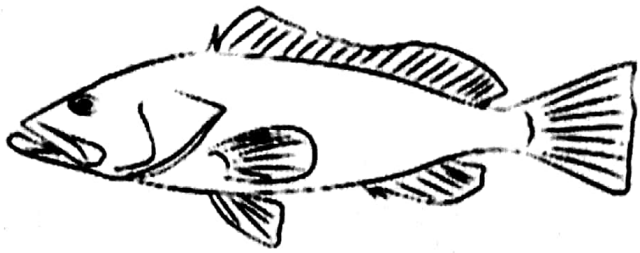

يرن الهاتف أربع عشرة مرة قبل أن يجيب "جورج ويبر". كان يطعم طيوره المغردة؛ ولهذا تأخر في الرد، يستيقظ كل يوم في السادسة صباحًا ويتحدث معها، سنة بعد سنة، تكتسب الأقفاص مساحة أكبر وأكبر في منزله. أي نوع من الأحاديث تُرى؟ هذا الأمر يعلمه فقط المفتش وطيوره.

في السادسة والنصف صباحًا أصوغ له أسئلتي بالترتيب تاركًا مُددًا زمنية صغيرة ومختصرة بينها، كوني أخمن أنه يدوّن بعض الملاحظات.

- سأتصل بك لاحقًا.

يخبرني بحدة، ومن ثمَّ ينهي المكالمة.

يبدأ ضوء الفجر في ملامسة سطح البحر، أجلس تحت أحد الأغطية في فناء منزل "ستيليوس"، بينما الرطوبة تتسلل باستمرار إلى الأقمشة، في السابعة صباحًا، لم تشرق الشمس إشراقًا كاملًا بعد.

كان التعب قد نال منا عندما وصلنا إلى هنا أمس، بحركات حذرة وصامتة، استغرقت عملية نقل الطفل النائم نحو خمس عشرة دقيقة. وضع "ستيليوس" الأغطية فوقه، وتسللنا على أطراف أصابعنا خارج الغرفة، في وقت لاحق من المساء، في وسط سكون الظلام، بدت غابة الصنوبر كحدود رخوة لبعض الأجسام المختلفة. لقد نفدت سجائري. سألته عما إذا كان يدخن.

- ممنوع منعًا باتًا.

أجابني بينما نظراته ثابتة على الاتجاه المعاكس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما الذي كان يتطلع إليه؟ إلى البحر بكل تأكيد.

ارتميت دون تفكير على الأريكة التي أشار إليها "ستيليوس". غفوتُ على الفور، وعندما استيقظت، كان لديّ شعور بأن غفوتي لم تستمر سوى بضع دقائق. في الواقع كانت الساعة الخامسة قبل الفجر، استيقظت جراء لكزة من "ستيليوس". لقد كان مرتديًا بالفعل ملابسه الصفراء. ينتظر حتى أعتاد ظلال المنزل، ثم طلب مني الاعتناء "بأدونيس". لم أكن أعرف ما الذي يعنيه ذلك، لكنه كان يعلم.

- عليك الدخول إلى غرفة النوم كل ربع ساعة والاستماع إلى أنفاسه، عليك التحقق من مدى ارتفاع الصوت، إذا حدث خطأ ما.. فستعرف ذلك. فالصوت يرتفع إلى عشرة أضعاف ويصبح كالشخير.

تبع ذلك تعليمات بسيطة حول كيفية تشغيل أجهزة الأكسجين المثبتة في كل زاوية تقريبًا، قبل أن أتمكن من طرح سؤالي الأول، كان "ستيليوس" قد رحل، إلى أين؟

- أنا ذاهب إلى المنزل.

تمتم قبل أن يختفي.

استغرق الأمر مني بعض الوقت لأدرك أنه يعني البحر. ينام الطفل الآن في الغرفة الخلفية بهدوء وثبات، في الثامنة أنحني مرة أخرى فوق الجسد المستلقي على ظهره. وإلا فكيف يمكنني التحقق من أنه يتنفس تنفسًا طبيعيًا؟ كفُّه تلامس كفي، لقد استيقظ، تمتد يده اليمنى بثبات نحو جزء مظلم من الغرفة، أفتح الباب قليلًا، في النهاية أستطيع أن أرى صف الكتب والأرفف الخشبية.

أعود إلى الفراش ممسكًا بقصة *"ماوكلي"*، و*"الأمير الصغير"*. يلامس "أدونيس" قصة الأمير بأطراف أصابعه. كنت لأفضلَ الشيء نفسه، يطوي وسادته إلى نصفين، ويسند ظهره إليها، ويجلس على السرير، حان دوري الآن.

مرت سنوات منذ أن قرأت أي شيء باليونانية. صوتي غير متناغم، يتلعثم باستمرار ويفقد إحساسه بالإيقاع، ومع ذلك، ليس فقط البعد عن اللغة أو ضوء الصباح الخافت الذي يدخل من الباب المفتوح هو السبب في ذلك، هناك سبب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آخر. فبينما يتشبث هذا المستمع الصامت بشفتي على هذا النحو البريء، أشعر بأنه يتحول إلى شاهد على تاريخ الكتاب، على ماضي أنا نفسي، على حاضرنا جميعًا، شاهد على الحياة، أو ربما على غيابها.

هل حقًا قرأت الكتاب كاملًا؟ هل كانت قصة "*الأمير الصغير*" قصيرة إلى هذا الحد، أم أنني كنت أحمل إصدارًا خاصًا للأطفال؟ بعد الجملة الأخيرة من النص، يتلألأ وجه "أدونيس" بابتسامة عابرة، يفتح الوسادة، ويستلقي في وضعيته السابقة ويغفو.

في التاسعة والنصف، يعود "ستيليوس" أخيرًا. أتوقع أن يسأل عن الطفل، لكن لا شيء من هذا القبيل يحدث، يسيطر انفعال عصبي عليه.

- هل تأكل سمك الهامور؟

- ما هذا؟

- ليس لديك أدنى فكرة عن الأسماك.

- هل أمسكت سمك هامور؟

- لم أمسكه، بل ضربته.

- وما الفرق بينهما؟

- الفرق كبير، إنه ليس دجاجة للإمساك به، إذا كنت تريد الوصول إلى القاع، فعليك أن تغوص.

يضع قهوته جانبًا، ويقف، ويومئ لي كي ألحق به، يصعب تقدير المسافة؛ لأننا نقطع أشجار الصنوبر الكثيفة، يظهر قاربه أمامنا، راسيًا في ميناء طبيعي صغير. يسحب حبل القارب ومن ثمّ نقفز إليه من حافة الرصيف الخشبي، يشير مباشرة إلى سمكة الهامور. تستلقي السمكة على أرضية القارب، تبدو كأنها تستريح من رحلة ما إلى أعماق الزمن، إنها أكبر بكثير مما كنت أتخيل.

- اثنا عشر كيلوجرامًا. يزن "أدونيس" أربعة وعشرين كيلوجرامًا. سمكتان من الحجم نفسه. هل تفهم ذلك؟

- ما الذي يجب أن أفهمه؟

- على هذا النحو يكون القصاص، الانتقام، أهبط بأسطوانات الأكسجين وأضرب السمك بالرمح. معظمه يكون على قيد الحياة عندما أحضره إلى السطح، عليك أن تراقبه وهو يتلوّى من آلام الموت، بينما يحاول التنفس خارج الماء. ما الذي حدث عندما حان دوري؟ انتهى بي الأمر بإنجاب طفل لا يمكنه التنفس دون استنشاق الأكسجين من الأسطوانة نفسها التي أستخدمها للغوص.

- ما هذا الذي تهذي به الآن؟ مرض الطفل الصغير لا علاقة له برحلات غوصك. لقد ثبت علميًا أن الصفات التي يكتسبها الإنسان لا..

- حسنًا، لا داعي لمحاضرات المنطق الآن. هل أنت غبي، أم تعتقد أنني أنا الغبي؟ فأنا لا أقول لك بما أنني تعلمت الشطرنج، فإن ابني يعرف ذلك أيضًا تلقائيًا. أقول لك إن العدالة غير منصفة.

- أي عدالة؟

- تلك التي تنال منك قبل أن تأخذ حذرك، دون إرجاع ما أخذت منك أو على الأقل تقديم اعتذار عن ذلك. فأنا أقتل سمكة ذات خيشوم، بما أنها قد وهبتني طفلًا بلا رئتين، من المستحيل أن يقف على قدميه بعد الآن.

- أليس باستطاعته المشي؟

- لن يحدث وهو يعاني نوباته، إنه شبه مشلول، ودون قناع أكسجين، لن يتبقى لديه سوى بضع دقائق.

- متى تأتيه هذه النوبات؟

- ليس هناك وقت محدد، ومع ذلك، في كثير من الأحيان.

- زراعة أعضاء؟

- أتريد احتمالات؟ واحد في المليون. حتى إذا عُثر على متبرع، فسيتبع ذلك سلسلة كاملة من المشكلات. قائمة لا نهاية لها، وبالطبع أموال طائلة. هل تعرف كم من المال أملك اليوم؟

يشير إلى الهامور الذي يلمع بشكل غريب تحت انعكاسات الشمس التي ظهرت للتو، أعتقد أن هذه الكرة الصفراء تخرج في بعض الأحيان لغرض واحد؛ هو إضاءة شيء معين. ما هذا الشيء؟ اليوم هو سمك الهامور.

بالنسبة إلى بعض الناس، يتضح المستقبل مبكرًا جدًا، يبدو كأنه وحمة ولادة. قد تنبأ بذلك في ظُهر أول يوم غطس فيه. لم يكن قد بلغ الثانية عشرة بعد. يشعر في البحر بما يشعر به الآخرون داخل منازلهم، في التاسعة عشرة من عمره، كان يُعد بالفعل أحد الغواصين المحترفين، على الرغم من أن والده كان يدير متجرًا للمعدات مزدحمًا بالزبائن في "إيغيو"، فإن "ستيليوس" كان مهتمًا فقط بالغوص. العمل في الأعماق؛ حطام السفن القديمة والجديدة، ضخ النفط، الحوادث المتكررة، قياسات الأعطال، عمليات الإنقاذ، انتشال الجثث. الأمر يشبه رقصة "تانجو" برفقة المخاطر، وقاعدة الدفع بسيطة: كلما قلَّ عدد أولئك الذين يوافقون على الغوص، ارتفع أجر الباقين. كلما ازددت تعمقًا نحو الأسفل، تداعبك بإصرار احتمالية البقاء هناك. الخليج الفارسي، البحر الأسود، اليابان، خليج البلطيق، فنزويلا، إندونيسيا، ناميبيا، خليج المكسيك. أموال جيدة، الكثير من الرحلات، لا وجود لأدنى تململ. ولكن عندما عاد إلى "إيغيو"، التقى "أماليا". تزوجا في غضون خمسة عشر يومًا و..

عند هذه النقطة ينقطع السرد، يتوجه "ستيليوس" إلى غرفة الطفل. بينما أفتح الباب كي أخرج. فقد حان وقت الظهيرة الآن ويجب أن أرحل. يبدو المنزل خلفي كأنه وهم باهت الصورة. أسير على طول طريق قطار مهجور. ممرات ترابية تحل مكان الأسفلت المكسور. الكثير من الأشجار في كل مكان. أعثر على محطة الحافلات. بعد مرور بعض الوقت تصول إحدى الحافلات. أجلس في الصف الأخير من المقاعد عندما بدأ هاتفي الخلوي في الرنين، تومض الشاشة معلنة عن اتصال من "جورج ويبر"؛ مفتش مدينة "فريدريش شتات"، يسعل قبل أن يبدأ حديثه.

تخرج "نيكولاوس بابابوستولوس" بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف في كلية "هايدلبيرج" للقانون عام 1967. وقد سنحت له منحتان متتاليتان من الدولة الألمانية بإجراء دراسات عليا في القانون الجنائي وعلم الجريمة، أداؤه ممتاز، والوظيفة الجامعية مضمونة بالفعل، ومع ذلك، فقد قرر الانتقال إلى ساحة

المحاماة الزاخرة. في عام 1984 يبدأ التعاون بينه وبين "مانفريد وينكل"، أحد أشهر علماء الجريمة في "هامبورج"، توظف الشركة التي أسساها العديد من المحامين الذين ظلوا تحت إشراف الرجلين، بعد رحلة من النجاحات التي لا يمكن إنكارها، يترك "نيكولاوس بابابوستولوس" فجأة منصبه الشهير وألمانيا في عام 2007. لقد حان وقت العودة إلى مسقط رأسه في اليونان؛ في "إغيو". مكتب المحاماة في "هامبورج" يظل تحت سيطرة "مانفريد وينكل" وحده حتى وفاته في عام 2013. لم يتزوج "نيكولاوس بابابوستولوس" مطلقًا، ولا يبدو - على الأقل وفقًا لهذا البحث الموجز - أنه قد أنجب أطفالًا.

يوقف "ويبر" سرده عبر الهاتف، مما يمنحني الوقت لاستيعاب الحقائق، للمفتش عادتان مميزتان نادرًا ما يجمع أحد بينهما: فهو يساعد دائمًا ولا يسأل أبدًا عن السبب.

الآن يقاطع محاولتي لشكره ويسأل عما إذا كنت مستعدًا لسماع المزيد، لقد ارتكبت خطأ، الوقت الذي تركه لم يكن بهدف منحي فرصة للاستيعاب، بل للتحضير من جانبه، لهذا يسألني مجددًا:

- هل أنت مستعد؟

مهما أحاول التأخير، فلن يأتي ذلك بنتيجة مغايرة. كالعادة تأتي عبارته التالية على حين غرة:

- في عام 2008 تُعيَّن امرأة سكرتيرةً في مكتب محاماة "وينكل.. بابابوستولوس". اسمها "إيفا ديبليج".

لقد عدتُ إلى المنزل، على الرغم من إصراري المُلح على الهاتف، يجيب محامٍ شاب على الطرف الآخر من الهاتف مكررًا الشيء نفسه: لن يتمكن السيد "نيكولاوس بابابوستولوس" من مقابلتي قبل العاشرة مساءً، إذ لا يوجد موعد شاغر قبل تلك الساعة.

بالإضافة إلى السجائر، هناك أيضًا "أجاممنون". لو كانت هناك ترجمة ألمانية كنت سأتمكن من فهم "إسخيليوس" بصورة أكبر، لكن في الوقت نفسه سأفقد صدى بعض الكلمات اليونانية التي حافظت على جذورها القديمة حتى يومنا هذا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الكتاب الذي أعطاني إياه "بابابوستولوس"، تجري مقاربة النص الأصلي صفحة بصفحة لترجمته إلى اللغة اليونانية الحديثة.

في السابعة والنصف، صوت طرقات على الباب تقطع القراءة. يبدو أنني أصعد زاحفًا من إحدى الآبار، لذا فإن خروجي من زمن استطاع أن يسافر بلا توقف لمدة ألفين ونصف عام يبدو بطيئًا للغاية.

يقف على درج المنزل شخص ذو شعر طويل، يعمل في شركة توصيل، استغرق الأمر خمس دقائق على الأقل قبل أن أقنعه أن المستلم "كريس باباس"، المكتوب على الظرف، هو نفسه "خريستوس باباديميتراكوبولوس" كما هو مدون في جواز سفري. السيدة "كينو" معتادةٌ على لقبي المهني، ولم تفكر في تدوين بياناتي الأصلية.

- لماذا غيرتَ اسمك؟

- لأنه لا يوجد ألماني تمكن من نطق "باباديميتراكوبولوس" حتى الآن.

يبتسم راضيًا عن التوضيح، ثم يسلمني الملف أخيرًا ويغادر. ما إن أفتحه، تنتظرني مفاجأة أخرى؛ هي الأكثر غموضًا على الإطلاق. لا بد لي من رؤية "نيكولاوس بابابوستولوس".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

15

في النهاية، ما الذي تصفه أسطورة "أجاممنون"؟ سرد قصة انتقام، طال انتظاره، بدم بارد، لا، ليس هذا فحسب، ليس هذا من الأساس. لماذا قتلته "كليتمنسترا"؟ هل لأنه عاد من الحملة في أحضان امرأة جديدة؟ لكنها كانت ستسامحه على ذلك في نهاية المطاف، فقد وقعت هي الأخرى بالفعل في عشق رجل آخر. "أجاممنون" ليس حلقة وصل يجب أن تختفي ليحل محلها واحدة أخرى. تدور الأسطورة حول شيء مختلف؛ حول صراع قديم، يتجاوز حدود المعرفة تقريبًا.

لقد كُشف الرداء عن الملك المعظَّم قبل سنوات عديدة، في "أوليس". هناك قرر ما هو في صالحه، هناك خلع قناعه، هناك حيث رسم مستقبله. حينها أتيحت له الفرصة لإنقاذ "إيفيجينيا". إذا لم يكن هذا قرار حياةٍ، فماذا عساه أن يكون؟ كان باستطاعته إنقاذ ابنته من الموت. لكن "أجاممنون" اختار العرش، اختار السلطة التي يُحسد عليها، اختار القوة المطلقة، أمام هؤلاء الجنود العطشى للدماء، من هذا الشخص الوحيد الذي تجرأ على الوقوف إلى جانب قربان الإله؟ من الذي جلس بجانب الطفلة الراكعة في مواجهة الحشد الذي يزأر بغضب؟ لقد كانت "كليتمنسترا"، حينها قُيم الأمر برمته، عندها تقرر كل شيء، دافعت "كليتمنسترا" عن الحياة، بينما تخلى عنها "أجاممنون"، إنها لن تغفر له اختيارًا مثل هذا، فحتى لو أرادت، لم تكن لتستطيع ذلك.

انتظرت بفارغ الصبر عودة "أجاممنون" من حملته. فقد كان يتحتم عليها أن تأخذ بثأرها بيديها، كانت ستنتظره مهما يلزم الأمر، لآلاف السنين، حتى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفاد الوقت. بعض الحسابات لا يمكن تصفيتها إلا بالموت فقط. عندما تقتله "كليتمنسترا" في نهاية المطاف، فإنها في الواقع لا تسبب له بذلك جرحًا. فالجرح موجود هناك بالفعل ويتنامى. الجرح هو "أجاممنون" نفسه، إنه انعكاس للجنس البشري بأكمله، الذي يفضل الموت على الخلاص، تذبحه "كليتمنسترا" فقط كي تخدش ذلك الجرح الأزلي، الذي ما إن يظهر، فإنه مقدر له أن يستمر في النزيف، ذلك الجرح يوجد داخلنا وسنحمله جميعًا حتى النهاية.

في تمام العاشرة مساءً، يستقبلني في غرفة المعيشة في منزله. كنت أفضل مكتب المحاماة، لكن لست أنا من يختار، لقد مرت بالفعل قرابة الساعة، وما زلت أواجه صعوبة في تعوُّدِ هذا المكان. تبدو غرفة المعيشة كردهة يعمها الفوضى أكثر من كونها غرفة في منزل. لم يعد "نيكولاوس بابابوستولوس" محاميًا، على الأقل بالنسبة لي. من المؤكد أنه كان سيلعب هذا الدور ببراعة في الماضي، ضد أناسٍ كثيرين آخرين. ومع ذلك، فهو لم يقابلني الليلة لإجراء أي حوار أو لحل بعض مشكلاتي كما يزعم.

لماذا لم يخبرني بأن المبنى السكني الذي أقطن فيه في "أجيوس أندرياس" ملك له؟ لماذا التزم الصمت بشأن حياته المهنية في ألمانيا فترةً طويلة؟ كيف يُعقل أنه لم يذكر لي على الأقل أنه عاش وعمل عقودًا في "هامبورج"، أي في المدينة نفسها كما هو الحال بالنسبة لي؟ ما علاقته بالمتوفاة "إيفا ديبليج"؟ سكرتيرته سنواتٍ طويلة في شركة المحاماة الخاصة به في ألمانيا، والتي يُصادف أنها غرقت على بُعد بضعة كيلومترات من مسقط رأسه في اليونان؟

تبقى دائمًا تساؤلاتي دون إجابة، رويدًا رويدًا يكُّف إدراكي لمدى ضعفي عن وضعي في حرج، يقف "بابابوستولوس" لبعض الوقت أمام النافذة الزجاجية، أتطلع إلى ظهره الثابت، بينما يتحدث بحماسة عن أسطورة "أتريوس". تنهمر الكلمات منه كالمطر، من المستحيل أن أتذكرها كلها.

في بعض الأحيان أعتقد أنه ليس الرجل العجوز نفسه الذي التقيته للمرة الأولى في مكتبه، منذ ليلة عرض مسرحية "أجاممنون"، تحول إلى ظِلٍّ مجهول، نابع من أحد الأعمال التراجيدية، أتركه في مناجاته بينما أحتسي الويسكي الخاص بي، حتى الطفل الصغير سيعي أنه لا توجد طريقة للتأثير في ممثل في حالة هذيان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفجأة، كما لو أن حديثه انقطع بفعل قوة خارجية، يستدير ليكون في مواجهتي، أينما قد أبحر بخياله، فها هو يعود إلى حيث نكون؛ في غرفة المعيشة الضخمة.

- من الذي قتل "إيفا ديبليج" سيد "باباديميتراكوبولوس"؟

- ليس لديَّ أدنى فكرة، لكن حتى لو كنت أعرف، فلماذا يجب أن أخبرك؟

- لأنني حينها سأجيب بكل سرور عن جميع أسئلتك.

- هذا يعني أنك تعمدت إخفاء الكثير من الأشياء عني.

- سيد "باباديميتراكوبولوس"، في العمل الذي تؤديه ستكون قد أدركت بالفعل مبدأ القاعدة الذهبية، التي تقول: إنه لا ينبغي أبدًا أن نعطي حقائق أكثر من تلك التي يكون الشخص الآخر قادرًا على تقبلها.

- إذن أنت تدعي أن الجهل يحميني؟

- دعني أقرر أنا هذا، لا تكن في عجلة من أمرك.

- حسنًا، حان وقت الرحيل إذن.

- إلى هذه الدرجة مناقشتنا حول الدراما القديمة تسبب لك شعورًا بالملل؟

- نحن لا نتناقش، فأنت تتكلم، وأنا أستمع، لا، أنا لا أجد ذلك مفاجئًا على الإطلاق. لكنَّ هناك شيئًا أكثر إثارة للاهتمام بالنسبة لي.. خاصة الليلة.

- هل لديك موعد؟

- شيء من هذا القبيل.

- مع فتاة على ما أظن؟ فالنساء اليونانيات جميلات..

- لا، لا، لديَّ موعد مع ظرف لم يُفتح بعد.

ورقتي الأخيرة. ربما الوحيدة التي أتيحت لي حتى الآن، أقف وأسحب الظرف من الحافظة الورقية التي أحكم قبضتي عليها منذ دخولي الغرفة. يقترب خطوتين مني، يحاول أن يرى. لكن الضوء الخافت الذي ينبعث من المصباح الأرضي لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يسمح له بذلك. حان الوقت كي أكون أيضًا طرفًا في اللعبة.

- هذا الظرف سيد "بابابوستولوس"، مكتوب عليه اسمك، وكان من الطبيعي أن أسلمك إياه.

- إذن سأنتظر منك القيام بذلك.

- لا تكن أنت أيضًا في عجلة من أمرك.

أصل إلى الباب، اللعبة المجهولة التي تعادلنا فيها ما زالت في أيدينا، ما زال هناك خيار الاحتفاظ بالظرف والرحيل، لكن عندها ستهرب اللعبة مثل أي حيوان بري، لن يتمكن أي منا من ترويضه، سيكون حرًا ومستعدًا لافتراس أي شيء في طريقه، على استعداد لتمزيقنا نحن.

- سيد "باباديميتراكوبولوس"، أخبرني عن قضيتك الآن، تلك التي تؤرقك.

- الطرد الذي وصل إلى مكتبي في "هامبورج" كان يحتوي على ظرفين، أحدهما داخل الآخر. الأول حمل اسمي، وأرسلوه إليَ في اليونان، لقد تسلمته منذ فترة وجيزة، وعندما فتحته وجدت ملاحظة قصيرة يطلب مني فيها أحد تسليم الظرف الثاني إليك، ها هو الظرف، هنا.. أحمله بين يدي وما زال مغلقًا حتى اللحظة.

- إذن فلماذا ترفض أن تسلمني إياه؟

- لأن مرسل الطرد قد مات منذ بضعة أيام.

- مَن المرسل؟

- كان يُدعى "أنطون روت". لا أعرف كيف ولا من أين.. لكنني على يقين أنك تعرفه.

يتقدم "بابابوستولوس" خطوتين إضافيتين نحوي. يمد يده، لم يعد قادرًا على كبح نفسه. للحظة، أكون على يقين من أنه يستعد لمقاتلتي. أضم الظرف إلى صدري بدافع الغريزة، يخرج صوته الآن متغيرًا، غريبًا تمامًا.

- أعطني ما هو من حقي.

- سيد "بابابوستولوس"، في العمل الذي تؤديه، ستكون قد أدركت بالفعل مبدأ

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

القاعدة الذهبية: لا يمكننا أبدًا الحصول على شيء دون إعطاء شيء آخر في المقابل.

- لكن ما الذي تريده مني؟

- الحقيقة.

- كلا، أنت مخطئ، أنت لا تبحث عن الحقيقة، أعطني الظرف وأخبرني بالمبلغ المطلوب، أعلى أجر تريده مقابل ما أديته بالفعل، في الصباح سأودع الأموال في حسابك، وستنام غدًا في أمان في مكتبك في "هامبورج". صدقني، لن ترغب في التورط في هذه القصة بعد الآن.

- دعني أقرر أنا هذا.

يتحرك بعيدًا عني، وعندما يقترب من المكتبة، بدا كأنه ينزلق أكثر فأكثر إلى أرض مجهولة. فقد أصبح بطيئًا في الكلام. من الواضح أنه اتخذ قراره. وأنا؟ لماذا لا أقبل عرضه؟ ربما يجب عليّ فقط أن آخذ بنصيحته وأختفي. ليس لديّ أي عملاء أو التزامات. إذن لماذا أرغب في البقاء؟ هل أنا أتحول إلى وحش فضولي فحسب؟ لا، لا، الأمر لا يتعلق بالفضول. إذن ما الذي يجذبني نحو مركز الحدث؟ لا أستطيع تخيل ذلك.

- هل ذهبت وراء الشمس يومًا ما سيد "باباس"؟

- مرات عديدة.

- ليس مجازيًا، بل حرفيًا، إذا لم تستمع إلى نصيحتي، فستذهب وراء الشمس.

- أقبل بالمخاطرة.

- ليس باستطاعتك قبول أي شيء، فأنت جاهل وساذج، لكن بما أنك تصر على ذلك، سأقدم لك خدمة، سوف تعطيني الظرف، وفي المقابل سأخبرك قصة حقيقية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

16

منذ البداية كان هناك رأيان متعارضان، لا أحد يستطيع أن يحسب عدد مؤيدي الرأي الأول وعدد مؤيدي الثاني، ولا إلى أيهما سيميل دعم الأغلبية الهش في نهاية المطاف. بعد إعلان النتائج مباشرة، ينفجر الحشد في تصفيق عفوي، أصبحت المناسبات لإقامة أي نوع من الاحتفال نادرة في الآونة الأخيرة.

فازت "نيفيلي" في مسابقة الجمال بفارق ضئيل؛ بأربعة أصوات لصالحها. كان هناك سبعة حكام إجماليًا، وقد صوت الثلاثة الباقون لصالح "ماريا". لم يكن هناك أدنى ملامح للضجر يظهر على وجه الفتاتين عند إعلان النتيجة النهائية للجنة التحكيم، لقد كانتا أقرب للأختين من كونهما صديقتين، ولم تأخذا مسابقات ملكات الجمال المحلية على محمل الجد، لقد سخرتا من تلك العناوين المضحكة والهتافات المفعمة بالحيوية في احتفال 22 أغسطس 1939. لقد تم تسميتهما للتو "بأجمل فتاتين في المدينة". التقط المصور صورةً لهما على المنصة الخشبية التي صُنعت لهذا الغرض، وهما متعانقتان ومبتسمتان، كأنهما تعيشان فرحة لا توصف.

كُتب لهذه الصورة البقاء حتى يومنا هذا، عندما تلمسها بيديك، تشعر كأنك متصل بشيء مجهول، ليس جمالهما فقط هو ما تمكنت الورقة نصف التالفة من الحفاظ عليه وإبقائه على قيد الحياة، عندما تواجهان الكاميرا، يمكنك أن ترى في أعينهما لمحة من الفرح المفرط، نوعًا من الإنذار لما هو قادم، لكن ربما أكون مخطئًا، ربما أتخيل أشياء لا وجود لها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على أي حال، فإن قصة الصورة نفسها تنقل شيئًا مجهولًا، لا أعني الورقة التي تغيّر لونها إلى الأصفر الآن، لكن أعني واقعة تصوير يوم المسابقة نفسها، يقول البعض إن الصور تحفظ اللحظات من النسيان، الوجوه من الدمار. في حالة الفتاتين حدث العكس تمامًا، فالصورة هي من حكمت بالدمار. على من؟ تطول قائمة المحكوم عليهم.

مع الدخول في فترة تقلبات حرب عام 1944، شعر الجميع بالتدهور المتسارع للوضع، كما أن التاريخ الإنساني لآلاف السنين ينقل رسائل متطابقة. من يدرك أنه سيُهزم يبدأ بالتحول يومًا بعد يوم. تظهر الإشارات أولًا في الداخل وبعد ذلك تندلع فجأة خارجيًا، كشعلة نارية. يجب على الخاسر أن يترك وراءه الأرض محروقة، فالحادثة التي وقعت في مدينة "كالافريتا" كانت إيذانًا ببدء عصر الإرهاب الذي لن ينتهي.

بعد معركة قصيرة في 17 أكتوبر 1943، نجح المتمردون اليونانيون، بشكل غير متوقع نوعًا ما، في أسر سبعة وسبعين جنديًا ألمانيًا، تبع ذلك مفاوضات بين الطرفين المتعارضين في قرية "سكيبستو"، في البداية طالب المتمردون بالإفراج عن رفقائهم الأسرى وسجن الشيوعيين في المقابل، لكن الألمان اعترضوا بشدة، خاصة على طلبهم الأخير، ثم تصاعد الموقف بعد أن هدد المتمردون أعضاء الوفد، بسبب غضبهم من سلوك الألمان المتعجرف، ومن ثم، فشلت محاولة الصلح بين الجانبين مرة أخرى.

في 29 نوفمبر 1943، أرسل المتمردون اقتراحهم النهائي، مرفقًا بقائمة بها أسماء السجناء اليونانيين الذين سيُطلق سراحهم من مختلف معسكرات الاعتقال الألمانية، من المحتمل أن يكون اسم الشيوعي المعروف "نيكوس زاكرياديس"، الذي كان مسجونًا في معسكر "داخاو"، مدرجًا أيضًا في هذه القائمة، في الوقت نفسه، طالب المتمردون بتطبيق النسبة المعروفة آنذاك؛ أي خمسين سجينًا يونانيًا في مقابل سجين ألماني واحد. وبناء عليه سيجري الآن تطبيق عكس القاعدة التي وضعها المحتلون أنفسهم لعمليات الانتقام الجماعية. فمنذ بداية الاحتلال الألماني كان يُطبق هذا المقياس غير المتكافئ، أي إنه يجب قتل خمسين يونانيًا مقابل كل ألماني ميت. طبعًا كان فشل المفاوضات الأخيرة حتميًا ونهائيًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعطى الجنرال "كارل فون لو سوير"، قائد فرقة إنقاذ 117، الأمر لقواته: "يجب تحرير السجناء الألمان بأي ثمن"، فُتحت أبواب فيضان العنف على مصراعيها. كان الدم يغلي، ولم يعد بإمكان أي شخص الانتظار، ومتى كان ذلك ممكنًا؟

في 7 ديسمبر 1943، أعدم المتمردون سبعة وسبعين سجينًا ألمانيًا، كردٌ على ذلك، أمر "كارل فون لو سوير" قواته بالانتقام لاستعادة شرف قوات "الفيرماخت" الذي لُطخ. عُهد أخيرًا بعملية "كالافريتا" - كما هو متعارف عليها الآن - إلى الرائد "هانز إبيرسبيرجر". أعدمت القوات الألمانية، في أثناء توجهها إلى "كالافريتا"، مائة وثلاثة وأربعين رجلًا من القرى المجاورة، وأضرمت النيران في نحو ثمانمائة وخمسين منزلًا بعد نهبها أولًا.

في صباح يوم 13 ديسمبر 1943 ساد لون رمادي غامق، وانتشر ضباب كثيف فوق المنطقة. كما لو كان إشارة منه لما كان على وشك الحدوث، عمل المناخ على الحد من الرؤية البشرية، احتجز الجنود الألمان النساء والأطفال دون سن الرابعة عشرة داخل مدرسة "كالافريتا"، ومن ثمَّ أخرجوا الرجال من القرية، لم يضيعوا أي وقت، على الفور، أعدموا الرجال بطلقات رصاص نارية متواصلة من البنادق الآلية. سقط نحو ألف وأربعمائة قتيل، كان هناك ثقب إضافي في جماجم غالبيتهم؛ طلقة مجانية، أو قبلة الموت إن شئت، يعتمد هذا على من يصف الحدث.

بطريقة ما لا يمكن تفسيرها، والتي تناسب حكاية خرافية أكثر من كونها قصة إعدام جماعي، تمكنت النساء والأطفال من الفرار من المدرسة المغلقة، بعد بضع دقائق، أضرمت النيران فيها، تقول الأسطورة إن جنديًا ألمانيًا لم يُذكر اسمه (دليل آخر على أن الأبطال ليس لديهم أسماء) فتح الأبواب وسمح لهم بالفرار.

يذكر بعض المؤرخين أن الإشكال في التواصل اللغوي بين الجيش الألماني والمتمردين اليونانيين كان سببًا آخر محتملًا من أسباب تلك الفاجعة، ربما استطاع الملازم الألماني "فرانز جوبيه" الذي كان يتحدث اللغة اليونانية، وهو من قاد المفاوضات ذات الصلة، كتابة مقالة نعي قصيرة بعنوان "ضائعون في الترجمة". لكن على الأرجح، يتطلب إعدام - بدم بارد - ألف وأربعمائة مدني شيئًا أكثر من ذلك، شيئًا أعمق من قصور بسيط في الترجمة وحسب.

كانت "نيفيلي" وقتها في الثالثة والعشرين من عمرها، ومتزوجة بـ"ذيميتريس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بابابوستولوس". في 18 ديسمبر 1943، رُزقا طفلهما الأول والوحيد، من المفترض أن يكونا سعيدين، لكن ذلك لم يكن من الأمور البديهية، بسبب الوضع القائم، كان الأطفال يتعرضون لمخاطر جسيمة، لقد عاشوا في عصر الواقع المعكوس، إذ اعتاد الناس أن يقلقوا بشأن كل المواليد ويفرحوا من أجل وفيات بعينها.

ظلت "ماريا" عزباء، كان الحي على علم أن "أندرياس" طلب الزواج بها، لكنها لم تقبل، تحدث السكان همسًا أنها ما زالت تنعى شقيقها الصغير؛ "سوتيريس"، الذي توفي قبل بضعة أشهر عن عمر يناهز الثانية عشرة عامًا بسبب مرض التيتانوس، الأدوية والحقن كانت تُعد من الكماليات، لأن النضال اليومي يجب أن ينصب لأجل لقمة العيش، من الممكن طبعًا أن حدادها هذا كان مجرد عذر، وأنها لم تكن تريد "أندرياس" زوجًا لها، كيف يمكننا أن نعرف؟ تحولت "ماريا" الآن إلى خيال هزيل، تتشح بالسواد على الدوام، وتتحدث قليلًا، وتبقى حبيسة المنزل طوال الوقت، لم تكن هذه الإقامة الجبرية هي قرارها الوحيد، فقد كانت هناك إرشادات عملية واضحة لفتيات المدينة، كن تحت تهديد مستمر، ولم يُسمح لهن تحت أي ظرف من الظروف بالتجول في الشوارع دون داعٍ.

افتتح الألمان في أوائل عام 1944 "بيت الحقيقة"، كانت هناك "بيوت" أخرى من هذا القبيل في مدن متعددة، لكن بمسميات مختلفة، لا أحد يتذكر التاريخ الدقيق لافتتاح ذلك "البيت" في "إيغيو"، فمن الأفضل نسيان بعض الذكريات، يقع المبنى المكون من طابقين فوق أعلى مدخل كنيسة "باناجيا تريبيتي" مباشرة، كان المكان يوحي بالعزلة الشديدة، علاوة على ذلك لم يجرِ اختيار المكان مصادفة. فقد امتدت إلى الجنوب والغرب غابة صنوبر ترتفع نحو الأعلى، في الجوار لم يكن هناك سوى منزلين آخرين استولى عليهما الغزاة على الفور، في الجهة المقابلة يوجد جرف شديد الانحدار، أضفت هذه الأماكن المتاخمة على البناء جو قلعة مهجورة بائسة.

لن أقدم وصفًا تفصيليًا لما حدث هناك، فليس هناك الكثير ليُوصف، ليس بكلمات جوفاء لن تجدي نفعًا على الأقل، ففي بعض الأحيان تعجز الكلمات عن الوصف، للألم لغته الخاصة، والجميع يعلم أن هناك طريقة واحدة فقط لفهمها؛ يجب أن يمر الألم عبر عروقك، يزعم بعض كبار السن أن صرخات الأسرى الشهداء اخترقت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجدران الحجرية للمبنى القديم وقطعت مئات الأمتار كي تنضم إلى ترانيم الكهنة المذهولين في كنيسة "باناجيا تريبيتي".

في يناير 1944، شعر الجنرال "كارل فون لو سوير" برعشة في يده اليسرى، أشار إلى ذلك في دفتر يومياته ذي الغلاف الورقي، الذي قُدر له أن يبقى في حالة جيدة حتى يومنا هذا، لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يحدث له فيها ذلك، جراء هذه الرعشة تحديدًا، أدرك في المواقف الحرجة أن الوقت ينفد، "الوقت ينفد لأجل ماذا؟"، دوّن السؤال في دفتر يومياته، بقي سؤاله هذا دون إجابة.

كان الكولونيل "فولفجانج رابي" قد أرسل للتو من برلين وثيقة من ثلاث صفحات إلى الجنرال، احتوت على وصف تفصيلي لطريقة التحقيق الجديدة، بالإضافة إلى العديد من المعلومات والتوصيات والتفاصيل الأخرى، يتحتم الآن جمع أي معلومات مفيدة يمكن أن تؤدي إلى تفكيك صفوف المتمردين والمقاومة اليونانية على الفور وبأي ثمن، بالنسبة إلى العديد من ضباط "الفيرماخت"، بدا شبح الهزيمة مثيرًا للاشمئزاز أكثر من الموت نفسه.

كتب الجنرال في مذكراته: "تُنفذ أوامري بسرعة وقوة السهام الحديدية". وأكمل: "على المعتقلين الذين يجتازون عتبة "بيت الحقيقة" أن يفعلوا شيئًا واحدًا: الاعتراف بالحقيقة. أنا على يقين أن الطريقة الجديدة ستساعد على هذا".

في 14 يناير 1944، طلب أحد الضابطين الشابين، برتبة نقيب، المكلفين بإدارة "البيت" زيارة المكان الذي تُحفظ فيه سجلات المدينة، في صباح اليوم التالي وصل إلى غرفة شبه أرضية في مبنى البلدية القديمة. بمساعدة ضابط آخر يعرف اللغة اليونانية، بدآ بقراءة وثائق وقوائم مختلفة للمواطنين. لقد أرادا الكشف عن أسماء معينة للمدنيين الذين قد تكشف أسماء عائلاتهم أو بعض الدلائل الأخرى على علاقتهم بالمتمردين. بينما كانا يفحصان ويتصفحان كل ما وجداه أمامهما، أطلق الضابط المُلم باللغة اليونانية صيحة إعجاب عالية، اقترب منه النقيب الآخر، وأصدر صوتًا مشابهًا، كانت الصورة التي ظهرت وسط مجلد عشوائي تعكس ملامح فتاتين مبتسمتين، هل كانت ملامح الفتاتين اللتين تتمتعان بجمال البحر الأبيض المتوسط ما أثار الرجلين، أم التناقض اللحظي غير المعتاد هو ما فعل ذلك وحدد مستقبلهما؟ تبدو قوة الجمال محفزة للغاية في مواجهة رعب الموت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالنسبة إلى الضباط الألمان لم يكن هناك شيء صعب في ذلك الوقت، عُثر على الفتاتين في اليوم نفسه، وألقي القبض عليهما واقتيدتا مباشرة إلى "بيت الحقيقة". بأي تهمة؟ دعونا لا نكن ساذجين، لم يكن هناك وجود لمثل هذه المفاهيم، لم يُقبض على الفتاتين للاعتراف بأسرار المتمردين أو للإبلاغ عن خطط لهجوم مسلح، فمنذ اللحظة التي خرجت فيها صورة مسابقة الجمال لعام 1939 إلى العلن، لعبت النساء المعتقلات دورًا واحدًا فقط؛ الترفيه عن المنهزمين لاحقًا.

في مساء اليوم التالي، 16 يناير 1944، وصل الضابط الناطق باللغة اليونانية الذي وجد صورة الفتاتين إلى "بيت الحقيقة" واصطحب إحدى السجينات معه، تغيب مديرا "البيت"، منذ صباح اليوم السابق، فقد جرى استدعاؤهما لحضور جلسة إحاطة خاصة في "بيرياليون- كورينثيا" أمام "الجنرال كارل فون لو سوير" نفسه، حاول كبير الضباط الذي كان يحل محل القائد السؤال عن سبب الاستدعاء في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، لكن الإجابة كانت صارمة: "أوامر عليا"، وبذلك استُبعد أي احتمال للمزيد من التفسيرات.

وقف الضابط هنيهة أمام الفتاتين اللتين كانتا تنتظران متشبثتين الواحدة بالأخرى في غرفة شديدة البرودة، على ما يبدو فإن الضابط لم يوافق على رغبة ملكتي الجمال، لقد فرَّق بينهما؛ اختار "ماريا" واصطحبها معه، أقرَّ الحارس الخارجي "للبيت"، في إفادته بأنهما نزلا درجات سلم كنيسة "باناجيا تريبيتي" معًا؛ السجينة في المقدمة والضابط خلفها، كانت تلك هي المرة الأخيرة التي رأى فيها أي شخص "ماريا" والألماني.

لقد بُحث عنهما كثيرًا، أكثر من اللازم، لكي نكون دقيقين، إنها مسألة شرف مدمرة للقوات الألمانية، يجب العثور على الضابط الخائن، مر الكثير من الناس على "بيت الحقيقة" في الأيام التالية، تقريبًا جميع أقارب "ماريا"، العديد من الأصدقاء، بعض الجيران، على الرغم من صرخات اليأس المطلق المتكررة، فلم يكشف أي منها عن أي شيء. كان الاستنتاج واضحًا، وفي الوقت نفسه غير قابل للتفسير؛ لم يعرف أحد أين وكيف اختفيا، يبدو أن الأرض قد انشقت لابتلاع هذين الزوجين الحمقاوين، توقف البحث بعد أسبوع، بعد أن وجه المتمردون اليونانيون ضربة أخرى، أصبح الآن لدى "بيت الحقيقة" مسائل أخرى أهم للتحقيق فيها.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل يمكنك أن تتخيل من أكثر شخص بحث عن هذين الزوجين، سيد "باباديميتراكوبولوس"؟ ليس باستطاعتك؟ حسنًا، أنا من فعل ذلك. كنت أرغب بشدة في العثور عليهما، لقد أمضيت سنوات عمري في البحث عنهما، بالطبع ما زلت أتحدث إليك بصيغة الجمع، على الرغم من أنه آن الوقت لنتحدث بصيغة المفرد، لقد عثرت على "ماريا" في بداية بحثي عام 1961. كانت تستريح في مقبرة "كارديتسا"، تحت شاهد قبر أبيض بسيط على شكل صليب مكتوب عليه:

"ماريا إيكونومو"

1920-1947

لكن أين كان يختبئ الضابط الألماني؟ ما اسمه؟ ما الذي دفعه ليصطحب "ماريا" ويترك "نيفيلي" خلفه؟

في السجلات الألمانية التي كُتب لها البقاء، كانت هناك بيانات مختلفة عن الضباط الذين شاركوا في الحرب، لكن لا شيء على الإطلاق عن هذا الرجل تحديدًا، لقد نجح دائمًا في أن يبقى مجهولًا إلى الأبد. لم أكن أعرف سوى شيء واحد عنه: كان يعرف اللغة اليونانية، لذلك أدركت أنه من أجل أن أبذل مجهودًا أكبر للكشف عن هويته، يجب أن أذهب في الاتجاه المعاكس تمامًا، لقد حان الوقت بالنسبة لي كي أصبح عالمًا باللغة الألمانية.

هذا الاختيار لم يلحق بي ضررًا، لقد تعلمت اللغة، وبقيت في ألمانيا، ودرستُ أشهرًا في الجامعات، يجب إعطاء كل ذي حق حقه، لم يظلمني الألمان قط، لم يحقِّروا من شأني قط، ولم يقللوا من تقديري نهائيًا، بل على العكس تمامًا، كمكافأة على مجهوداتي، حصلت على منحتين دراسيتين، وشهادات جامعية، ومال كثير وسمعة ممتازة، حتى نعمة الصداقة قد وُهبت إياها هناك في الشمال، كان لديَّ صديقان حقيقيان في هذه الحياة، وكلاهما ألماني.

لكن مع تلك النجاحات، على مدى سنوات، وعقود كاملة، بقيتُ محبطًا للغاية، فعلى الرغم من جهودي المضنية والمستمرة، لم أحسب سوى إخفاقاتي في شأن واحد، لم أنجح في الوصول إلى الضابط ذي الوجه المُخفَى، اقتربت منه مرة واحدة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في نوفمبر 1977، اتخذت خطوة نحو هدفي للمرة الأولى. بعد بحث متواصل، نما إلى علمي شائعة مفادها وجود رابط وسيط، لقد حصلت على هذه المعلومة القيمة عن طريق دفع المال لشخص ألماني يزعم معرفته بأشياء تشكل معرفته بها خطرًا عليه، بالطبع، كانت المعلومات من هذا النوع باهظة الثمن، ولم يمكن في مقدور أحد تعليل المبلغ المطلوب أو حتى تبريره، لكنني لم أكن مهتمًا بالأرقام على الإطلاق، كتبت فورًا شيكًا بالمبلغ الذي طلبه ذلك الشخص النحيف المجهول، الذي قابلته في أحد المقاهي في "كولونيا"، وبعد عشر دقائق غادرت بعد أن حصلت على اسم: "توبياس أكرمان".

كان الكهل الألماني يعيش بمفرده في قرية خارج "ميونيخ" بقليل، في 22 من نوفمبر، ارتديت أرقى ملابسي، وملأت حقيبة جلدية صغيرة بالأوراق النقدية، واستقللت قطار الصباح من "هامبورج"، وذهبت لمقابلته، تُرى هل يعرف الغرض من زيارتي؟ هل يمكنه حتى تخمين ذلك؟ يجب أن أستبعد أي احتمال من هذا القبيل، كنت قد قدمت نفسي له عبر الهاتف كوني محاميًا من "هامبورج"، واستخدمت تسوية مزعومة تتعلق بميراث قديم لعائلة "أكرمان" كذريعة منطقية.

وصلت في فترة ما بعد الظهر إلى القرية، التي بدت كأنها نائمة بالفعل، أنزلتني سيارة الأجرة خارج منزل يتكون من طابق واحد، له حديقة شبه معدومة يحيط بها سياج، فتح الباب رجل يرتدي قميصًا منقوشًا لم يستطع إخفاء بطنه البارز، دعاني إلى الدخول إلى غرفة المعيشة، وقدَّم لي بيرة على الفور، بدا "توبياس أكرمان" كهلًا بلغ من العمر أرذله، رغم أنه لم يكن كبيرًا في السن إلى هذا الحد، ظننت أنه سيبدو مختلفًا نوعًا ما، فمن المفترض أن ما زال في عمره بقية.

لسبب غريب لم يتفوَّه صاحب البيت بكلمة واحدة، ظل يدخن دون توقف، زاد الصمت حدةَ الموقف، في البداية تمتمت بشيء اعتيادي حول المناخ، ثم تطرقت إلى مسألة الميراث، شعرت فجأة أن الكذب لن يصل بي إلى ما هو أبعد من ذلك، دون أي تردد أو مقدمة، أخبرته مباشرة عن سبب حضوري إلى هنا، لا توجد ردة فعل من جانبه، صامت دائمًا وشبه متحجر الآن، يستمع إلى جميع أسئلتي دون أن يجيب عن أيٍّ منها.

في النهاية عرضت عليه المال: "المبلغ الذي تشتهيه"، هذا ما قلته له بالضبط،

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨
المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بينما أضع يدي على الحقيبة الصغيرة، هذه العبارة التوضيحية الخاصة كان لها مفعول السحر مع العديد من الناس، توقف "أكرمان" عن النظر إليّ، بدا واضحًا أنه لا يريد المال، لم يكن يريد أي شيء على الإطلاق سوى التدخين، هنيهة راودتني فكرة سخيفة أن "أكرمان" كان ينتظرني منذ سنوات، بعبارة أخرى، لم يكن يتوقعني تحديدًا، بل كان يتوقع مجيء شخص سيعيد الماضي أمامه.

جثوتُ حرفيًا عند قدميه، كنت على استعداد لفعل أي أمر من أجل معرفة شيء ما عن الضابط المجهول الذي كنت أبحث عنه، توسلت إليه للحصول على اسمه، بعض أوصافه، أي شيء، عندما نهض "أكرمان" وأشار إليّ للخروج من منزله، شعرت أن فرصتي الوحيدة قد ضاعت. عند مدخل المنزل نظر إلى وجهي مباشرة وقال:

- كان يقرأ أعمالًا من التراجيديا اليونانية القديمة.

- من؟ الشخص الذي أبحث عنه؟

يومئ برأسه في إشارة للتأكيد، حتى تلك اللحظة، لم يكن "أكرمان" قد اعترف حتى أنه كان جنديًا في أي وقت مضى، أو أنه كان في اليونان في أثناء الحرب العالمية الثانية. لم يُبدِ أدنى إشارة إلى أنه يعرف القصة التي أخبرته بها.

- هل تتذكر الاسم؟

كانت ردة فعله سلبية، يشير نحو طريق الخروج من السياج. كان عليّ أن أذهب، فقد انتهى وقت المقابلة.

- أي عمل كان يقرأ؟

- كان باللغة اليونانية.

- أي كاتب؟ "يوربيديس"؟ "إسخيلوس"؟ "سوفوكليس"؟

- أظنه الاسم الأوسط.

لم أنزعج على الإطلاق لأن "أكرمان" أغلق الباب في وجهي، بينما كان ينطق بعبارته الأخيرة. بعد ستة عشر عامًا من البحث المستمر في ألمانيا، توصلت أخيرًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى شيء ما، نعم هي معلومة بسيطة، لكنها شيء ما، في ذلك المساء نفسه، بينما كنت عائدًا بالقطار إلى "هامبورج" وتحيط بي مساحة شاسعة من الظلام خارج النافذة، فكرت في أنه ليس باستطاعة أحد محو الماضي تمامًا.

على ما يبدو، لقد أدار الحظ ظهره لي مرة أخرى، لقد جربت مجموعة من الأساليب المختلفة، كانت الأعمال اليونانية القديمة، و"إسخيلوس" على وجه الخصوص، في دائرة الضوء باستمرار، ظلت النتيجة صفرًا على الدوام، في لحظة ما بدأت أشك في كل شيء، لكن في الوقت نفسه غمرتني عظمة ذلك المؤلف ببطء، عندما أدركت ذلك، تساءلت عما إذا كنت قد قفزت في أنهار "إسخيلوس" الدموية من أجل العثور على الضابط الألماني، أم أني كنت أطارد شخصًا خياليًا فقط من أجل لقاء أكثر الشعراء سوداوية؟

في بداية الألفية الجديدة كان بإمكاني أن أرى بالفعل أن مسيرتي القانونية على وشك الانتهاء، لم أكن عجوزًا، لكن التعب بدأ يحيط بي. غالبًا ما كنت أتخيله على شكل رداء غير مرئي، منسوج من خيوط عنكبوت لا حصر لها، تخليث عن أي محاولة للعثور على الضابط الألماني، كنت أفكر في كثير من الأحيان في العودة إلى اليونان؛ إلى مسقط رأسي.

في عام 2002، في مساء عيد ميلادي التاسع والخمسين، زارني عدد قليل من الأصدقاء في منزلي في "هامبورج"، اقتصر الاحتفال على دائرة صغيرة عن عمد، ففي الحقيقة أنا لا أحب ضوضاء البشر على الإطلاق. استمتعنا بالطعام الممتاز والنبيذ والموسيقى، ما الذي يمكن أن ترغب فيه أكثر من ذلك؟

قدم لي الضيوف هداياهم، وفي منتصف الليل بدأت أفتحها الواحدة تلو الأخرى، أحضر لي شريكي وصديقي "مانفريد وينكل" كتابًا. وفقًا للتقاليد المتبعة، كنا دائمًا نتبادل الكتب مع بعضنا البعض خلال فترة الأعياد، مزقت ورقة تغليف الهداية، وقرأت على غلاف الكتاب:

الغواص

"أنطون روت"

لقد أدهشني العنوان، خاصة أن "مانفريد" أصر على أنه ليس كتابًا أدبيًا. على

الأقل ليس بالمعنى التقليدي، وصلت إلى الصفحة الأولى ورأيت الإهداء الذي اختاره المؤلف لعمله:

أواه! يا ويلاه! طعنوني بطعنة قاتلة في الأعماق

"إسخيلوس"

تحته على الفور اسم الشخص الذي أهداه كتابه:

إلى "ماريا"

هل وجدته أخيرًا؟ هل كان الضابط الألماني الذي كنت أبحث عنه منذ عقود هو مؤلف الكتاب واسمه "أنطون روت"؟ وكأن ذلك لم يكن كافيًا، هل حقًا أهداه إلى الراحلة "ماريا أوكونومو"؟ لم يفهم أيٌ من ضيوفي سبب عدم رغبتي في ترك الهدية من يدي لبقية الليل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

17

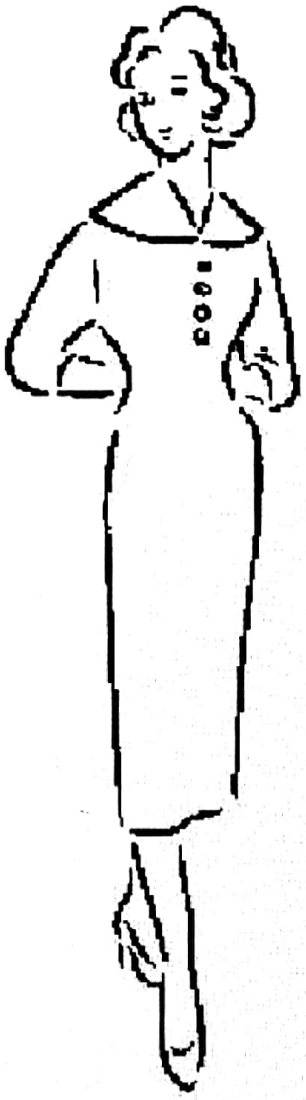

من الطبيعي الآن سيد "بابادیمیتراکوبولوس" أن تكون قد جمعت ما لا يقل عن اثني عشر سؤالًا، لماذا كنت أبحث بشدة عن هذا الرجل المجهول؟ ما علاقته بي؟ على أي حال، ما الذي كنت أسعى إليه بعد كل هذه السنوات؟ وبالطبع، أولًا وقبل كل شيء، من كنت أنا حقًا؟ سأجيب عنها جميعًا باستثناء واحد، من فضلك، لا تتسرع.

عندما التقيت "أنطون روت"، كان قد تجاوز الثمانين من عمره، كان عمره يطابق عمر الرجل الذي كنت أبحث عنه، لكن بقي أمر واحد ذو أهمية قصوى يجب التحقق منه، تمكنت أخيرًا من مقابلته في واحدة من الفعاليات العديدة التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقيمت للحديث حول كتابه، على الرغم من أن *الغواص* قد صدر قبل خمسة عشر عامًا، فاهتمام الجمهور القارئ به لم يتوقف، بل العكس تمامًا، دعت المجتمعات الجامعية المؤلف باستمرار إلى عقد ندوات تتعلق بالكتاب.

حدث ذلك في أبريل 2003 في مدينة "بايرويت"، توافدت حشود من الناس على قاعة كبيرة في قسم الدراسات الاجتماعية، ما زلت أتذكر عشرات الشباب الواقفين في كل مكان ممكن كي يشاهدوا "أنطوان روت" وهو يقدم كتابه، كان هناك مدعوون آخرون، لكن - يمكنك بسهولة أن تتعرف إليه من اللحظة الأولى - كانوا جميعًا متشوقين إلى سماعه. تحدث في نهاية الندوة، وبالتأكيد أقل من الباقين، بدت ملاحظاته لي نموذجية ومهمة.

قبل انتهاء الندوة، أخذتِ الكلمةَ فتاةٌ من الجمهور ووجهت سؤالًا إلى المؤلف حول معنى عنوان الكتاب، على مدار الخمسة عشر عامًا الماضية، حاول مجموعة من الأشخاص التوصل إلى مدلوله دون جدوى. تشكلت على وجه "أنطون روت" ابتسامة عابرة ومريرة في الوقت نفسه. بعد فترة من الصمت القاتل في القاعة، شكر الفتاة على اهتمامها وقال: **"في يوم من الأيام سيتعين علينا أن نتصالح مع فكرة أن بعض الأسئلة ليس لها إجابات".**

لقد وقفت عن عمد في نهاية الطابور الطويل الذي ينتظر توقيع الكاتب حتى أحظى ببعض الوقت الإضافي معه، وبلهجة مفعمة بالحماسة تُلائم معجبًا حقيقيًا، طلبت منه يكتب لي إهداء.

- هل تصنع لي معروفًا بكتابة اسم ابنتي؟ سأهديها كتابك.

- بالطبع. ما اسمها؟

- اسمها "نيفيلي". "نيفيلي بابابوستولوس".

لو حصلت على حياة أخرى، سوف أفنيها بكل سرور بالطريقة ذاتها دون أدنى تغيير، يكفيني رؤية ذلك التعبير الذي شاب وجه "أنطوان روت" مرة أخرى، فهو لم يكن يواجه ألد أعدائه، أو يشعر برعب لا يمكن وصفه، أو حتى أصابه هاجس موت جلي، لكنه شيء مختلف، لقد كان يواجه نفسه، بصعوبة بالغة يمكن للمرء قراءة الإهداء الذي كتبه لي في النهاية. فقد كانت أصابعه ترتجف بشدة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخذت الكتاب وصافحته، لم أخبره بأي شيء آخر. فلا داعي لذلك. فـ"أنطون روت" عرف بالتأكيد من الذي التقاه للتو، منذ تلك الليلة أصبحت كوابيسي هي كوابيسه نفسها، لقد تكفل ذكري اسم "نيفيلي" بذلك، بالتأكيد هي ليست ابنتي؛ لأنني لم أنجب أطفالًا قط، كان هذا اسم والدتي: "نيفيلي بابابوستولوس". توفيت في 26 من يناير 1944. دفعت أمواج البحر جثتها في صباح اليوم التالي نحو ميناء "إيغيو"، قرر الألمان أنه يجب وصف الحادثة بالطريقة المعتادة، أي الموت غرقًا. بالطبع لم تمت والدتي غرقًا.

كيف قتلوها؟ إمم، لا، سيد "باباديميتراكوبولوس"، لن تعرف ذلك، لن تكون قادرًا على تحمل هذا القدر الكبير من الحقيقة، لا أحد يستطيع تحملها، لذا لن أخبرك إياها.

كان من المتوقع أن تأخذ حياتي منعطفًا آخر اعتبارًا من عام 2003 فصاعدًا، لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل، فقد واصلت العمل في القانون، ولكن بحماسة أقل من أي وقت مضى، احتفظت بجميع عاداتي القديمة تقريبًا، واتبعت أسلوب الحياة نفسه، بعد أربعين عامًا من البحث تمكنت من تحديد هدفي، لكنني اكتشفت فجأة أن هذا كان كافيًا بالنسبة لي. لماذا؟ لأنني علمتُ أنه كان يعلم، وكان يعلم أنني كنت أعلم. كانت هذه المعرفة ثنائية الاتجاه مهمة جدًا بالنسبة لي، فنحن نعيش الرعب ذاته عن طريق سرّنا المشترك.

إن قراري اللاحق بمغادرة ألمانيا كان مرتبطًا بالتأكيد باكتشافي "أنطون روت". يمكنني الآن أن أعود إلى "إيغيو" بسلام، وقد فعلت ذلك. بالطبع، في كل مرة أسمعهم ينادونني بـ "الألماني"، هنا، في مكان ولادتي، كنت أشعر بمدى المفارقة المؤلمة، تذوقت قطعة من المرارة وقطعة من الرضا في الوقت ذاته؛ مرارة لما لاقته والدتي من الألمان ورضا عما اكتسبته أنا من الألمان أنفسهم، بمرور الوقت، وازنتُ تلك المشاعر المتضاربة في قرارة نفسي، علاوة على ذلك فمن المعروف أيضًا على نطاق واسع أن أي إيمان بالنعرات القومية أو العرقية يُعد أرخص أنواع الدعاية.

نجح "أنطون روت" في النجاة من مطاردة الجيش الألماني، لا يهم طريقة نجاحه الباهرة، لا سيما في ظل ظروف الحرب المعروفة، لقد تمكن بالفعل من اصطحاب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"ماريا أوكونومو" معه وتحريرها مما كان سيحدث لها لاحقًا في "بيت الحقيقة"، عاشا معًا لمدة ثلاث سنوات في مدينة "كارديتسا"، حتى توفيت "ماريا". كيف ماتت؟ هذه الحادثة غريبة بعض الشيء. كنت أتمنى أن يُلقى عليها المزيد من الضوء، لكن يبدو الآن أنه لا يمكن لأحد فعل ذلك.

في خريف عام 1947، عُثر على "ماريا" مشنوقة في غرفة نوم منزلهما، هل كان انتحارها يعود إلى سلوك "أنطون روت"؟ أو ربما يعود إلى ندمها على فقدان أعز صديقاتها؟ إذ إن "نيفيلي" قد أُجبرت على عبور الجحيم؛ لكي تكشف لهم أين اختبأ الزوجان الهاربان، عندما أدرك الألمان أنها لا تعرف شيئًا، قتلوها كنوع من العقاب للهاربين، الحقيقة أنني لم أكتشف على وجه اليقين السبب الحقيقي لانتحار "ماريا إيكونومو"، في الغالب لم أستطع فهم سبب فعلها ذلك بعد ثلاث سنوات. من يعرف؟ ربما توصلت وقتها إلى شيء ما، أو أنها أدركت سبب هروبها من "إيغيو".

بعد مراسم الدفن مباشرة، غادر "أنطون روت" اليونان، لكن ليس بمفرده، أخذ معه الطفل الذي وهبته إياه "ماريا"، في ألمانيا غير الاسم اليوناني الذي كان قد اختاره، ففي "كارديتسا" بعد انتهاء الحرب، جُنِّس باسم "أنطوني آدم"، بالطبع لإخفاء هويته الحقيقية. إضافةً إلى ذلك، ماذا يعني "آدم" بالعبرية؟ أنت لا تعرف؟ يعني التربة الحمراء. تحول "أنطون روت" إلى "أنطوني آدم"، فقد تُرجم اسمه بطريقة غير تقليدية، ما إن عاد إلى وطنه، استعاد اسمه الألماني، فبعد كل الأحداث التي عاشها، كان من الطبيعي أن يشعر أنه يملك اسمه مرة أخرى، هنا يوجد بعض التفاصيل التي لم أتوصل إليها بعد، أما فيما يخص ابنه فلم يغير اسمه، واستمر في مناداته بـ"خريستوس آدم". لماذا؟ ليس عندي إجابة عن هذا السؤال؛ لهذا فباستطاعة أي شخص أن يُدلي بدلوه.

أتريد المزيد من الويسكي سيد "باباديميتراكوبولوس"؟ بالطبع أنت تريد ذلك، أنا أيضًا أريد، من فضلك لا تلُم نفسك لعدم عثورك على طرف الخيط، كيف يمكنك تخمين أن ابن عميلك "أنطون روت" هو الطبيب الشهير "خريستوس آدم؟ استغرق الأمر أربعين عامًا كي أكتشف ذلك، الآن ستبدأ في التساؤل مرة أخرى عن السبب الذي جعلك تتورط وتكون أحد أضلاع هذه القصة، لا، لم يكن من قبيل المصادفة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فمصير كل واحد منا يحاك في الظلام منذ سنوات.

منذ عام 2003، عندما وجدت أخيرًا "أنطون روت" وابنه، بدأت بملاحقتهما، ربما لم تتغير حياتي الشخصية، لكن الفضول قد نال مني. لقد استخدمت المحققين الخاصين، الذين طالما غيّرتُهم، وضعت كاميرات خفية، وتنصت على الهواتف، لقد فعلت كل ما هو ضروري دون تردد، قانونيًا أكان أم غير قانوني، القانون هو عملي، لم يكن هناك ما يزعجني أو يسبب لي الخوف، لا تتخيل أنني أردت أن أحصل على شيء من كل هذا، لم أكن أرغب حتى في أي نوع من تلك العدالة المريضة، كان التعطش إلى الانتقام قد تلاشى مع مرور الوقت، أردت فقط أن أتعرف إلى الأب والابن قدر استطاعتي.

سرعان ما أتت خيبة الأمل الأولى، لم تبدِ حياة " أنطون روت" اليومية أي شيء يثير الانتباه، كان يتواصل مع قلة من الناس، ولا يشرب الكحوليات، ولا يدخن، ولا يسعى وراء الثروة، ولا يسافر إلا لأسباب تتعلق بالعمل، لم يتزوج قط، ولم يبدُ قط أن لديه أي علاقة عاطفية، كانت "ماريا" هي المرأة الوحيدة في حياته، وقد توفيت بالفعل منذ خمسين عامًا، وعلى خلاف المتوقع، من الواضح أنه ظل مخلصًا لها حتى النهاية.

لاقى **"الغواص"** نجاحًا مبهرًا، قرأه مئات الآلاف من الناس، وربما الملايين، منذ أن تُرجم إلى العديد من اللغات. لم يتفق المتخصصون على إدراجه تحت أي فئة معينة، وقد ساهمت هذه المرونة في زيادة شعبيته أكثر فأكثر؛ أطروحة علمية، دراسة تاريخية مقارنة، أطروحة اجتماعية فلسفية، جزء من رواية أدبية، ما أفضل وصف للكتاب؟ في ثلاثمائة وست وثمانين صفحة، ترك "أنطون روت" وراءه شيئًا معقدًا، ومثيرًا للجدال، وغير قابل للتصنيف. حتى يومنا هذا، قد قرأه الآلاف، لذلك يعتبر الآن من الكتب الكلاسيكية. بالطبع، لم يُقدم تفسيرًا واحدًا مقنعًا للعنوان نفسه، فأيٌ من الشخصيات لا يعمل غواصًا في الكتاب، ولم تُكتب كلمة "غوص" حتى ولو لمرة واحدة على الأقل.

كان الابن الوحيد لـ"أنطون روت" هو الأكثر إثارة للفضول، درس "خريستوس آدم" الطب في "هانوفر"، وتخصص في أمراض الرئة، وعمل في مستشفيات مختلفة في ألمانيا، وبدأ تدريجيًا في التعاون مع بعض العيادات في الخارج، في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عام 2004 اتخذ قرارًا بالانتقال والعيش في اليونان. لم يكن لديه مشكلة تتعلق باللغة اليونانية، فقد كان ثنائي اللغة منذ صغره، كانت الكحوليات بعيدة كل البعد عن حياة الطبيب الشخصية، لم يكن من محبي اللهو، ولم يأخذ إجازات. حتى في مسألة النساء، بدا للوهلة الأولى أنه يشابه أباه، لم يتزوج، لم يحظَ بأطفال، ولم يكن لديه أي نوع من العلاقات الطويلة، على الأقل منذ أن شرعتُ في مراقبته.

نعم، نعم، لا تتفاجأ يا سيد "باباديميتراكوبولوس". فقد شغلتني هذه القضية سنواتٍ، وفي النهاية حصلت على مرادي؛ لأنه في هذه النقطة، بالتحديد في هذه النقطة، ينتهي التشابه بين الأب والابن؛ أعني في مسألة النساء.

يسيطر على "خريستوس آدم" شغف بالجنس الآخر. إنه ظمأ لا يُروى، من الصعب على أحدٍ تفسيره، بل إنه من الصعب الشعور به. دائمًا ما يسحر طبيب الرئة النساء اللواتي يقترب منهن، ويبدو أنه يمارس عليهن سحرًا خاصًا، في كل مرة يقودنا الوضع إلى النقطة نفسها تمامًا دون أي استثناء: في اللحظة الحرجة، لا ينتهي الأمر بوجود شخصين معًا في الفراش، أي هو وشريكته، ولكن ثلاثة أشخاص. يبدو أن وجود شريك آخر شرط لا يمكن التخلي عنه ليقوم كل منهما بدور مع المرأة. عادة ما يكون هناك رجل حدَّده "خريستوس آدم" نفسه، واختاره مسبقًا. بالطبع، لم تكن العشيقات كلهن يقبلن هذه الإضافة المفاجئة. فمعظمهن يغادر، والبعض منهن يتفوهن ببعض التلميحات المهينة أو السباب الجارح فور أن يدركن ما الذي يحدث. بعضهن يناقشن ويتفاوضن بطريقتهن الخاصة. هؤلاء هن من بقين في نهاية المطاف.

شغف "آدم" المتكرر بالحب ليس من شأني، كنت أراقبه لأكثر من خمس سنوات، وخلال تلك الفترة لم يتصادف أنه ضايق أو ضغط على واحدة من عشيقاته، كما أن الأخلاق من هذا النوع لا تهمني بالطبع. أي رذيلة مقبولة لديَّ بشرط واحد فقط: موافقة الأطراف. علاوة على ذلك، كيف يمكن تعريف كلمة "انحراف"؟ ألا يُعد انحرافًا، بل هو في الواقع من أخطر أنواع الانحراف، أن تستلقي كل ليلة في السرير نفسه مع شريك لا ترغب حتى في لمسه؟ ومع ذلك، يعيش ويتنفس الكثير من الناس بهذه الطريقة يوميًا.

ما الذي كان يحدث في كل مرة في تلك العلاقات الثلاثية؟ لو شئت بإمكانك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القول إنه لم يكن يحدث الكثير. فمن بين النساء اللواتي وافقن على دخول الغرفة مع الطبيب، لم تعترف أيٌ منهن بوجودها معه في الفراش، عند هذه المرحلة، كنت قد سئمتُ الاستماع إلى المزيد من الأكاذيب والأعذار. بغض النظر عن المبلغ الذي كنت أعرضه - وكان كثيرًا - لم أستطع الوصول إلى أي شيء مثير للاهتمام، ولا شيء صادم بشأن سلوك العاشق "آدم". كنت أرغب في سماع التفاصيل، لكن لم تعطني أيٌ من عشيقاته هذه التفاصيل. اعترفت ثلاث نساء بممارسة الجنس مع الرجل الثاني، لكن ليس مع الطبيب نفسه. إذًا ماذا كان يفعل هناك في الداخل؟ لا شيء، لا شيء على الإطلاق. شيئًا فشيئًا تلاشت المراقبة، وأصبحت متقطعة، وفقدت الاهتمام. ما الذي كنت أحاول العثور عليه على أي حال؟

لن أخفي عنك أن ذوق الطبيب الخاص هذا قد خلق حافزًا لديَّ، لذلك جربتُ أيضًا هذه الحيلة، بالطبع، لم أختر رجلًا ثانيًا، لأنني لم أشعر قط بالانجذاب تجاه الرجال، ولهذا دفعتُ ذات مرة لامرأتين لأقيم علاقة معهن في سريري في آن واحد. يجب أن أعترف أنه بعد دهشتي الأولية، لم أجد التجربة مزعجة على الإطلاق. بالتأكيد أنا لست زير نساء، لا سيما في عمري هذا. كما أن ممارسة الجنس مع العاهرات ليست من الرياضات المفضلة لديَّ أيضًا. لقد فعلت ذلك بدافع التجربة، لأختبئ - ولو للحظة – تحت قناع الطبيب.

استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن أواجه الجانب الأكثر إيلامًا للواقع. فلو رصد أحد ما من بعيد حياة كلٍّ من؛ "أنطون روت" و"خريستوس آدم" وحياتي، فيمكنه في النهاية اكتشاف أوجه التشابه المذهلة بيننا. سنوات عديدة من الدراسة، والعمل المتفاني، وقلة وقت الفراغ، واعتراف بالمهنية، والتأرجح المستمر بين مكانين - أحدهما في الجنوب والآخر في الشمال. بطريقة ما، بالطبع، نحن ننضم إلى النموذج البدائي للعالم الغربي، الذي تبنيناه نحن أيضًا بعدما آمنا به أولًا بحماسة. هل كنا على حق؟ أم أنه يوجد هناك شيء غامض ذو قيمة أكثر؟ شيء نسينا كيفية تمييزه؟ لكنني أفضِّل ألا أتعبك بمناقشاتي الفلسفية الساذجة. دعنا نُبقِ تركيزنا على سرد الأحداث.

في نوفمبر 2015 قرر "آدم" زيارة "برلين" على وجه السرعة لأسباب مهنية. استمر في إجراء العمليات في ألمانيا أيضًا. حالما نما إلى علمي هذا الأمر، استيقظ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

داخلي شعوري بالاهتمام. فقد كان هناك سبب معين دفعه إلى القيام بهذه الزيارة، كنت على اتصال بامرأة تعيش الآن في "برلين" وبدت الفرصة مثالية.

قبل سنوات، حضرت شابة إلى مكتبنا القانوني في "هامبورج"، كانت لديها معرفة بكيفية تشغيل بعض برامج الكمبيوتر الجديدة، وتبحث عن وظيفة. المرشحة للوظيفة كان اسمها "إيفا ديبليج "وبعد مقابلة سريعة عُيِّنت سكرتيرةً.

بعد أربع سنوات، اضطررت بصفتي محاميًا إلى أن أتولى قضية معقدة تتعلق بالمراباة. لم يكن هناك أي شخص آخر على استعداد لتوليها، وشعرت أن لديَّ نوعًا من الالتزام الأخلاقي بعدم رفض هذه القضية. لقد كان زوج "إيفا ديبليج" روسيًا، وكان غارقًا في ممارسة القمار غير القانوني. لقد حضر إلى مكتبي برفقة زوجته التي جلست صامتة، تكاد تكون غير حاضرة. كان "نيكولاي" يمضغ العلكة باستمرار، ونظراته متوحشة بطبيعتها، وليس لديه أدنى قدر من التعقل على الإطلاق. أسديتُ إليه بعض النصائح، لكنه لم يأخذ بأيٍّ منها. أخيرًا، اختفى "نيكولاي" بين ليلة وضحاها. لم يكن في استطاعتي المساعدة أكثر من ذلك، بالإضافة إلى هذا فالجميع يعلم أن مساحة الحجج القانونية في هذه المسائل محدودة للغاية. حاولت إقناع "إيفا ديبليج" بأنه من الضروري أن تعثر على زوجها. أصرت على أنها لا تعرف مكان وجوده، والأكثر من ذلك، فهي لا تعرف إذ كان لا يزال على قيد الحياة أم لا.

بعد مرور أسبوع على اختفائه، وعند الساعة الخامسة صباحًا، كُسر باب منزلها، ودخل رجلان ضخمان صامتان، وبرفقتهما طبيب أسنان. هكذا عرَّف الطبيب نفسه، بينما كان يمضغ قطعة علكة بتباهٍ. اعتقدت "ديبليج" أنهم روسيون، لكن طبيب الأسنان كان يجيد الألمانية أفضل منها. عندما سألها عن مكان "نيكولاي"، أجابته مُردِّدة العبارة المشهورة: "ليس لديَّ أدنى فكرة". حينها ابتسم الطبيب، وأخرج العلكة من فمه، ثمّ وضعها في فمها، وأخبرها أن العلكة مضرة بالأسنان. في غضون عشرين دقيقة كانت "ديبليج" فقدت اثنتين من أسنانها الأمامية على يد طبيب الأسنان الذي تجاهل تحذيرها. كان قد حشر شيئًا ما مكورًا داخل فمها، وساد صمت عارم في الغرفة في أثناء العملية. سألها مرة أخرى عن مكان "نيكولاي". بعد كل هذا، ثبت أن "ديبليج" كانت تقول الحقيقة. لم يكن لديها فكرة. سمح لها طبيب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأسنان بإجراء اتصال هاتفي واحد فقط. لو لم أقدم لها على الفور مبلغًا مكوَّنًا من خمسة أرقام، كانت ستختفي بقية أسنانها في ذلك الصباح، أخبرها طبيب الأسنان بينما هو يغادر، أنه وهبها القدرة كي تتذكر "نيكولاي" في كل مرة تمضغ فيها العلكة.

بعد هذه الحادثة، انتقلت "إيفا ديبليج" إلى "برلين" وبدأت حرفيًا تؤدي أيَّ عمل تجده أمامها، ظل المُقرِضون يستنزفونها شيئًا فشيئًا، وأخذ دَيْنها يتزايد باستمرار بدلًا من أن يتناقص.

اتصلت بها منذ فترة، ما إن اقترحتُ عليها أن تؤدي دورًا مهمًا في مراقبة "خريستوس آدم"، سألتني على الفور: "كم سيكون أجري؟" كنت أخشى أن ترفض العمل، لهذا أجريت في ذهني ضرب الأعداد عشرة أضعاف تلقائيًا. عند سماعها المبلغ، قبلت "ديبليج" على الفور. من الواضح أنها لم تنسَ أن مضغ العلكة يضرُّ بالأسنان.

تم التواصل الأول في مطعم.. بار في "برلين". الاجتماع الذي جرى الترتيب له مسبقًا كان لا بد أن يبدو كأنه مصادفة. تُرى ماذا كان حصان "طروادة"؟ دعابة فقط. فقد التقط الطبيب طُعم "ديبليج" وفي غضون ساعات غادر الرفيقان بمفردهما. هل يجب أن نؤمن بالمصير الأول للأسماء؟ أعني "آدم" و"حواء". مَن يمكنه تجنب مثل هذا الربط بينهما؟

كانت أكبر مفاجأة واجهتها عندما اتصلت بي "ديبليج" بعد ثلاثة أيام. اعترفت لي دون أي تردد باهتمامها بـ"آدم" في المقام الأول، هل هي علم برغباته؟ هل أحضر لها بالفعل رجلًا آخر إلى فراشهما؟ هل قبلت بذلك؟ بقدر ما كنت أتوق إلى الحصول على إجابات، فقد ظللتُ عاجزًا عن الكلام على الطرف الآخر من خط الهاتف.

"أنا مغرمة به كثيرًا..". ما إن ألقت هذه العبارة المبتذلة في وجهي حتى فهمت أنني خسرت مرة أخرى لعبتي التي وضعت قوانينها بنفسي. كنت ما أزال أراقب "أنطون روت" عن طريق أحد المحققين. هكذا علمتُ أنه دخل مكتبك ذات صباح يا سيد "باباديميتراكوبولوس". على الفور أمرته أن يراقبك أيضًا، وقتها كنت قد بدأت بالفعل بمراقبتك لـ"إيفا ديبليج". ألا يبدو الأمر مضحكًا بعض الشيء؟ تبيَّن أن

ما تبع ذلك لم يكن مضحكًا على الإطلاق. فبعد بضع ساعات، ظهر "أنطون روت" في فندق "نجمة الميناء" وطلب الغرفة نفسها التي استأجرتها "ديبليج" في الليلة السابقة. حتى أنه اختار الغرفة 107 كي ينتحر هناك.

قرّر "أنطون روت"، بعد رحلة متاهة في أعماق القرن العشرين، أن يترك أنفاسه الأخيرة في فندق رث في "هامبورج". وفي الحقيقة كيف؟ بالطريقة نفسها التي انتحرت بها زوجته "ماريا أوكونومو" قبل ستين عامًا تقريبًا. متدلية بحبل رفيع. سيتبع هذا سلسلة وفيات، فقد أنشغلت جثة "ديبليج" الغارقة بعد يومين. أين؟ في منطقة بحرية على بعد خمسة عشر كيلومترًا من "إيغيو".

لقد استحوذ عليّ الآن شعور بنهاية لم أستطع فهمها، سيد "باباديميتراكوبولوس". كان لزامًا عليّ أن أعرف بالتأكيد، أن أفهم ما الذي كان يجري. لقد توصلت إلى طريقة فريدة من نوعها، ولسوء الحظ فقد شملتك أنت أيضًا. لقد أرسلت "كوستاس" إلى المطار ليراقبك، آمرًا إياه أن يحضرك إلى منزله بأي وسيلة. لم يدفع "كوستاس" إيجار منزلي الذي يعيش فيه منذ سنوات عديدة، لكن لا يهم هذا، فهو عاطل عن العمل، ليس لديه مال ولا منزل ولا مستقبل. في اليونان يقع الكثير من الناس ضحايا للدولة القاسية، كما أنهم ضحايا لأنفسهم بطبيعة الحال. أنا أهتمُّ بأمر "كوستاس" ووالدته، ولهذا سمحت لهما بالبقاء دون مقابل. على كل حال فقد سدَّد دينه مقابل هذه الخدمة الصغيرة، وذلك عندما خدعك. لم يكسر ذراعه قط، كما أن "إيلين" ليست حبيبته السابقة. الحقيقة هي أن "إيلين" صديقتي وشريكتي، التي لعبت دور "كليتمنسترا" في مسرحية "أجاممنون". لم تُصب قط بفشل في الجهاز التنفسي. لقد نجحت ببساطة في التظاهر بوجود إصابة في رئتيها حتى تجعلك تقابل الدكتور "خريستوس آدم". كل هذا كان من ترتيبي. إنه خطئي أنا. لو كان عليك إلقاء اللوم على أحد، فأنا هذا الشخص. في الوقت نفسه الذي كنت أخرج فيه مسرحية "أجاممنون"، كنت أحاول أيضًا إخراج شيء أكبر بكثير. جزء من الحياة نفسها.

كان لديّ إحساس خادع أنه بمقدورك معرفة ما حدث. كنت آمل أن تنجح في حل اللغز. الآن أعلم أن ذلك كان مستحيلًا. فقد كان ينقصك الكثير من القطع المتفرقة لهذا اللغز. من أين لك أن تتحقق من الأسباب الكامنة وراء وفاة "أنطون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

روت" و"إيفا ديبليج" دون معرفة أي شيء عن ماضيهما؟ فمن دون القصص التي تتبعنا مثل الكلاب السوداء القادمة من الجحيم، لسنا سوى ألعاب في الهواء، ومضات عشوائية في الظلام.

سؤال أخير؟ بالطبع أود أن أسمع ذلك يا سيد "باباديميتراكوبولوس". لماذا تعقبت "أنطون روت" كل هذه السنوات؟ سؤال وجيه. خاصة أنني في نهاية المطاف لم أفعل شيئًا للانتقام منه. لماذا يجب أن أنتقم منه؟

عملية الهروب التي نظمها الضابط الألماني الشاب في يناير 1944 أنقذت بالتأكيد "ماريا أوكونومو" من الاغتصاب المتكرر. كان هذا هو العقاب الأكثر شيوعًا للفتيات اللائي تجاوزن عتبة "بيت الحقيقة". كانت "ماريا" و"نيفيلي" ستتعرضان حتمًا للاغتصاب على يد بعض الجنود الألمان، لكن كان من المحتمل أن تبقيا على قيد الحياة. فلم يكونوا يقتلون الأسرى في هذا "البيت". كان الجسد الوحيد الذي خرج ميتًا من هناك هي جثة "نيفيلي بابابوستولوس". لقد أنقذ "أنطون روت" تلك التي اختارها أن تكون عشيقته، لكن في الوقت نفسه حكم بالموت على والدتي.

لا، من المستحيل أنه لم يكن ليتوقع ما هو آتٍ. كان ضابطًا، ويعرف الأساليب الألمانية، ويتحدث اليونانية بطلاقة. لذلك اشتم رائحة الخطورة الناتجة جراء الهيبة الألمانية المجروحة. كان لديه أيضًا خطة هروب مذهلة، كما تبيَّن لاحقًا، والتي لم أستطع تعلمها مطلقًا. إذا رغب في ذلك حقًا، فكان بإمكانه اصطحاب السجينتين معه وإنقاذهما. في نظري كان "أنطون روت" مذنبًا بشدة، وما زال كذلك، لأن المذنبين لا ينالون العفو بوفاتهم.

اسمح لي بالذهاب الآن إلى غرفتي. في صمت. فقريبًا سيطلع الفجر وحتى ذلك الحين يجب أن أشتبك معه للمرة الأخيرة.. مع من؟ مع ذلك الرجل الذي رسم لي طريقي. يبدو أن "أنطون روت" يهمس بشيء لي الآن، حتى بعد رحيله إلى العالم الآخر.

لا أخفي عنك، إنها المرة الأولى التي يخاطبني فيها شخصيًا. فبصرف النظر عن تلك الليلة الأولى من ندوة توقيع كتابه في "بايرويت"، لم نلتقِ قط، ولم نتحدث مرة أخرى. لذا اختارك رسولًا لرسالته الأولى والأخيرة في الوقت نفسه. ليس لديَّ أي فكرة حقًا عما أرسله إليّ، وما هو موجود في الظرف المغلق الذي تمسكه بين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يديك. لكني أعترف لك بالحقيقة: أنا على استعداد أن أموت كي أعرف محتواه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

18

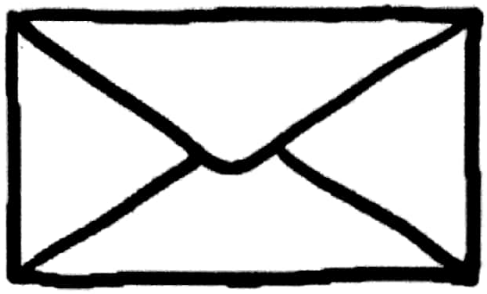

في اليوم التالي، أيقظني آخر شخص كنت أتوقع رؤيته. يقف أمام الباب ويضغط على الجرس بإصرار شديد، ويعلو وجهه تعبير ساخط واضح، لقد حضر المفتش "كورت يانسن"، مباشرة من مقر شرطة "هامبورج".

ما زالت الساعة الواحدة بعد الظهر، ويبدو المفتش أكثر إنسانية تحت ضوء الشمس في مطبخي. أُعِدُّ قهوة يونانية "دُوبل". يسألني عما إذا كان هذا هو مسقط رأسي، وأنا – بدوري - أساله عما إذا كان قد تذوق قهوة مثل هذه من قبل. يجيب كلانا بالموافقة. لا يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى يبدأ في التلفظ ببعض السخافات محاولًا أن يجعلني أتحدث إليه أولًا. لقد حذرني من أنني سأتلقى الكثير من الأسئلة من العديد من الجهات. يبقى ما يعنيه بقوله هذا غير مفهوم. يلوي فمه عندما تحرق القهوة شفتيه. نظل صامتين حتى تبرد الكأس. أنتظر منه فقط أن يشرح لي ما الذي يريده بالضبط، ومن ثمَ يرحل من هنا. من الواضح أنه يحاول استنباط شيء محدد مني.

- حسنٌ سيد "باباس".

- ماذا تقصد سيد "يانسن"؟ ماذا تريد أن أقول لك؟

- إلى أي ساعة مكثت أمس في منزل السيد "نيكولاوس بابابوستولوس"؟

من أين بحق الجحيم علم "كورت يانسن" كل هذه التفاصيل حول الليلة السابقة؟ أحاول كسب بعض الوقت مموهًا بإشعالي سيجارة كي أداري على إحراجي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لقد رحلت في وقت متأخر.

- أعتقد أن لديك عذرًا مقنعًا عن المكان الذي ذهبت إليه بعد ذلك.

- هل سأحتاج إلى إثبات أنه بعد لقاء مع محامي، عدت إلى المنزل وارتميت في فراشي؟

- مم.. هذا يعني أنك لا تعرف أي شيء. سيكون من الضروري، وقريبًا جدًا، إثبات أنك لم تقتل "نيكولاوس بابابوستولسوس". في الساعة الثامنة صباحًا تقريبًا وجدوا جثته تطفو في الميناء.

لا أجيب. لا أجيب على وقاحة "كورت يانسن"، الذي بدا سلوكه مبتذلًا الآن، ولا على قائد مركز شرطة بحر "إيجة" فيما بعد، الذي حاول لمدة ساعة استجوابي مستخدمًا أساليب مدرس ابتدائي قديم. ولا حتى على الصحفيين الألمان الثلاثة واليونانيين الخمسة، الذين يضغطون عليّ في كل مكان، مُصرّين على استنطاقي ببضع كلمات. ولا حتى على "كوستاس"، الذي ظهر أخيرًا، مطأطئًا رأسه إلى أسفل، ويسأل بغباء لا يمكن مجابهته عما حدث. ولا حتى على السيدة "كينو" التي اتصلت بي مرتين. ولا حتى على "جورج ويبر"، الذي يرسل لي رسالة نصية يسأل فيها عما إذا كنت بحاجة إلى المساعدة. ماذا أقول لهم؟ العالم محطم. دائمًا ما كان كذلك. نحن أيضًا لا يمكننا أن نفعل شيئًا سوى أن نُقلّب أبصارنا نحو القطع المتناثرة على الأرض أو في السماء.

تتراقص أزواج من النجوم التوأم. "ماريا"، و"نيفيلي". "روت"، و"بابابوستولوس". "آدم"، و"إيفا". "أجاممنون"، و"كليتمنسترا". "ستيليوس"، و"أدونيس". جثتان معلقتان. جثتان غريقتان. جثتان مذبوحتان. جسدان عاشقان. جسدان يطلبان الأكسجين. وأنا؟ أنا جسد. يعبر الصحراء دون ماء أو حتى إيمان. لست سوى جسد. لا يحكم، لا يساعد، لا يعرف. إنه يلاحظ فقط. يحاول عبثًا أن يخلق التوازن فوق خط رفيع وغير مرئي.

يمر يومان. تتزايد الضغوط، وكذلك التوسلات. متداخلة، غير متغيرة، يمكن التنبؤ بها. يزورني "كورت يانسن" مرة أخرى لأخذ بضع عبارات على الأقل، وبعض التفسيرات. إنه يعلم أن أي قوة لديه قد تبددت بالفعل. إنه بعيد عن مخابئه، لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يستطيع فرض أي شيء أو المطالبة بأي شيء. في النهاية يحاول إقناعي بوعود غير قاطعة: "إذا ساعدتنا.. الرخصة.. فليس من الصعب استعادتها". وغيرها من التصرفات السخيفة. أعتقد أن لون بشرته بدأ يتحول إلى السمرة من الشمس. أستطيع بالفعل سماع مضايقات زملائه ما إن يعبر عتبة مركز شرطة "هامبورج": "لقد أرسلناك إلى اليونان للتحقيق في جريمة قتل، لكن عوضًا عن هذا كنت تأخذ حمام شمس طوال اليوم؟".

أرسلت السلطات اليونانية إلى "إيغيو" شرطيًا من أثينا لا يكف عن الثرثرة، من المفترض أنه خبير. في ماذا؟ فأنا لا أراه إلا وهو يتصبب عرقًا خلف مكتب يبدو صغيرًا بشكل مثير للشفقة مقارنة بحجمه. يستمر في طلب القهوة وتقديمها لي. يحك أنفه عندما لا يفهم شيئًا، أي طوال الوقت. إنه يذكرني بالمحامي الفريد من نوعه في فيلم "قطار منتصف الليل (Midnight Express)". ففي كثير من الأحيان كان يسمي القضية "لغزًا لم يتم حله"، ثم يضع على الفور إصبعه بالكامل على أنفه.

ينظم الصحفيون احتفالات ارتجالية مثيرة للشفقة. أكثر من خمسة ألمان وضعف العدد من اليونانيين. تتغير جنسية "نيكولاوس بابابوستولوس" من الألمانية إلى اليونانية والعكس كل عشر دقائق. كان المتوفى يمتلك، - قانونيًا بكل تأكيد - جوازي سفر. يطلق عليه الألمان لقب "المحامي البارز في هامبورج". بينما يدعوه اليونانيون "وطنيًا مشهورًا برع في الخارج". جميعهم يحيطون بي، أينما أذهب. بمجرد أن تنطفئ الأنوار الكاميرات، يعدونني بكل ما في وسعهم وكل ما يدور في خلدهم أنني قد أرغب فيه؛ برامج تلفزيونية، مقابلات حصرية، جلسات تصوير في الأماكن التي أختارها. فقط لم يعرضوا عليّ النساء والمال. يا للأسف! كنت سأقبل بذلك. بشكل مثير للسخط، ينتظر الجميع الآن جنازة "نيكولاوس بابابوستولوس" بفارغ الصبر.

يدخل "كوستاس" ووالدته و"إيلين" إلى شقتي على التوالي. إنهم يعرفون الآن أنني أعرف من هم حقًا. لم يعد هناك مكان للأذرع المكسورة، ولا للرئتين المصابتين، ولا للتمثيل الرخيص. لقد جردنا الموت. ألا يحدث هذا دائمًا؟ تشعر أن " إيلين" هي أتعسهم جميعًا. هل كانت عشيقة "نيكولاوس بابابوستولوس"؟ كنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأقول لا. أعتقد أنه يربطهما شيء مختلف. بعد كل شيء، لو كانت هناك أي امرأة تحب هذا الرجل الوحيد، لربما تكون "إيلين". غالبًا ما نشرب القهوة معًا ونجلس على سطح المبنى الخرساني.

في الأساس لا أحد يريد أن يعرف أي شيء. يحاول البعض فقط أداء عمله، والعثور على جانٍ لا يثير المتاعب، والتخلص من الحمل الثقيل على أكتافهم. يرغب البعض الآخر في تصدير صورة تبدو مقنعة وفي الوقت نفسه تلقى رواجًا في السوق.

أُقيمت مراسم الدفن بعد ثلاثة أيام في كنيسة "أجيوس أندرياس". اجتمعت هناك مدينة "إيغيو" عن بكرة أبيها. في الفناء، الذي زُين وفقًا لما هو مُتبع في المراسم، سمعت الحضور يتهامسون فيما بينهم بعبارة: "نصف الطريق كان ملكًا له". بعد عودته إلى اليونان، كان "نيكولاوس بابابوستولوس" يشتري بجنون أي قطعة أرض أو منزل كان معروضًا للبيع في شارع "أجيوس أندرياس". حيث قضى طفولته، حيث عاشت والدته، حيث كان "بيت الحقيقة" قائمًا.

فُتحت الوصية التي تركها المحامي بعد ظهر اليوم نفسه في مكتب محرر العقود في ميدان "أجيا لافرا". تكدّس الناس في المبنى المكون من ثلاثة طوابق، وعلى الدرج، حتى خارج المنزل، هناك على الرصيف، لا يوجد مكان لموضع قدم. أجلس في مقهى على الجانب الآخر من الشارع وأتناول الشاي. أجد المعلومات الأولى مربكة إلى حد ما. بعد ذلك بقليل تبدأ الحماسة في الانتشار بين الجمع الغفير. فقد تبرع "نيكولاوس بابابوستولوس" بالفعل بسبع شقق للعائلات التي كانت تعيش فيها. في الواقع، كان "كوستاس" ووالدته من بين هؤلاء الورثة المحظوظين. أوصى بمكتبه ومنزله للمحامين والمساعدين الذين يعملون هناك. تقول الشائعات إن رئيس بلدية المدينة هو الوحيد الذي بدا مستاءً. فقد ترك المحامي للبلدية جميع الكتب الفريدة في مكتبته. يجب أن يقفزوا من الفرح بسبب هذا الكنز الذي لم يحلموا به، ومع ذلك يمكننا أن ندرك بسهولة الأولويات المختلفة. من يهتم بأكوام الكتب القديمة والأساطير المعقدة؟

يتسبب الإعلان عن الاسم الأخير في الوصية بعاصفة حقيقية. يتعلق الأمر بالرجل الذي يرث ما تبقى - ومما يشاع - من الممتلكات الهائلة. لا أحد يستطيع أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يخفي دهشته من القرار الأخير للمتوفى. خاصة أن الوصية كُتبت بخط اليد قبل ثلاثة أيام فقط، أي في يوم وفاته.

لقد غادرت منزل المحامي قائلًا له: "ليلة سعيدة" في غرفة معيشته قبل الخامسة صباحًا. ما زلت أتذكر عبارته بينما أغادر: "أنا على استعداد أن أموت كي أعرف". لقد كان حريصًا جدًا على فتح الظرف الذي أرسله إليه "أنطون روت". قرأ "نيكولاوس بابابوستولوس" محتوياته وبعد ذلك مباشرة كتب وصيته الجديدة. نزل إلى الرصيف في ضوء الصباح وقفز إلى الماء. لم يكن يستطيع السباحة على الإطلاق، كما أوضح لي ذلك كلٌ من "كورت يانسن" وقائد الشرطة اليونانية. بالطبع لم يكن يستطيع السباحة. لقد انتحر "نيكولاوس بابابوستولوس"، واختار في الواقع المكان نفسه في الميناء، حيث عُثر على والدته غارقة منذ ما يقرب من سبعين عامًا. في الثامنة صباحًا، ألقى البحر جثته أبعد قليلًا.

كنت على يقين أنه انتحار بمجرد أن سمعت اسم الوارث الرئيس. ترك "نيكولاوس بابابوستولوس" كل ما تبقى من ممتلكاته لابن عدوه الأبدي؛ إلى الطبيب "خريستوس آدم". لا أستطيع أن أتخيل ما كان يخفيه "أنطون روت" داخل ذلك الظرف المختوم. ولكن مهما يكن بداخله، فقد كان هذا الشيء من قتل المحامي فعليًا.

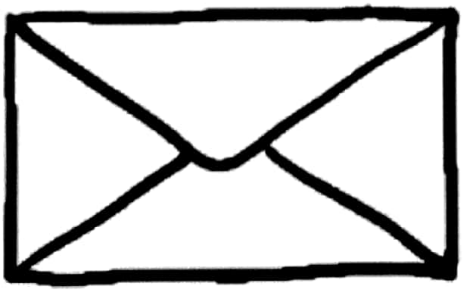

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

19

عندما ينتهي الحلم

يحين وقت الاستيقاظ

أو الغوص في الكابوس

هذا ما كتبه أحد الأصدقاء قبل سنوات عن الانتقال الحتمي: من الحلم إلى الكابوس مباشرة. إلا إذا تمكنت من الاستيقاظ بينهما. يتمتم بعض الأشخاص بأن الحلم لم يكن له وجود على الإطلاق، وأننا بكل بساطة قد تخيلناه، من أجل الحصول على ذكرى خالية من الرعب. لكن هذا يعني أنه لا يمكننا الاستيقاظ.

بدأ الوقت يلقي بظلاله. كما لو أن شخصًا ما قد أرخى عقارب الساعة الضخمة غير المرئية، ولهذا؛ فالوقت يمضي ببطء حول الشمس. في اليونان يسمون هذه الظاهرة "ألكونايدس ميريس". أعيد إحياء كلمات منسية، وأتشبث بالحروف الجديدة، وأمضي قدمًا معها. ظاهرة "ألكونايدس ميريس" تظهر في منتصف الشتاء، محدثة وهمًا خاصًا بها. صيف يهبط من السماء غير عابئ بالتقويم السنوي.

تحركاتي محدودة إلى أدنى حد ممكن. لم يعد لديّ رغبة في العمل، كما أنني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واقع تحت المراقبة. خليط مررت به من قبل. أجلس على مقاعد المدينة الفارغة وأدخن السجائر. أتناول الطعام في مطعم في الميناء. رائحة كرات اللحم تعيد إليّ ذكريات ذلك الطفل الذي كنته في السابق. أقف تحت شجرة دلب "بوسانياس"، في ظل يمتد إلى ألفي سنة، هناك حيث ينخفض البحر.

كان الوقت متأخرًا بعد الظهيرة، كما أن الشمس قد بدأت بالغروب عندما ظهرت "إيلين" عند باب منزلي. تمسك بيديها كيسًا بلاستيكيًا، ويعلو وجهها نظرة ترقب متحجرة. هكذا أحضرت الكيس الذي في يدها والنظرة التي على وجهها، مثل باقي الأشياء المتناقضة. لا أحد منا يحاول أن يجرب حظه في استخدام الكلمات. نصل إلى المطبخ، تخرج الزجاجة من حقيبتها أولًا، ثمّ نغوص في النبيذ الأحمر.

كنت أكتب قبل مجيء "إيلين". ملاحظاتي عبارة عن ملخص غير واضح لما حدث، وأشباه خطوط متفرقة، والتي أشعر في الغالب أنني لست من دوّنها على الإطلاق. قبل عقد من الزمان كُسرت الإصبع الوسطى ليدي اليمنى. ما زالت تؤلمني حتى هذه اللحظة. هذا الألم لا يسمح لي بأن أخط بيدي على الورق. لذلك أجد نفسي مضطرًا إلى إنشاء مستندات إلكترونية باستمرار، وملفات تحمل عناوين غامضة مختلفة وربما لا معنى لها. ما زال جهاز اللابتوب مفتوحًا في المطبخ. هل أنا أشتاق إلى سماع الموسيقى؟ يجب أن أجلس مع "إيلين "في مواجهة آخر غيوم اليوم كي أدرك هذا.

نستمع إلى أغنية "Gurb song"الخاصة بفرقة "ميغالا" بصحبة النبيذ.

تقول "إيلين" على حين غرة:

- أفضل "يوربيدس".

أجيبها:

- أنا أفضل "بيكيت".

تختار المعزوفة التالية؛ إصدار من أغنية "القاتل النفسي (Psycho killer)". صوت نسائي يخترق الهواء مقطعًا إياه إلى أجزاء شفافة.

- يومًا ما سأحدثكِ عن هذه المغنية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ما اسم الفرقة الموسيقية؟

- "سايكو (Psycho) ".

- لا أستطيع تحمل المزيد من الأمور النفسية.

- وماذا تفضلين؟

- الجسد.

عندما تتمدد "إيلين" بجسدها العاري فوق جسدي، تبدو للحظة أنها تحوم وتتدلى من مكان مرتفع. في كل مرة أغمض فيها عيني، أراها تتسلق الهرم مرة أخرى فوق خشبة المسرح. لذا أسبح معها بصمت وفي حالة نشوة. لم أقابل "كليتمنسترا"، بل "إيلين" الحزينة التي لا تزال على قيد الحياة. أتساءل بالفعل: كيف ستنتظرني في النهاية؟ ما الذي ستحمله بين يديها عندما أعود من الرحلة، إذ لن أكون قد حققت شيئًا على الإطلاق؟ هل سيظهر القناع الموجود على وجهها المتعة نفسها كما هو الحال الآن؟ أم ربما خيبة أمل فقط جراء الطرق الضائعة التي نسلكها؟

زجاجة نبيذ أحمر أخرى. مثل الأولى، بل أفضل من الأولى.

- لم أكن عشيقة المحامي.

قبل أن أتمكن من الإجابة بأي شيء، كانت قد أطبقت بفمها على فمي. لقد خمنت أفكاري. كيف أن كل شيء، حتى الحاضر نفسه، يعود إلى المسرحية المأساوية الذي أخرجها "بابابوستولوس". حتى بعد وفاته ما زال يحرك الخيوط كي يوجهنا نحو هدفه. على الأقل تبدو هذه الليلة هادئة، بعيدة عن أي خطط معدة سابقًا.

- يجب أن أعتذر لك.

- عن أي شيء؟

- عن أدائي الضعيف في دور المصابة في الرئة.

- لم يكن الأداء ضعيفًا على الإطلاق. والدليل على هذا أنني والطبيب قد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صدقناك.

- لم يصدق "آدم" أي شيء. حتى أنه لم يفحصني. فلو سمحت له بذلك، كان سيعرف على الفور أن رئتي ليس بها شيء. لقد أخبرته فقط أنك اعتديت علي وطلبت منه المساعدة.

- وكيف عرفت أنه سيقف إلى جوارك؟ من دون حتى أي أثر للعنف على جسدك؟

تنهض "إيلين" من مكانها. رغم أنها لا تدخن، إلا أنها تذهب لإحضار سجائري من المطبخ، كي ندخن معًا. تجلس على السرير مرة أخرى، تبدأ في التحدث إلي. جسدها العاري أكثر تأثيرًا من أي شيء آخر. لا توجد مساحة للكلمات. ربما هذا هو السبب في أنني أستغرق بعض الوقت للاستماع إليها والاهتمام بما تقوله.

يختار "خريستوس آدم" مناوبات العمل الليلية دائمًا. من منتصف الليل حتى الساعة الثامنة صباحًا ستجده دائمًا في المكان نفسه. المبنى الذي زرته مع " إيلين " هو عيادة خاصة. تُعتبر واحدة من أكثر العيادات شهرة في أثينا وأفضلها من ناحية التجهيزات. في تمام الساعة العاشرة صباحًا على أقصى تقدير، يفتح الطبيب عيادته في "دافني" دائمًا، غير متأثر من مناوبات منتصف الليل المستمرة، كما لو كان ذلك التزامًا دينيًا. أما بالنسبة للساعتين بين نهاية مناوبته الليلية وحتى وقت فتح عيادة "دافني"، فهناك جدول زمني واضح؛ أربعون دقيقة من القيادة، والاستحمام السريع، والتغيير الضروري للملابس، وتناول الإفطار، ومطالعة البريد الإلكتروني.

في حالة لو رصدَ أحدٌ ما مسيرة الطبيب، فسيصل إلى بعض الاستنتاجات التي لا يمكن إنكارها. يتمتع "خريستوس آدم" بتقدير عالمي من زملائه ومرضاه. في الحقيقة لديه مرضى لا حصر لهم ويكسب الكثير من المال. ومع ذلك، فلن يكون ذلك الراصد البعيد قادرًا على تخيل بعض الجوانب غير المرئية والمهمة جدًا في الوقت نفسه، التي تنتهي في نهاية المطاف بتغيير - أو بالأحرى عكس - الصورة النهائية. يقبل "آدم" بشكل صارم الأطفال فقط كمرضى في عيادته الشخصية، ويقدم خدماته لهم مجانًا. لا يتعين على أي أبٍ أن يدفع حتى ولو فلسًا واحدًا. وهذا يفسر بسهولة أكبر طابور الانتظار اليومي المتعرج، الذي يهبط في كثير من الأحيان درجات سلم المبنى السكني في "دافني"، ويمتد فوق الرصيف.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طبيب أمراض الرئة الشهير متخصص منذ سنوات عديدة في أمراض الأطفال. في عيادته الخاصة، يفحص أيضًا البالغين، لأنه يتقاضى من هؤلاء أموالًا بشكل طبيعي. من أجل الجمع بين رسالتيه المِهَنيتينِ المختلفتين، كان لزامًا عليه تقليل الانحرافات العرضية والوقت الضائع إلى أدنى حد. رفض الطبيب مرارًا إجراء أي مقابلات أو دعوات تليفزيونية، أو مناسبات ذات صلة من أجل الدعاية والترويج لعمله. إنه صاحب رؤية حقيقية، يعمل بلا كلل، ولا يحركه سوى حلمه. بالطبع، هو الوحيد الذي يؤمن بتحقيقه. فهو يرغب في بناء عيادة كاملة التجهيزات، حيث يجري تقديم العلاج للأطفال الذين يعانون مشكلات في الجهاز التنفسي بشكل مجاني. هدف سامٍ، لا سيما في مكان مثل اليونان. ومع ذلك، فإن قلة قليلة من الناس يعرفون أن "خريستوس آدم" قد اشترى بالفعل قطعة الأرض المناسبة، والتي لا تبعد سوى كيلومتر واحد عن مستشفى "إيغيو". لماذا في "إيغيو"؟ لأنه يعتبرها موطنه الأصلي؛ ولهذا قرر أن يبني عيادته هناك.

أستمع إلى القصة بأناة. إن مثابرة "خريستوس آدم"، لا تسبب لي إزعاجًا. ذلك الإيمان القوي الذي غالبًا ما ينمو في الوعاء نفسه مع شيء مروع.

- وكيف تعرفين كل هذا يا "إيلين"؟

- للسبب ذاته، الذي جعلني أعرف أن "آدم" سيدعمني دون الحاجة إلى فحص رئتي. على أي حال أي نوع من المحققين أنت؟ ألا يمكنك التخمين؟

- الشخص الذي أمامك هو محقق بأجر منخفض لم يكتسب على أي شيء من زملائه الرائعين الذين يظهرون على القنوات التلفزيونية. فبحلول وقت تخمين ما يحدث، عادةً ما يكون قد فات الأوان بالفعل.

- كنت.. على علاقة بـ "آدم". على الأقل لبعض الوقت؟

- كزوجين؟

- سأخبرك بشيء آخر، فلا يوجد سبب الآن لعدم البوح به. أعتقد أن هذا هو بالضبط السبب الذي جعل "بابابوستولوس" يقترب مني.

- ماذا تقصدين؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أعتقد أنه عرض عليّ وظيفة، أولًا في مكتب المحاماة الخاص به ثم في العمل المسرحي بعد ذلك، فقط لأنني كنت عشيقة الطبيب. كان "بابابوستولوس" رجلًا لطيفًا وكريمًا بشكل خاص، لكن في الوقت نفسه كان مغمورًا بشيء.. لم أستطع فهمه. لقد هيمن عليه فضول مريض عن حياة "خريستوس آدم".

نغادر المنزل بعد العاشرة مساء بقليل. لا يوجد أي أحدٍ في المرفأ نصف المضاء. يرتفع المنحدر الذي بُنيت عليه كنيسة "باناجيا تريبيتي" خلفنا كجدار سجن ترابي ضخم. بإمكانه أن يكون "بيت الحقيقة" بأبعاده الحقيقية.

- تفضل. اسأل دون تردد.

- عن أي شيء؟

- عن ذلك الشيء الذي يؤرقك. يبدو أن فضول "بابابوستولوس" المرضي أصبح معديًا. لقد أصابك أيضًا في النهاية.

- إذن باستطاعتك تخمين أسئلتي يا "إيلين".

- أنا و"آدم" لم نمارس الحب قط. لقد جربنا عدة أشياء أخرى بالطبع. إنه واحد من أكثر الأشخاص الغريبين الذين قابلتهم في حياتي. غالبًا ما كان ينزوي في غرفة أخرى، محكمة الإغلاق. يتجول هناك باستمرار دون أن يغمض له جفن.

- وماذا يعني هذا؟

- قد لا ينام دقيقة واحدة لأيام متواصلة، دون أن يظهر عليه أي علامة إرهاق ودون أي تفسير. أطلقِ العنان لمخيلتك.. أطلقه إلى أبعد درجة. أرسله لتتعرف إلى طاقته الخارقة للطبيعة التي تتلون بألف وجه مختلف.

- ألف وجه؟ كنت أظن أن لديه ثلاثة وجوه فقط.

- هل معك سجائر؟ أرجوك، اصنع لي معروفًا ولا تسألني عن "آدم" مجددًا.

- ها هي سيجارتك وسؤالي الأخير. الأمر لا يتعلق بالطبيب. هل تعرفين "ستيليوس"؟ لديه ابن يعاني مشكلات تنفسية شديدة.

- لقد تولى "آدم" أمر "أدونيس" منذ يوم ولادته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل يتابعه طبيًا منذ ذلك الحين؟

- هو لا يتابعه فقط. لقد تكفّل بشأنه كله.

ندخن السيجارة الثانية عندما تقرر "إيلين" التحدث مرة أخرى.

- وُلد الطفل بحالة نادرة. يحتاج إلى علاجات واختبارات خاصة، واستعداد دائم لتزويده بالأكسجين ودخول المستشفى بشكل مستمر. والده لم يتزوج بأخرى بعد والدته التي توفيت منذ سنوات. يتحمل الطبيب تكاليف كل هذا. على كل حال، فهو ليس الطفل الوحيد الذي يتكفل الطبيب بحالته. فهناك ثلاثة أطفال، أو ربما حتى أربعة. هؤلاء الأطفال على قيد الحياة.. لأن "آدم" على قيد الحياة. فبطريقة ما هم أطفاله.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

20

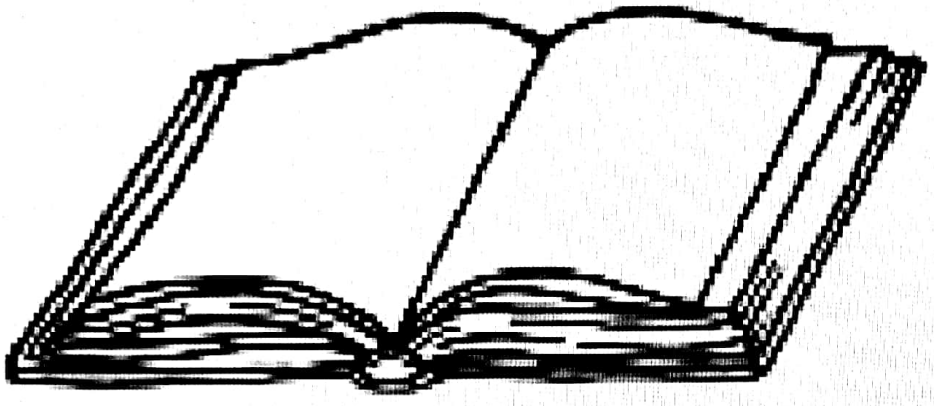

كنت أنتظرك. منذ فترة طويلة. لم يكن باستطاعتي سوى الانتظار. بالطبع سيكون لديك أسبابك الخاصة. حان دورك الآن كي تنتظر. ليس لوقت طويل. سأعود ليلًا. فقط انتبه له حتى ذلك الحين.

قبل أن أتمكن من استيعاب ألغاز "ستيليوس"، كان قد اختفى راكضًا على الطريق بين أشجار الصنوبر. هكذا أجد نفسي وحدي في المنزل نفسه للمرة الثانية. صياغة خاطئة، لست بمفردي. أنه هنا معي. في كل مرة يتنفس فيها تعادل أكثر من مليون أمل.

باب المنزل الخارجي موارب. أخطو نحو الداخل. رائحة غريبة وكريهة تسيطر على زاوية مليئة بالأطباق غير المغسولة؛ ملح مجفف، يود، بقايا أشياء متحللة. يقولون إنه لا يمكنك أن تتخلص من البحر بسهولة.

صوت غير معروف. ربما جاء من الخارج أو هي بعض شكوكي. كيف يمكنني الوثوق بشكوكي؟ أخيرًا أقف أمام باب غرفة الطفل المغلقة. بمرور بضع ثوانٍ، أدركت الفخ الذي تم اقتيادي إليه. أنا غير قادر الآن على المغادرة قبل أتيقن من أمره.

أفتح باب الغرفة رويدًا رويدًا، يتلاشى الظلام الذي يغلّف الغرفة. يتطلع "أدونيس" إلي وبحركة بطيئة، مثل دعوة للرقص، تخرج يده اليمنى من تحت الأغطية لتمتد بثبات نحو مكانه المحبب. أصبح الباب الآن مفتوحًا، أصل إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رفوف الكتب. ترددات متتالية، ثلاثة تغيراتٍ في القرار أو أربعة. أخيرًا أختار مجلدًا صغيرًا من القصص الخيالية لـ"هانس كريستيان أندرسن". أستدير ناحية السرير، لكن يده تظل ممتدة بعناد نحو المكان نفسه مرة أخرى. مع وجود فرق واضح الآن. فإصبعه السبابة تؤدي حركات لولبية متكررة، بينما يعتلي وجهه تعبير متحفز وهو الخالي عادةً من التعبيرات. أعود و*"الأمير الصغير"* في يدي، ويومئ لي بالجلوس. ليس على الكرسي الذي استخدمته في المرة السابقة، يفضل الآن أن أجلس بجواره، على حافة السرير.

في الصفحة الثانية يقاطعني مرة أخرى بحركة طويلة من يده. هل يريد مني البدء من جديد؟ أم ينبغي عليّ التوقف؟ لا، لا، إنه يطلب مني أن أقرأ ببطء أكثر. إنها مسألة تنسيق. بدأت الجمل في الانسياب بسرعة مختلفة الآن. يتأثر المعنى بالإيقاع، ويتغير الإيقاع وفقًا لفترات الصمت، والصمت يسكن داخل الأنفاس.

عندها فقط، خلال هذه القراءة، التي وضع هو وحده إطارها، أدرك أخيرًا ما يحدث. يتنفس "أدونيس" في نقاط محددة سلفًا. لقد اختار فواصله الخاصة وحدد فقراته وفصوله كي يأخذ أنفاسًا مماثلة. *الأمير الصغير* ليس كتابًا، بل هو التدفق الداخلي للأكسجين، إنه القائد الذي زامَنَ رئتيه معه.

في النهاية تشير إصبعه الممدودة نحو الباب نصف المفتوح. الانغماس في الحكاية الخيالية أدى حتمًا إلى تغيير جدول اليوم قليلًا. أنحني على السرير، وأحمله بين ذراعي، إنه خفيف للغاية. أعبر العتبة بينما أحمله. يختفي خلفنا الدرج الخشبي، الزهور الأولى للفناء، مخطط المنزل. على بعد مائة متر تقريبًا هناك أرجوحة صفراء معلقة. مستوى الأرض والترتيب الطبيعي للأشجار قررا أن يشكلا معًا المكان المناسب. يستلقي "أدونيس" على أرجوحة شبكية عليها غطاء ويحميها ظل شجرة الصنوبر، ينظر إلى البحر محدقًا. سأقرأ *"الأمير الصغير"* هنا مرة أخرى، وأشعر، قبل أن أنطق الكلمة الأولى من النص، بأن هذه القراءة لن تتكرر.

هبات من الرياح تهبُّ علينا من الشمال، ويبدو أن الطقس سيسوء. أقترح عليه أن نعود إلى الداخل. عدم الرفض يعني التأكيد. أنا أتعلم لغته الخاصة. حان وقت النوم. وضعته على السرير وقبل أن أغادر، أعيد *الأمير الصغير* إلى مكانه. لمدة ثانيتين أو ثلاث ثوانٍ، يبدو لي أن قلة الضوء تسبب بعض اللَبس، فلا يمكنني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التمييز بشكل جيد. بعد ذلك مباشرة، آمل ألا يكون ما أقرؤه صحيحًا، وأن هناك خطأ ما. أي خطأ. للأسف لا. إنه موجود بالفعل. على الرف بجوار الفجوة الوحيدة التي كانت تنتظر *الأمير الصغير*.

أجلس وحدي خارج المنزل، وفي يدي الكتاب، لا أبرح صفحته الأولى. أحاول قراءة المزيد دون جدوى. في كل مرة أتوقف وأعود تلقائيًا إلى الصفحة الأولى، والتي عادة ما تكون فارغة. العنوان مكتوب بأحرف سوداء على غلاف الكتاب. أدناه، بأحرف أصغر أحادية اللون، اسم المؤلف:

الغواص

"أنطون روت"

من الذي وضع الكتاب في هذا المكان تحديدًا؟ هل هو "ستيليوس"؟ أم هو "خريستوس آدم"؟ أم هو "أنطون روت" نفسه؟ أيًا كان من فعل ذلك فهو لم يضعه عشوائيًا بين رفوف كتب أطفال "أدونيس". لقد وضعه هناك كي أعثر عليه. أخيرًا لقد كسر "أنطون روت" صمته وتحدث إليّ. في الصفحة الأولى يوجد الإهداء التالي المكتوب بخط اليد وتحته توقيع:

إلى "خريستوس باباديميتراكوبولوس"

نحن أضعف من أن ننسى

"أنطوان روت"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

21

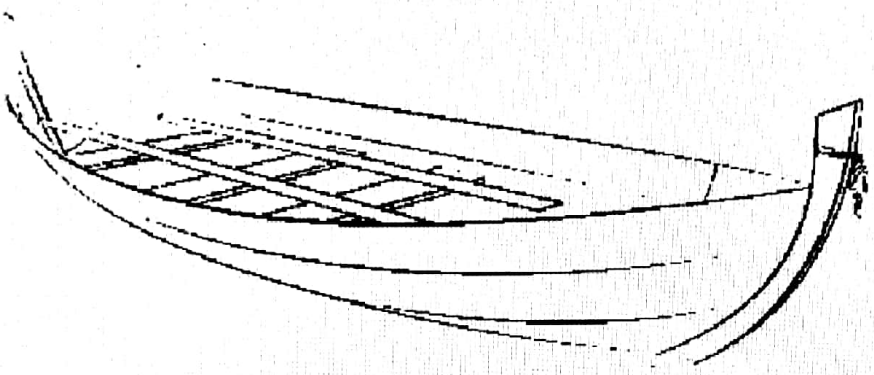

- هل طلب منك أن تأخذه إلى الأرجوحة؟

- نعم.

- والتنفس؟

- طبيعي.

- انهض! يجب أن تأتي لمساعدتي.

يعود "ستيليوس" ويترك أمامي أسطوانة أكسجين، ثم يهرع بالفعل نحو منتصف الفناء وفي يديه حقيبتان سوداوان كبيرتان. ألتقطُ الأسطوانةَ وألحق به.

عندما وصلت إلى الشاطئ، كان هو قد صعد بالفعل إلى قاربه وأخذ يفك لفائف من الحبال. من الواضح أنه يستعد للإبحار. لديه خطته ولديّ أنا أيضًا خطتي. لذا دعنا نفصل بينهما. من حافة رصيف المراكب الصغيرة، أحدق إلى الخطوط العريضة الباهتة للجبال، والتي يمكن تمييزها بصعوبة على الجانب الآخر. يحل الظلام سريعًا.

- علينا الغوص يا "خريستوس". لقد اصطدت سمكة "هامور" كبيرة حقًا ومن المستحيل أن أرفعها بمفردي. أنا بحاجة إلى مساعدتك.

- في منتصف الليل؟

- القاع ليلٌ دائم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنا لست غواصًا يا "ستيليوس". هل تريد أن أصاب بأي شيء؟

- لن يحدث لك شيء. سأعتني بك.

- مثلما اعتنيت بـ"إيفا ديبليج"؟

يرفع رأسه للمرة الأولى باتجاهي، ومن ثمّ ينغمس في ضحكة طويلة وصاخبة. بدلًا من الإنكار، أو حتى الاعتذار، يتحدث إليّ بسخرية بحتة.

- هل على هذا النحو وقعت حادثة "إيفا ديبليج" المزعومة؟ أي بينما كنت تعتني بها؟

- ما حدث للفتاة الألمانية لم يكن خطئي.

- خطأ من إذن؟

- خطؤها هي نفسها. اصعد إلى القارب الآن. سأشرح لك كل ما تريده بعدما نجلب السمكة أولًا.

- لا أظن أنني سأفعل ذلك.

- وماذا ستفعل إذن؟

- أفكر في الذهاب إلى الشرطة، وأشرح لهم أنك من أغرقت "إيفا ديبليج". ليس هذا فقط، ولكن بعد ذلك مباشرة خرجت للبحث عنها، من أجل بناء حجة غيابك الخاصة.

بدلًا من التعليق على كلامي، ينشغل بالمعدات والقارب مرة أخرى. يسود هدوء مزعج، يبدو أن البحر يراقبنا. سيغادر "ستيليوس"، حتمًا سيغادر من دوني. ينزع الحبل السميك الأخير للقارب من الرصيف.

- بما أنك لن تأتي، فهل يمكنك أن تعطيني الأسطوانة؟

أعطيته أسطوانة الأكسجين وأنا على يقين أنه سيغادر بمفرده. إنه لا يخادع. ربما حتى لم يفكر في شيء من هذا القبيل. فالخداع ليس من طبيعته.

- أرى أنك غير مهتم على الإطلاق بشأن القبض عليك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حسنًا.. هل تعتقد حقًا أن هؤلاء الناس سيقبضون عليّ؟ أنا؟

- تقصد أنك ستهرب من الشرطة؟ كيف؟ هل ستركّب أجنحة، ومن ثمّ تطير؟

تعتليه ابتسامة جنون العظمة أكثر من أي وقت مضى وتكشف عن مدى سخافة تهديداتي له. يعرف "ستيليوس" أكثر بكثير مما كنت أتوقعه. إنه في انتظاري وهو متقدم عني بخطوة. أو بالأحرى بالعديد من الخطوات.

- لقد هربت بالفعل يا "خريستوس". منذ يوم ولادته. لو أبلغت رجال الشرطة عني، فسأعطيك أثمن ما لديّ. ابني.

- ماذا؟

- إذا لم تصعد إلى القارب، فلن نرى بعضنا البعض مرة أخرى. يجب أن تعتني بـ"أدونيس". سأتركه لك كهدية.

- أنت تعلم أن هذا غير ممكن.

- أهذا هو رأيك؟ حسنًا! دعنا نجرب ذلك إذن. أنا سأختفي وأنت ستتولى زمام الأمور. لا يمكنك تخيل الأسوأ بعد. لكن كان يجب عليك ذلك، بما أنك ذهبت في تلك الليلة إلى مكتب المحامي وسلمته ظرفًا مغلقًا. هل تعتقد أن عصفورًا ما قد غرّد لي بهذا عن طريق الخطأ؟

يدير المحرك، ويبدأ القارب في الإبحار ببطء. مهما يكن لديّ من ثقة فقد تبخرت في ثوانٍ. ظننت أنني عثرت أخيرًا على قاتل "إيفا ديبليج". لكن القاتل لا يلقي بالًا لرجال الشرطة أو للسجن. لقد عُوقب بالفعل، لم يُعاقب حقًا بسبب ما فعله، ولكن بسبب شيء آخر لم يفعله. فابنه يُثقل كاهله أكثر من أي إدانة.

أسأل "ستيليوس":

- إذن ما الأسوأ؟

فجأة يتوقف القارب على سطح الماء الهادئ، تراوِدُني شكوك في وجوده هناك حقًا. الآن أصبح الأمر واضحًا. لا يخشى "ستيليوس" النهاية ألبتة، بل إنه يسعى إليها. فهو يريد في هذه الليلة، هنا بالضبط، أن يودعني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لن تكون قادرًا على رعاية الطفل لمدة يومين. تذكّر هذا. ولا حتى ليومين. سينتهي به الأمر في مؤسسة. في البداية سوف يؤرقك شعور بالذنب حول مصير "أدونيس". سوف يستغرق الأمر بعض الوقت حتى تتقبل ذلك. في نهاية المطاف سيموت الندم ويتلاشى. أسوأ جزء هو.. أنك لن تعرف. أبدًا.

- ما الذي لن أعرفه؟

- لماذا حدث كل هذا؟ ما سبب تورطك في هذه القصة؟ من الذي قرر ذلك؟ لماذا انتحر "أنطون روت" في غرفة رثة في "هامبورج"؟ لماذا لحق به "نيكولاوس بابابوستولوس" عن طيب خاطر؟ ما الذي سلمته له في تلك الليلة في مكتبه؟ ما المكسب الذي كان بإمكاني الحصول عليه من وفاة المرأة الألمانية؟ مجموعة من الثغرات لن تُملأ أبدًا. لن تعلم شيئًا على الإطلاق. ستظل في حيرة دائمة.. حتى النهاية. لن تقدر على تحمل الأمر. صدقني.

يبدأ هدير المحرك مرة ثانية، وينزلق القارب في مساره الممّوج. بدأ وقتي ينفد. ما الذي يجب أن أفكر فيه؟ تروس صدئة داخل رأسي. أشعر في أعماقي أنه على حق. هل بإمكاني ألا أصيح؟

- عدا! سآتي معك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت السجلات تُحفظ في غرفة تحت الأرض في الجزء الخلفي من المبنى. قليلًا ما كانت أشعة الشمس تصل إلى هناك، ونادرًا ما كان يقصد المكان أي زائر. لقد أُهملت السجلات هناك وغطتها الأتربة وبقيت طي النسيان لسنوات. فعندما ينطلق صوت الرصاص، تفقد شهادات الميلاد والزواج أهميتها تلقائيًا. كُتب البقاء بالطبع للغالبية العظمى من هذه الوثائق. يمكنك القول إن هذا انتقام آخر للأوراق من الكائنات الحية.

في الساعة الثامنة صباحًا، كانت الجدران الحجرية لمبنى البلدية القديم تشعرك بوجود ثلاجة ضخمة مصممة خصوصًا لهذا الغرض. ومع ذلك، فقد اعتاد الرجلان درجات حرارة أقل برودة. لقد بحثا بعصبية في أكوام الأوراق المتناثرة والملفات، لم يعرفا بالضبط ما الذي يريدان العثور عليه. بدا عليهما بوضوح مدى صعوبة العثور على الأدلة التي يبحثان عنها. حتى أنهما هما أنفسهما لم يدركا تمامًا أنهما كانا يبحثان عن الضحايا فقط. فما إن استعاد أحدهما الصورة من جوائز المسابقة المحلية لعام 1939، حتى تبيَّن أن البحث قد انتهى.

في المساء نفسه من يوم 15 يناير 1944، ألقى الجنود الألمان القبض على "ماريا إيكونومو" بينما كانت تغسل الملابس خارج كوخها. أُلقي القبض على "نيفيلي باپابوستولوس" في الوقت نفسه تقريبًا، بينما كانت ترضع طفلها حديث الولادة. كانت المسافة بين المنزلين تبعد عشرات أمتار فقط في منطقة "إيغيو"،

لذلك انتشرت الأخبار السيئة كالبرق في المنطقة، ومن ثمّ في المدينة بأكملها بعد فترة وجيزة. لا أحد بإمكانه أن يخمن أو حتى يتخيل كيف ستنتهي الأمور.

اصطحبت المرأتان مباشرةً إلى "بيت الحقيقة". في وقت المساء، ولم يكن هناك سجين آخر في المبنى المكون من طابقين. كان يحرس المكان ثلاثة جنود فقط. النقيب "فرانز جوبي"، الذي أمر بالقبض عليهما، كان غائبًا. لكنه ترك أوامر واضحة. "قبل أن يبدأ أي شيء آخر، يجب أن تخضع النساء للاستجواب المعتاد". نظرًا إلى أن النقيب نفسه كان على عجلة من أمره لأداء عمل مهم لمدة يومين في "كورينثيا"، كان على شخص آخر أن يتولى التحقيق خلال تلك الفترة الزمنية المحددة. سيحتاج هذا الشخص بالتأكيد إلى مترجم، لأن المرأتين تتحدثان اليونانية فقط. كان "فرانز جوبي"، لا يعرف سوى القليل من اللغة اليونانية، كما أنه متغطرس بطبيعته، فلم يكن يثق بأي مترجمين على الإطلاق. منذ شهرين تقريبًا، كان قد فشل فشلًا ذريعًا في الدور الباثّ للمترجم خلال عملية "كالافريتا". ففي المفاوضات التي جرت بين الطرفين المتقاتلين، لم يجرؤ "فرانز جوبي" على الاعتراف في المقام الأول بأنه لم يفهم ما يقارب نصف ما سمعه، وبدلًا من ترجمة العبارات الحاسمة بدقة للمتمردين اليونانيين، اختلق الجمل، وحذف الكلمات، وملأ الفراغات بشكل تعسفي. لقد كان يترجم من وحي خياله. لسوء الحظ، لم يشك رؤساؤه الألمان في عدم كفاءته اللغوية على الإطلاق.

لم يكن "فرانز جوبي" يريد أن يعاني أي إخفاق مماثل مرة أخرى. وهذا هو بالضبط سبب تكليفه الشخص الألمانيّ الوحيد الذي يعرف اللغة اليونانية باستجواب المرأتين. في الواقع، كان النقيب يحمل كراهية شديدة وعميقة للعريف "أنطون روت". لم يكن تحدثه اليونانية بطلاقة هو السبب الوحيد، وهذه حقيقة لا جدال فيها. فقد لعب الحظ إحدى حيله الساخرة، إذ إن كلا الرجلين كانا متشابهين للغاية. كلاهما طويل، كلاهما نحيف، كلاهما أشقر، وكلاهما ذو ذقن متشابه ويفصل بينهما تسع سنوات من العمر فقط. كان من الممكن أن يكونا شقيقين، الأمر الذي أثار حفيظة النقيب بصورة أكبر. لأن العريف الشاب لم يكن يتحدث اليونانية بشكل أفضل منه فحسب، بل كان موهوبًا في الوقت نفسه بمزيج من الرسوخية والصمت الشديدين. لذلك "كلّف" "فرانز جوبي" "أنطون روت" باستجواب المرأتين اليونانيتين، مع اليقين الداخلي بأن الشاب سيفشل في استخلاص حتى ولو جزء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قليل من المعلومات المفيدة. ومن ثم، بصفته رئيسه، يمكنه توبيخه بسهولة أو حتى معاقبته.

الأمر أشبه بمسرحية هزلية؛ ففي الروايات اللاحقة – الجميع تقريبًا – كان يخلط بين كلٍّ من "فرانز جوبي" و"أنطون روت". ألمانيان، طويلان، أشقران، نحيفان مع تشابه قوي في مظهرهما، ويتحدثان اللغة اليونانية أيضًا. كيف يمكن تجنب مثل هذا اللبس؟ لم تُحفظ السجلات الرسمية في أي مكان على أي حال. شيئًا فشيئًا، بُنيت هذه الأسطورة على مغالطة أساسية. نشأ الاعتقاد السائد بأن "أنطون روت" هو الرجل الذي قرر مصير المرأتين اليونانيتين منذ البداية. لكن واقع الأمر هو أن النقيب "فرانز جوبي" هو من عثر على صورة ملكات الجمال، وهو من أمر على الفور بإلقاء القبض على كل من "نيفيلي بابابوستولوس" و"ماريا أوكونومو". في نهاية المطاف لعب العريف الشاب دورًا مختلفًا تمامًا في هذه القصة.

قبل اندلاع الحرب، كان "أنطون روت" قد أنهى قسم الدراسات اليونانية القديمة في جامعة "جوتينجن". في عام 1944 كان يبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا. قليلًا ما كان يتحدث إلى الجنود الآخرين، ونادرًا ما كان يتحدث إلى ضباط الصف والضباط. فقط في حال لو كانت هناك حاجة ماسة، كان يفتح فمه ليتفوه بكلمتين أو ثلاث كلمات اعتيادية. كان العريف لغزًا لم يعبأ به أحد، فلم يكن لدى أي شخص شغف أو وقت للتعامل معه خلال فترة كهذه. كانت الحرب مليئة بالوقائع التي تصم الآذان، ولم تترك مجالًا لعلامات الاستفهام الصامتة.

في مساء يوم 15 يناير 1944، وصل "أنطون روت" إلى "بيت الحقيقة" ورأى المرأتين لأول مرة، كانتا تقفان أمامه، متشبثتين الواحدة بالأخرى وخائفتين. على الرغم من أنه لم يكن مرئيًا لهما على الإطلاق، إلا أنه هو نفسه كان أكثر خوفًا منهما. لأنه كان بإمكانه بالفعل أن يرى بوضوح مستقبلهما القاتم. أولًا وقبل أي شيء كان عليه أن يعذبهما لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة، دون أي سبب على الإطلاق، وبالطبع دون أدنى احتمالٍ للنجاة. لم تصل المرأتان العفيفتان إلى هناك بقصد الكشف عن سر ما، ولكن من أجل تدنيسهما. كمحب للمأساة اليونانية القديمة، شعر "أنطون روت" أنه كان يتطلع إلى نسختين مبهرتين من "إيفجينيا". وفي الوقت نفسه، كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعرف جيدًا الدور الذي كُلف به. لا يمكنك على الإطلاق أن تلعب دور "أجاممنون" عن طريق الخطأ.

لقد اتخذ القرار في ثوان. كان قرارًا من شأنه أن يغير حياته، كان قد خمّن ذلك بالفعل، بينما هو يقف في حالة من الذهول أمام المرأتين. ظاهريًا، تمكن من الظهور بالهدوء والثبات. كان عليه أن يؤدي الأمر خطوةً خطوةً. سرعان ما امتثل الجنود لأوامره، فخرجوا من الغرفة، ثمّ أغلق الباب خلفهم.

بعد ذلك مباشرة بدأ يتحدث باللغة اليونانية. على السجينتين أن تبدآ بالصراخ بمجرد أن يعطيهما الإشارة المناسبة. صراخ من الألم. دون أن يفعل لهما أي شيء على الإطلاق. نظرت إليه المرأتان اليونانيتان للحظة في حيرة. نعم، سيتعين عليهما التظاهر بأنهما تعانيان الألم، حتى لو لم تكونا كذلك.

لم تكن "ماريا" و "نيفيلي" غبيتين. لقد فهمتا أن الألماني كان يقدم لهم خدمة لا يمكن تفسيرها، وهكذا، ما إن أشار لهما بيده حتى بدأتا بإطلاق الصراخات. جلس هو نفسه على الأرض خلف الباب مباشرة، في حالة لو حاول أحد فتح الباب. تحت صرخات "نيفيلي" و"ماريا" المصطنعة، كان وقت التوصل إلى خطة ما قد نفد في غضون دقائق. أسوأ جزء هو أنه كان عليه أن يقرر من التي سيصطحبها معه. سيختار من سيُكتب لها الخلاص ومن لا. أليس هذا بالضبط ما فعلته الآلهة في المآسي القديمة؟

في مساء اليوم التالي، 16 يناير، وصل العريف "أنطون روت" إلى "بيت الحقيقة" مرة أخرى. وحين طالب بأخذ إحدى السجينتين معه، سادت الشكوك بين الجنود. كان القائدان المسؤولان عن "البيت" لا يزالان بعيدين في مهمة في "كورنثيا". الرقيب الذي كان يعوض غيابهما سأل العريف عن سبب وجوب إجراء النقل في تلك الليلة. أجاب بصرامة: "أوامر عليا". لم يعترض الرقيب، لأنه كان يعرف الصلة الوثيقة بين الرجلين الألمانيين اللذين يتحدثان اليونانية. فالنقيب "فرانز جوبي" والعريف "أنطون روت" أينما يُذكر أحدهما، يُذكر الآخر.

وقف الشاب "أنطون روت" شاردًا للحظات أمام الفتاتين المنتظرتين في الغرفة نفسها مرة أخرى. تمامًا كما في اليوم السابق، كان الباب خلفه مغلقًا، وأسند ظهره إليه. فجأة همس لـ"نيفيلي" معتذرًا إليها. مرتين. بعد ذلك مباشرة أخبر "ماريا" أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوقت قد حان لتلحق به.

لماذا لم يصطحب "أنطون روت" أيضًا "نيفيلي" معه؟ لأن ذلك كان مستحيلًا، وكان يعلم هذا. لقد أعاقته بكل وضوح قاعدة "الواحد مقابل الواحد" غير المكتوبة. في الأشهر الأخيرة، تزايدت هجمات المتمردين بصورة كبيرة. ونتيجة لذلك، أصبحت تحركات السجناء اليونانيين الآن ضخمة ومنظمة، حتى داخل المدن. وفي حال - لأي سبب ما - تقرر البدء بالنقل العاجل، فحينئذٍ يجب أن يكون هناك جندي ألماني مقابل كل سجين يوناني. ولهذا كان في مقدرو "أنطون روت" أن يصطحب شخصًا واحدًا فقط معه.

في مساء يوم 16 يناير، شاهد حارس بوابة "البيت" الخارجية العريف وسجينته يهبطان معًا سلم كنيسة "باناجيا تريبيتي". كانت هذه آخر مرة رآهما فيها أي شخص ألماني. وفي تحدٍ لكل الأوامر العسكرية، وحتى للمنطق البشري الأكثر تطرفًا، توجها بمفردهما نحو ميناء "إيغيو".

- كم مرة غطست فيها من قبل يا "خريستوس"؟

- ثلاث مرات.. ربما أربعًا.

- رائع، هذا يعني أنك تعرف الأساسيات بالفعل.

- لقد مرت سنوات منذ..

- لا تقلق، لا يمكنك نسيان الماء. أولًا، سننزل معًا لإجراء قياسين أو ثلاثة قياسات. ستبقى على ارتفاع خمسة عشر مترًا وستمسك ببعض الحبال. سأواصل أنا نحو القاع لربط السمكة. قبل أن نخرجها إلى السطح، علينا العودة إلى هنا للاستعدادات النهائية.

أكون على متن القارب دائمًا. تحت ضوء القمر بصعوبة يمكن تمييز اليابسة على بعد مائة متر تقريبًا من موقعنا. توقف "ستيليوس" عن سرد أحداث قصة "أنطون روت". وبدأ يضع من حولي البكرات، وأسطوانات الأكسجين، والزعانف، ومقاييس العمق، والأوزان، والمصابيح الضوئية، والبدلات، وأقنعة الغوص، وأنواعًا عديدة من الحبال، مختلفة الأحجام، والأشكال، والألوان. تستغرق التجهيزات وقتًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طويلًا وتتخذ تدريجيًا وتيرة مرهقة لا يمكن وصفها بالكلمات. يتطلع "ستيليوس" باستمرار إلى ساعته.

لماذا أحضرني إلى هنا وجعلني أشاهد هذه العملية برمتها؟ ببساطة، إذا كان يريد التخلص مني، لاستطاع فعل ذلك بكل سهولة. منذ اللحظة التي وافقت فيها على اللحاق به، كان سيكون كافيًا لنا أن نغوص معًا كي يقع "حادث" لي، على غرار ما حدث لـ "إيفا ديبليج".

بينما كان يجهز معداته، يعود ذهني إلى "نيكولاوس بابابوستولوس". يبدو الآن أن مسار حياته قد انحرف بصورة غير عادلة عن طريق خاطئ. لقد سعى وراء شبح "أنطون روت" معتقدًا أنه كان المسؤول الأول عن وفاة "نيفيلي". كان يظن أنه يطارد الضابط الذي تسبب بإعدام والدته. لم يكن "أنطون روت" هو الجاني الذي اختلقه "نيكولاوس بابابوستولوس" في مخيلته، بل كان شخصًا آخر مختلفًا تمامًا. حاول العريف الشاب إنقاذ حياة امرأة، ونجح في ذلك بأعجوبة.

Telegram:@mbooks90

- "ستيليوس"، كيف هرب "أنطون" و"ماريا" من "إيغيو" في تلك الليلة؟ كيف لم يعثر الألمان عليهما؟

- سيأتي دور ذلك. الآن يتعين علينا أن نغوص.

- كي نخرج سمكة "الهامور" المفترض وجودها؟

- ماذا الذي يدور في خلدك؟ أنني ما زلت أريد أن أنهي حياتك غرقًا؟ كما حدث مع "ديبليج"؟

- لا أعرف. ومع ذلك، فإننا بالتأكيد لن نغوص في مثل هذا الوقت لإحضار سمكة ميتة.

- عندما ترى ذلك المخلوق هناك.. ستكون عاجزًا عن الكلام. هل تراهن على هذا؟

لماذا أوافق على ارتداء بدلة الغوص والأسطوانات والزعانف والقناع؟ لا أحد يرغمني على القيام بهذا. فلو قلت إني غيرت رأيي، فأنا متأكد أن "ستيليوس" سيغوص بمفرده. لماذا أستمر إذن في الاستعداد للقاع؟ غواص ليلي مبتدئ في مكان مجهول. هل أريد في النهاية أن أتحدى حظي؟ احتمالية عدم رجوعي؟ بدأ

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخوف يسيطر عليّ شيئًا فشيئًا، وأصبحت أنفاسي غير منتظمة. قدماي في الماء. نعم، لقد حان وقت الغطس. في النهاية يجب أن أغطس.

تمر الثواني الأولى كأني أنزلق في كتلة جليدية تشل الحركة. بما أنني لست مضطرًا إلى السباحة، فإن كل تركيزي ينصبُّ نحو تجنب الذعر. يهبط جسدي باستمرار نحو الأعماق جراء الأوزان المربوطة حول خصري.

يمسك "ستيليوس" يدي ويومئ لي. ماذا يريد؟ يريد أن أهدأ، أن أتنفس بشكل طبيعي. في مرحلة ما، أشعر برغبة قوية في الالتفاف والنظر نحو السطح، لكني أتذكر أن هذا سيكون خطأً فادحًا. فإذا ألقيت حتى ولو نظرة خاطفة إلى الوراء، فسيندفع الذعر من كل مكان. لذلك أتنفس وأترك نفسي تواصل الغطس، والذي يبدو الآن أنه دون سبب أو هدف.

لا أعرف كم من الوقت سيستمر الهبوط، ربما بضع ثوانٍ. لقد تفكك الوقت، ولم أعد ألقي له بالًا، لم يعد له وجود بعد الآن. يقترب "ستيليوس" مني مرة ثانية، ويشير بيده نحو حلقة معدنية متدلية من حبل. لا بد لي من التمسك بها للبقاء في المكان نفسه بينما يستمر هو في الهبوط نحو القاع. أطيع بخنوع. على أي حال، لم أعد أسمع أفكاري، أي لم أعد أسمع أي شيء. عندما أشاهده يختفي في الأسفل، يغمرني شعور بالوحدة لا يُطاق.

إنه لأمر مدهش مدى السرعة التي تتغير بها الانطباعات والمشاعر هنا. فجأة أجد نفسي معجبًا بكل شيء. المصباح الصغير الذي أرتديه على جبهتي لا يحدث ثقوبًا في مساحات المياه السوداء الشاسعة. يكشف الضوء عن عالم آخر، إذ الضوء نفسه لم يعد ضروريًا.

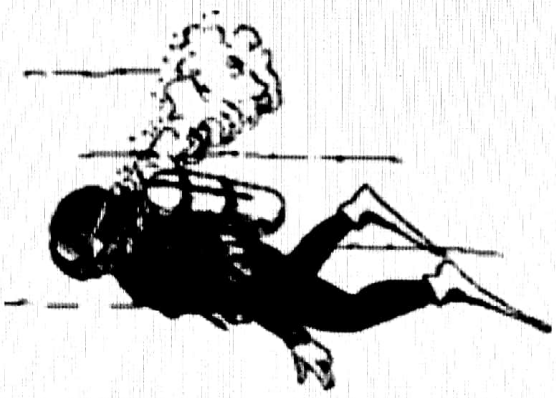

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

23

في تلك الليلة الشتوية، كان هناك ضوء فضي خافت يشق الظلام، وكانت الرياح شمالية شرقية. على الرغم من أن الأمواج لم تكن ترتفع بهم، إلا أن دوار البحر قد تمكن منهم منذ البداية. لم يكن هناك إحساس بالدوار أو الغثيان، لكنْ شعور دائم بوجود خلل ما. كان القارب يبلغ طوله ثلاثة أمتار ونصف المتر ولم يكن مطليًا. بسبب ضآلة الإمكانات المتاحة في ذلك الوقت، بصعوبةٍ تمكنوا من استكمال بنائه. في العادة لا ينبغي الإبحار به دون طلائه بالورنيش. لكن على الأقل يمكنك تقييم رائحة الخشب الطازج هكذا.

تُقدر المسافة إلى الجزيرة بسبعة أميال ونصف ميل بحري في خط مستقيم. ومع ذلك، فالمياه لا تذعن أبدًا للخطوط المستقيمة. وفقًا للحسابات التقريبية الأولى، سيستغرق الوصول إلى هناك خمس ساعات أو ستًا.

بعد الساعة الثامنة مساءً بقليل، جلس الملاح اليوناني أولًا عند المجاديف. سرعان ما أدرك أنهم في حاجة إلى معجزة من أجل الوصول إلى السرعة التي أجريا حسابها، فقد كانت موجات المياه الحادة والصاخبة تصطدم بهما. كانت هناك أيضًا مشكلة في هيكل القارب، فقد بُني لصيد الأسماك، وليس للتجديف الفعلي. بعد ساعة غيَّرا موضعهما. لم يقتصر الأمر على أن الألماني كان يجدِّف للمرة الأولى، بل لم يُصادف أنه صعد أصلًا على قارب صغير كهذا من قبل. كانت وتيرته محبطة. في البداية لم يتمكن حتى من مزامنة حركات يديه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بحلول منتصف الليل كانوا قد قطعوا أقل من نصف المسافة. كانت كفا الألماني مصابتين بالفعل ويدا اليوناني خائرتي القوى. تفاصيل غير مهمة. لو داهمهما الفجر، فإن الخطر سيأخذ شكلًا مغايرًا تمامًا. من المؤكد أن الأوامر العامة للقبض عليهما قد صدرت قبل منتصف الليل. فمع أول ضوء للنهار ستقوم الدوريات الألمانية بتمشيط المنطقة برًا وبحرًا.

استمرا في التجديف دون أن يتفوها بأي كلمة تحت أعين "ماريا" الساهرة. أصبحت التغييرات كثيرة جدًا، في النهاية تناوب الاثنان بين بعضهما البعض بصورة عشوائية وبتوتر كل خمسة عشر أو عشرين دقيقة. في نحو الساعة الرابعة والنصف بدؤوا في رؤية كتلة شديدة السواد من بعيد. نعم، لقد كانت الجزيرة. تسارعت وتيرة المجاديف تلقائيًا، وكأن بها مسٌ من الغضب. الأمل ينبت أجنحة على الأكتاف، حتى لو كانت زائفة. كانت الأمواج قد هدأت ولم تعد يفصلهم سوى ساعة واحدة عن أشعة الشمس.

تقع جزيرة "أي يانيس" متناهية الصغر بجوار الجزيرة الأكبر التي تسمى "تريزونا". في المقابل، على مسافة قريبة جدًا تمتد شواطئ "دوريدا". في عام 1944 كان المبنى الوحيد في الجزيرة عبارة عن كنيسة صغيرة مكرسة للقديس "يوحنا الإنجيلي". غطت نباتات كثيفة من الأشجار والأعشاب كل شبر منها تقريبًا، ولم تكن هناك دلالة على وجود حياة في المكان على الإطلاق. سرعان ما قرروا أن هذا المكان غير مرجح للإقامة، ومن ثم، فهو الملاذ الأكثر مثالية للمطارَدِينَ.

لم يكونوا على بعد أكثر من ثلاثمائة متر إلى أربعمائةٍ من الساحل الجنوبي للجزيرة، عندما رأوا قارب صيد كبيرًا في الأفق. كان يتجه نحوهم ببطء وبثبات. لقد أفصحت أول خيوط ضوء النهار عن الخطر الذي يحيط بهم. لم يعد هناك أي فرصة للهروب بالتجديف. حاول الملاح بأيدٍ مرتجفة أن يرمي شبكة في البحر بأسرع ما يمكن. لم يُسمح إلا للصيادين فقط بالوجود هناك في مثل هذا الوقت.

- ماذا تفعل هنا بالخارج؟

- ألقي شبكة صيد.

- من أين أنت؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- صياد. من "ماراثيا".

- اقترب! سيصعد أحد الجنود.

أذعن الملاح لأوامره، محضرًا قاربه الصغير بالمجداف إلى المكان الصحيح، كي يستطيع الجندي الذي يحمل بيده بندقية دائمًا من القفز بسهولة من مؤخرة قارب الصيد. الضابط الألماني الذي أصدر الأوامر، والمترجم اليوناني، والجندي الألماني، والملاح اليوناني وقفوا جميعهم مكتوفي الأيدي لبضع ثوان، يتبادلون نظرات الدهشة والتعب.

لماذا قد يصعد أي شخص إلى مثل هذا القارب؟ فقد بدا على الفور فارغًا تمامًا. كان القارب الصغير الخشبي غير المطليّ يحتوي فقط على حجر للمرساة، بالإضافة إلى بعض الحبال وشبكة صيد رخيصة. أين كانوا يبحثون عن الرجلين المطلوبين اللذين يلاحقهما الجيش الألماني منذ عدة ساعات بغضب لم يُسبق له مثيل؟ في النهاية، لوَّح الضابط بيده بحدة إلى الملاح كي يغادر.

بعد نصف ساعة وصلوا إلى شاطئ جزيرة "أي يانيس". في هذه الأثناء، كان القارب الآخر الذي يحمل على متنه الألمان قد اختفى باتجاه الغرب. قفز الملاح في الماء ليسحب القارب. ما إن رفع الأرضية الخشبية، حتى ظهر الرأسان. كانت "ماريا" و "أنطون" مستلقيين في أسفل القارب، بلا حراك، حابسين أنفاسهما. فبين عارضة القارب الموجودة في الأسفل والأرضية الصلبة، كان هناك مكان يتسع بصعوبةٍ لجسدين. بُني القارب بهذه الطريقة عن عمد. كان صانع القارب هو نفسه ملاح ليلة النجاة؛ "خريستوس". استراح الملاح تحت ظل أشجار الجزيرة وفي اليوم التالي عاد إلى "إيغيو" بمفرده.

ظل "أنطون" و "ماريا" مختبئين في جزيرة "أي يانيس" لأكثر من شهر. لم يكن هناك طعام، وكان الماء يتوقف على هطول الأمطار، حيث إن الجزيرة لم يكن بها ينبوع ماء. لقد كانا يصطادان عند الفجر ويأكلان كل ما يصطادانه نيئًا.

بعد الأيام الأولى من عمليات البحث غير المثمرة، بدأ الاهتمام الألماني يتضاءل. لقد جلبت الحرب المستعرة الآن أولويات أخرى، فلم يعد باستطاعتهم أن يبذلوا جهدهم باستمرار تجاه أحد رفاقهم، حتى لو اعتُبر خائنًا بصفة رسمية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في 22 يناير 1944 قرّر الألمان إعدام بعض المدنيين في "إيغيو". لقد كانت ردة فعل انتقامية على هجوم المتمردين الجديد، وكان عليهم أن يبعثوا لهم برسالة غير مسبوقة. في ذلك الصباح بدؤوا في اعتقال أي رجل يصادفونه في طريقهم. كان على كل بيت أن يُسلم أحد أفراده. من بين الأربعمائة شخص الذين تجمعوا في ساحة "أغيا لافرا"، اختاروا خمسة أشخاص في النهاية. ما معيار الاختيار؟ ملامحهم. فحص الرائد "هاينر لوتمان" وجوههم، ونظر إليهم واحدًا تلو الآخر. من كانت ملامحه غير ملائمة فقد هلك. شُنق المختارون الخمسة في وسط المدينة، فلم يكن هناك داعٍ للكلمات غير الضرورية والتهديدات المبهمة للباقين. أصبحت بالفعل قضية الزوجين المفقودين طي النسيان. تقريبًا لم يعد يأتي أحد على ذكرها.

قدرة "أنطون" على التحدث باليونانية بطلاقة، ومثابرة "ماريا" كان لهما دور مساعد في خطوتهما التالية. صبغ شعره باللون الأسود مستخدمًا حبر الحبّار، ومنذ ذلك الحين لم يتوقفا عن السير ليلًا. إذا صادفا في طريقهما أحد اليونانيين، كان يكرران القصة ذاتها: لقد كانا بحاجة إلى الذهاب إلى أخت "ماريا" المريضة التي تعيش في "كارديتسا" في أسرع وقت ممكن.

بعد ستة وعشرين يومًا تمكنا أخيرًا من الوصول إلى هناك، واعتبرا ذلك محض حظٍّ. أخذا يعملان على الفور في حقول المنطقة، مثل أي زوجين يونانيين عاديين.

انتهت الحرب بعد بضعة أشهر وانسحبت القوات الألمانية من البلاد. كرّس هذان الشخصان أنفسهما للتربة، واستمرا في العمل بالقدر نفسه من الجدية والمثابرة. عُمّدا مرة أخرى. "أنطونيوس آدم" و"ماريا آدم"، وجُنّسا بهذين الاسمين. بعبارة أخرى "أنطونيوس" و"ماريا" ذوا الأرض الحمراء. علاوة على ذلك، لم يكن تحول "أنطون روت" خارجيًا فحسب؛ بطريقة ما أصبح يشعر الآن بأنه يوناني أكثر من كونه ألمانيًا.

في 24 أكتوبر 1946، أنجبت "ماريا" طفلًا يتمتع بصحة جيدة. أطلقا عليه اسم "خريستوس"، تكريمًا للملاح الذي أنقذ حياتهما.

أخبرني! هل تؤمن بمصير الإنسان؟ بتلك القوة الجامحة التي يمكن أن تنقذك أو تدمرك قبل أن تتمكن من رفع يدك؟ لا؟ جيد. بما أنك لا تؤمن، فأنصت إلى هذا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الربيع التالي كان الصبي يبلغ من العمر ستة أشهر. صنع والداه سريرًا خاصًا له، بجدران خشبية عالية، حتى لا يمكن أن ينزلق خارجه. ففي بعض الأحيان كان يتحتم عليهما تركه وحيدًا في المنزل لمدة ساعة أو نحو ذلك على الأكثر. كان هذا هو الوقت الذي يحتاجان إليه كي يغيّرا نوبات العمل في الحقول.

في 29 أبريل 1947، كانت "ماريا" عائدة إلى منزلها، الذي يقع على مشارف إحدى القرى القريبة من "كارديتسا"، في الساعة الثانية بعد الظهر. كان "أنطونيوس" قد ترك المنزل بالفعل قبل نصف ساعة. التقطت أذنا الأم من بعيد صرخة الطفل الصغير التي تدمي القلب، شعرت على الفور بأن مكروهًا قد وقع له. ركضت إلى المنزل ووجدت سرير الطفل مغطى بالدماء حرفيًا. على أي حال، فقد أنجزت المهمة بطريقة احترافية. فالشخص الذي فعل ذلك كان بلا شك يمتلك بعض المعرفة الطبية، لأنه تمكن بالفعل من إيقاف النزيف. ما إن نزعت "ماريا" ملابس طفلها حتى فقدت وعيها. كان أحدٌ ما قد ربط حبلًا رفيعًا بإحكام حول الأعضاء التناسلية للرضيع ثم سحبه بكل قوته. أخصى شخصٌ ما الطفل "خريستوس آدم".

لم يعثرا على الجاني قط. لم يبحثا عنه بجدية كافية. لم يتمكنا من البحث. قال البعض إنه ربما من فعل ذلك هو "فرانز جوبي" نفسه. ترددت شائعات بأن النقيب نجا من الحرب وعاد إلى اليونان ليبحث عن "أنطون روت" وينتقم منه، لقد كان يطارده لسبب غير معروف. جادل البعض الآخر بأن "أندرياس" هو من فعل ذلك، الذي من المحتمل أن يكون خطيب "ماريا"، التي لم تقبل به قط. كان الشاب اليوناني قد انضم إلى المقاومة، وأصبح مثقلًا بالكراهية بعدما سمع إشاعة مفاداها أن "ماريا" تُفضِّل عليه ضابطًا ألمانيًا كي يكون أبًا لأولادها. إذا لم تكن هذه مفارقة مأساوية، فما عساها تكون؟ كان الألمان يطاردون "أنطون" واليونانيون يطاردون "ماريا". كلاهما أدين بالخيانة في الوقت نفسه. لماذا؟ على ما يبدو لأنه أحبَّ أحدهما الآخر.

بعد مرور ثلاثة أشهر من الإخصاء، قال الأطباء إن الطفل الصغير، على الرغم من المضاعفات المتكررة والحمى، سيعيش. بالطبع، لم يكن بمقدور أحد التنبؤ بنوع الحياة التي حُكم عليه بها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في 23 أكتوبر 1947، كان المناخ ممطرًا. سيكون عيد ميلاد "خريستوس" الأول في اليوم التالي. عندما عاد "آدم" من الحقول عند الظهيرة، وجد الصبي نائمًا بينما "ماريا" مُعلقة في مطبخ منزلهم. كان ملفوفًا حول رقبتها الحبل الرفيع نفسه الذي استخدم لإخصاء ابنها. أنت لا تؤمن بالقدر، أليس كذلك؟

بينما ما زال سؤال "ستيليوس" الأخير يتردد في أذني، أسوأ حتى من صدى صوت مسموم، عاد هو مرة أخرى إلى معدات الغوص الخاصة به. الآن يربط الحبال معًا، ويستمر في التحقق من الوقت. يسلط المصباحان المضاءان المعلقان على جانبي القارب ضوءًا أبيض قويًا فوق رؤوسنا.

- يجب أن أغوص بعد قليل. ستحسب سبع دقائق. بالضبط سبعًا. بعدها يأتي دورك. سوف تتبع مسار الحبل وسوف نلتقي في نهايته.

- لماذا انتحر "أنطون روت"؟

- يجب أن نكف عن الحديث. حان وقت الغوص. كان "أنطون" تبتزه تلك العاهرة.

- " إيفا ديبليج"؟

- لقد كلفها "بابابوستولوس" بمراقبة "خريستوس". فشل ذريع. اختار الشخص الخطأ للدور الخطأ. اغتنمت الألمانية الفرصة على الفور. "خريستوس" رجل لطيف، تخطى الستين من عمره، أعزب، دون أطفال أو كلاب يرعاها، وظيفة جيدة والكثير من الأموال. أوهمته بحبٍ جامح. لقد وقع في فخها. كان يظن أخيرًا أن هناك امرأة ما مستعدة للدخول حيث لا تجرؤ الأخريات.

- للدخول إلى أين؟

- لقد أدخل "خريستوس" المرأة الألمانية الغرفة السوداء، كان يدفع لرجالٍ آخرين مقابل معاشرتها جنسيًا في الفنادق المتهالكة. لقد كان يشاهدهما ويتخيل نفسه أنه هو من يفعل ذلك. هل كان باستطاعته فعل أي شيء آخر؟ سيطرت عليه "إيفا" ببطء. اعترف لها بإعاقته. كشف لها قصة أبيه، تحدث معها عن "بيت الحقيقة" وما حدث فيه. أتيحت فرصة جديدة مذهلة أمام هذه الممثلة. بدأت علانية في ابتزاز "أنطون" نفسه. قالت له: "أعطني المال، وإلّا فسأفشي سرك كله".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهذا السبب جاء الجد إلى مكتبك في حالة من الذعر طالبًا منك أن تراقبها. كانت العاهرة محترفة، لذلك صورت مقطع فيديو رائعًا في الليلة نفسها التي كنت تنام فيها في الغرفة المجاورة في الفندق. في الصباح أرسلت نسخة إلى "أنطون". وقعت عيناه على الفور فريسة لآلة الزمن اللعينة. أعاده المشهد سبعين عامًا إلى الوراء، وجعله وجهًا لوجه مع الماضي مرة أخرى. لم يعد هناك مجال لتأخير قراره. في النهاية انتحر "أنطون" ليضع حدًا لذلك. لحالة الرعب.

- ولماذا أغرقتَ "إيفا"؟ كيف..؟

- هل تمزح معي؟ لو كانت على قيد الحياة الآن.. لأغرقتُها مرة أخرى. كان الأمر ممتعًا عندما أنزلتُها بالزعانف والأوزان. لم يتسنَّ لها المقاومة أو حتى فهم ما يحدث. لقد شاهدتني للمرة الأولى والأخيرة، أخذتها إلى حيث تريد أن تكون. جاءت إلى اليونان لمواصلة لعبتها القذرة. لم أستطع أن أتركها تدفعه إلى الجنون.

- من؟

- الطبيب" خريستوس". هل تعرف ماذا فعل لابني؟ كم عدد الأطفال الذين أنقذهم الطبيب؟ أكرر لك كلامي حتى تتذكره، كنت ممتنًا لرحلتها إلى القاع. لقد جعلني ذلك أشعر حقًا بالنشوة. لقد استحقت هذا المكان. القاع. ابتزت الأب أولًا ثم الابن. بغرض الحصول على المال، أعدَّت هذا الأمر الذي يصعب تصديقه وأخرجته برمته. دعنا نتوقف عند هذا الحد يا "خريستوس". فبعض الأشياء من الأفضل ألا تعرفها.

- أريد أن أعرف.

- هل لديك أدنى فكرة عما سلمته إلى "بابابوستولوس" في مكتبه؟ ماذا كان يحوي هذا الظرف المغلق؟ الحقيقة. قبل أن ينتحر "أنطون" كتب له ما حدث من عام 1944 حتى يومنا هذا، وأرسل إليه مقطع فيديو "ديبليج". على ما يبدو، لم يستطع المحامي تحمُّل الأمر.

- ماذا يظهر في هذا الفيديو بحق الجحيم؟

- حسنًا، سوف أخبرك من البداية. خطوةً خطوةً. استمع جيدًا. حياتنا تتوقف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على هذا، نحن في الليل بمفردنا. سأغطس، وأنت ستحسب سبع دقائق بالضبط. ستنزل بعدها وتتبع مسار الحبل. ستصل إلى أسفل. تقطع بسكينك الحبل الآخر الذي يحمل السمكة. لقد ربطت البالونات بها وسترتفع إلى السطح من تلقاء نفسها. عليك فقط أن تصعد إلى سطح المياه مرة أخرى. تذكر! أولًا وقبل أي شيء. لا داعي للذعر أبدًا. ألبتة.

- لماذا؟..

لا يعيرني انتباهه. يرتدي قناعه. ينظر إلى الساعة مرة أخرى، وقدماه متدليان في الماء. البحر الأسود، ملجؤنا الصغير المضاء، صمت الليل، إصرار هذا الرجل، كل هذه الأمور تنسج خيوط معاناة سرية وغير مفهومة. إنه يستعد للغطس. عيناي مثبتتان على الساعة التي أعطاني إياها. فجأة يخلع قناعه على عجل.

- هل فهمت سبب وجودك هنا يا "خريستوس"؟

أنظر إليه في حيرة، بينما هو يتابع:

- أنت هنا بسبب الملاح.

- أي ملاح؟

- ذلك الشخص الذي أنقذ حياة "أنطون" و"ماريا". لقد سافر عبر الزمن لدعوتك.

- أنا لا أفهم ما تقوله.

يستعد لارتداء القناع الملعون مرة أخرى. لكنه يلتفت نحوي ثانية.

- صانع قارب النجاة، الشخص الذي أخفاهما وأتى بهما إلى الجزيرة، الرجل الذي سميا طفلهما "خريستوس" تكريمًا له.. كان جدك؛ "خريستوس بابابديميتراكوبولوس". لهذا السبب بحث "أنطون روت" عنك ووثق بك. كان يأمل ثانية في أن تتمكن من إنقاذ ما تبقى. لكن بعض الأشياء لا يمكن إنقاذها. لا تنسَ.. لا داعي للذعر.. لأنه حتمًا سيتسبب بموتك في قاع البحر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

24

صورة عادية مبتسمة لملكات جمال، وحرب تضع نهاية للابتسامات. أمرٌ من ضابطٍ كارهٍ للجمال، واعتقال امرأتين ستكونان شهيدتي الجمال. "بيت الحقيقة" وعصر الأكاذيب. باحث في المأساة القديمة حاول منع مأساة جديدة. بزوغ فجر مع امرأة غارقة في بحر الميناء، وفجر آخر برفقة شخصين مطلوبين على قيد الحياة في بحر الجزيرة. قارب بهيكل مجوَّف، وسرير طفل مُبلَّل بالدماء. أعضاء تناسلية مستأصَلة بخيط، وأمٌّ تتدلّى من الخيط نفسه. "أنطون" الذي تحول إلى "أنطونيوس" ثم عاد إلى "أنطون" ثانية. الرجل الذي رفض دور "أجاممنون" معلَّق في النهاية بخيط أيضًا. محامٍ يبحث طوال حياته عن شخص مذنب، وطبيب ينشد الحياة عينها طوال عمره. مُخرج مسرحية "أجاممنون" الذي، ما إن علم الحقيقة حتى وقع في الماء، وعاشق لا يمارس الحب أبدًا. "آدم" الذي اختار نوبات عمل ليلية بشكلٍ دائم، و"إيفا" التي اختارت الدور الخطأ. طفل لا يستطيع التنفس، وأب يتنفس تحت الماء. "خريستوس" الذي أخفى شخصين في قاربه، و"خريستوس" الذي تحوَّل إلى "كريس" وصعد إلى متن قارب آخر.

بإمكان أي شخص عمل ترابطات أخرى، ونسج روابطه الخاصة. كما هو الحال دائمًا. ما الذي يظل شائعًا؟ **أواه! يا ويلاه! طعنوني بطعنة قاتلة في الأعماق.** يا له من رعب! والسؤال الذي يظل محيرًا: كيف يمكن لقصة حبٍّ أن تكون منبع هذا كله؟ لأنه ذات مرة، في الغرفة الباردة حيث يتقاطع الماضي مع المستقبل، التقى "أنطون" "ماريا". اتخذ قراره على الفور. لو لم يُكلف بالاستجواب؟ لو لم يدخل "بيت الحقيقة"؟ لو لم يحدث هذا، حينها.. لو، لو، لو.. كل جملة افتراضية تحتوي على نفي للواقع، فإن كل "لو" تفتح أبوابًا لا حصر لها نحو اللامكان وفي كل مكان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجلس على حافة القارب. تبعد قدمي بضعة سنتيمترات فقط عن سطح المياه الذي لا يعكس سوى نفسه، الظلام ولا شيء سواه. الدقائق السبع على وشك الانتهاء. أحاول دون جدوى أن أبقى مُركزًا. رحلة على عمق ثلاثين مترًا تحت الماء. بالنسبة لي لقد حان الوقت لأتبع خيطي. أنا بالفعل أمسكه في يدي. فليكن إذًا. ثلاثة.. اثنان.. واحد.

لا أشعر بالغرابة عند الغطس للمرة الثانية. كيف تعودت ذلك بهذه السرعة؟ بينما ينجرف جسدي ببطء مرة أخرى جراء الأوزان، تغمرني نشوةٌ لا يمكن تفسيرها. لم يعد هناك شيءٌ يبدو خطيرًا أو حتى غريبًا بعد الآن. إن النزول إلى الجنة السوداء هو ببساطة عودة إلى العالم الذي أتينا منه. إلى الرحم، ذلك الكيس السَلوِيُّ الذي يحيط بالجنين، إلى البداية.

أواجه مرتين أو ثلاث مرات رغبة في إطفاء المصباح المعلق على جبهتي ومواصلة الاستسلام للظلمة القاتمة. لكن بعضًا من غريزة الحفاظ على الذات تقف حائلًا دون فعل ذلك. يجب أن أكون قد تجاوزت النقطة المحددة التي يبلغ طولها خمسة عشر مترًا منذ فترة طويلة عندما أبدأ في تحديد الضوء الخافت في نهاية المسار.

يمتد في القاع الصخري خليط معقد من المراسي والخيوط والكشافات. ينتشر ضوؤها بشكل دائري، ويخلق إحساسًا غريبًا كما لو أنها غرفة غارقة. يوجد "ستيليوس" نفسه على بعد ستة أمتار أو سبعةٍ من مركز الضوء، ويمد يده في اتجاه معين، بعيدًا عن الأضواء. أسير نحو هذا الاتجاه، لكن البقعة التي يشير إليها ما زالت مليئة بالظلام.

أين هو "الهامور" المنشود؟ من المستحيل تحديد مكانه. أدور حول نفسي عدة مرات، لكن لا وجود لأي سمكة في أي مكان. قررت أخيرًا الاقتراب من "ستيليوس"، الذي ما زال يشير إلى الاتجاه نفسه.

فقط عندما اقتربت منه، لاحظت أن حقيبة صغيرة مقاومة للماء مربوطة براحة يده اليسرى. في الوقت نفسه تقريبًا تبدأ ألوان أخرى بالظهور. كنتُ أبحر طوال الساعة السابقة برفقة اللونين الأسود والأزرق الأدكن، لكننا الآن محاطون باللون الأحمر المتقطع. أحاول جذب انتباه "ستيليوس" نحو الخطوط الملونة المختلفة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليس هناك ردة فعل. ألاحظ لأول مرة تعبير وجهه الذي يصعب فهمه.

لقد انتحر "ستيليوس". أطلق النار على مقدمة رأسه بيده اليمنى، التي ما زال مسدس الصيد مربوطًا بها. آلاف وجوه من الذعر. أصعد كالبرق نحو القارب، إلى اليابسة، إلى العالم. إن الحاجة إلى البقاء في المنزل في "هامبورج" والاستلقاء على الفراش أمر في غاية الأهمية. فكلما كانت الرغبة أكثر غباءً، كان إدراكها أسهل للعقل الواعي. يجب أن أكون قد قطعت بالفعل نصف الطريق إلى السطح عندما تتردد كلماته الأخيرة في ذهني: " لا تنسَ.. لا داعي للذعر.. لأنه حتمًا سيتسبب بموتك في قاع البحر".

كان "ستيليوس" يعرف ما سيحدث لي جيدًا. أخبرني بوضوح، لقد حذرني. رحلة الصعود التي يبلغ طولها ثلاثين مترًا تأخذ وتيرتها الخاصة. أي تغير مفاجئ في الضغط الجوي، سيتسبب بتسرب فقاعات غازية في مجرى الدم، داء الغواصين، تدور الكلمات في مكان ما في داخلي في النهاية. المياه هي التي تقودك. أنت فقط تطيع. ليس العكس. يجب عليك العودة إلى الأسفل.

عندما أقف بجانب جسده الميت للمرة الثانية، ألاحظ كيف أنه أعدّ كل شيء. "ستيليوس" هو سمكة "الهامور" نفسها، السمكة التي يريد إحضارها إلى القارب. ليس هناك سوى حبل رفيع يبقيه متصلًا بالمرساة. يجب أن أقطعه أيضًا. ما إن يتحرر "ستيليوس"، فإن بالونين متصلين بجسده، سيقودانه إلى السطح من تلقاء أنفسهما.

أعرف مهمتي للمرة الأولى. هذا بالضبط ما كان يريد أن أفعله. هذا هو السبب الوحيد الذي جعله يُحضرني إلى هنا. حتى الغلاف المقاوم للماء المثبت على راحة يده اليسرى عبارة عن ملاحظة بسيطة مكتوبة على ورقة بلاستيكية بأحرف صفراء مشعة. تعليماته الأخيرة حال عدم قدرتي على أداء المهمة: "لا تلمس أسطوانة الأكسجين، فقط اقطع الحبل، وسأصعد من تلقاء نفسي".

يضع على ظهره أسطوانتي أكسجين، لا تزالان ملتصقتين بفمه حتى الآن. لماذا؟ لا أفهم. لكنه بالتأكيد لم يحضرني إلى هنا ليفسر لي أي شيء. فقط يجب أن أتبع تعليماته. بسهولة يُقطع الحبل الذي يبقيه هنا في القاع، حان الوقت للاستمتاع بالمشهد. أقف بلا حراك في القاع، أشاهد "ستيليوس" يكمل غطسه ويصعد للمرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأخيرة. كما أراد ذلك بإصرار وخطط له بعناية. وحده.

رحلة صعودي إلى الأعلى بطيئة. الحزام المثبت به الأوزان بقي في القاع ولا شيء يثقل كاهلي. بدأت أعتاد ذلك مع مرور الوقت. يقولون إن الغرقى يصعدون إلى سطح المياه مرة أخرى في الليل، ويبدؤون بالغوص لمسافات طويلة، بينما هم يغنون أغنية حلوة لا يمكن مقاومتها. إنهم يحاولون خداعك ويصورن لك أن عالم المياه في القاع، وعالم الأحلام أكثر تناغمًا من العالم الآخر. بينما أنا في رحلة الصعود أشعر كأنني أسمع غناءهم. ربما لهذا السبب أفكر مرات عديدة في أن أترك الخيط من يدي وألحق بهم.

يوجد قاربان كبيران بجوار قارب "ستيليوس". أحدهما ينتمي إلى خفر السواحل، القارب نفسه الذي عثر على جثة "إيفا ديبليج" وانتشلها. حان الآن دور انتشال جثة الجاني.

مجموعات مختلفة من الأضواء والكشافات تُسلط نحوي فجأة. إنهم يصيحون كي أخرج من المياه. ماذا يظنون أني فاعل؟ لقد فقدتُ بالفعل فرصتي في البقاء هناك. يلقون عوَامات نجاة، نصائح، أوامر. عندما أصعد أخيرًا على متن قارب خفر السواحل، يبدأ القصف. أسئلة لا معنى لها، أسئلة دون إجابات. أتظاهر بأني أشعر بالبرد ولا أعيرهم أي انتباه. ما زلت أنظر بطرف عيني إلى القارب المجاور لي. لمن ينتمي؟ فجأة أتعرف إلى وجه مألوف على متنه. الطبيب "خريستوس آدم" على بعد أمتار قليلة مني.

أطلب على الفور أن يصطحبوني إليه. عندما يرفضون في البداية أبدأ بالصراخ كأنني في حالة صدمة هستيرية: "يجب أن أرى الطبيب، إنها مسألة حياة أو موت". يتراجعون خوفًا من ردة فعلي، زورق مطاطي صغير يعمل كجسر مؤقت ينقلني إلى قارب الطبيب.

تبدو مقصورة القارب أكثر كآبة نتيجة الحركة الكثيفة. يستلقي "ستيليوس" على ظهره أمام "آدم" كأنه يستريح بعد رحلة لا مفر منها. تمتد مجموعة من الأسلاك والأنابيب من جسده الذي لا حياة فيه وينتهي به الأمر في أجهزة مختلفة. رجلان يرتديان ملابس بيضاء يضبطانها دون أن يتحدثا. من الطبيعي ألا يعيرني أحدٌ أدنى اهتمام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقط عندما يبدأ قاربنا بالتوجه غربًا بسرعة عالية يرفع "خريستوس آدم" رأسه وينظر إليّ.

- أين تذهبون بـ"ستيليوس"؟

- هناك حيث أراد.

- أين؟

- مستشفى "ريو".

- لتشريح الجثة؟ لقد أطلق النار على نفسه.

- هل تعتقد أني لا أرى ذلك؟ نحن نسابق الزمن لسبب آخر. عملية زرع الأعضاء لها أطر زمنية ضيقة للغاية.

- أتمزح معي؟ هل يمكن إنقاذه؟

- لم يرغب في إنقاذ نفسه. أراد "ستيليوس" العكس تمامًا. أن يموت لينقذ شخصًا آخر. لقد مات دماغه سريريًا لبضع دقائق الآن، لكن رئتيه ما زالتا قادرتين على العمل؛ لأنهما ظلتا متصلتين بأسطوانتي الأكسجين وخاليتين من المياه. سيجري زرعهما الليلة. كل شيء جاهز تقريبًا. لقد أرسل إليّ رسالة نصية على هاتفي المحمول في اللحظة الأخيرة، قبل أن تغادرا منزله. كان دقيقًا في التوقيت بشكل خاص، حال معظم الغواصين. لم يكن يريد أن يترك أي مجال لإفساد خططه، لمنعه. لهذا السبب كان في حاجة إليك. هذا هو سبب وجودك هنا. لقد منحني الوقت اللازم فقط لإجراء عملية الزرع لـ"أدونيس". أو على الأقل حاول ذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

25

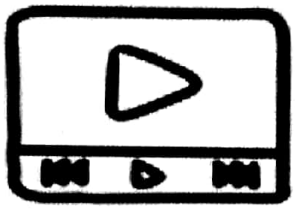

ربما كانت الكاميرا تستند على حامل ثلاثي الأرجل، لكن تثبيها بهذه الطريقة لا يعطي النتائج المرجوة من الوضوح والصوت. تنبعث ضوضاء مختلفة في محيط المكان، وتختلط بالألوان الباهتة للمساحة المضاءة دائمًا. التصوير الذي حدث خلسة تقريبًا، يشكل لديك انطباعًا منذ اللحظة الأول بأنك تشاهد جزءًا كاملًا من الواقع. مشهد عفوي، غير منظم، مليء بتطورات لا يمكن التنبؤ بها، والكثير من الأخطاء العشوائية. تُرى هل هو عمل غير احترافي؟ أم أعدَّ شخص ما هذا المشهد الخاص بعناية فائقة لدرجة أنه يكتسب طابع الأصالة والواقعية؟

تسع وعشرون دقيقة المدة الإجمالية للفيديو. جرى تصوير المشهد الأول بجوار باب خارجي قديم ذي ضلفتين. يُسمع فجأة صوت كبح فرامل، يتشتت انتباه المصور، وتصبح الصورة ضبابية وتفقد بؤرتها. بعد بضع ثوانٍ من البلبلة، تعود الأمور إلى طبيعتها.

امرأة تمشي ببطء في شارع في الليل، تقترب من المدخل وتتوقف للحظة قبل أن تخطو إلى الداخل. تظهر الكاميرا باستمرار ساقيها فقط. حتى لو لم أتذكر الأحذية، والجينز، والمعطف الجلدي البني الذي يصل حتى ركبتيها، فإن وقع صوت الأقدام على الرصيف كافٍ. لم أكن لأنساه بسهولة. إنها لحظة وصول "إيفا ديبليج" إلى فندق "نجمة الميناء".

المشهد التالي صُور في ردهة الطابق الأول الفارغة. على رغم من أن الإضاءة رديئة للغاية، لكن يمكن رؤية باب واحد نصف مفتوح في الخلفية. تتحول للكاميرا فجأة لتعرض قدمي المرأة التي تتحرك الآن بطريقة شبه متأرجحة. ما إن تدخل الغرفة، تتلاشى الأصوات المحيطة، ويحل محلها صمت قاتل. شخص ما أغلق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الباب خلفها، لكنها ليست "ديبليج" نفسها. يُسمع الصوت الرجالي بوضوح مثير للإعجاب وإصرار شديد البرودة. قد يكون الصوت مبرمجًا قادمًا من عالم آخر:

- لا تنزعي حذاءك.

من الواضح أن الشخص الآمر هو ذاته، كما هو الحال في الفيديو الأول الذي أُرسل من مجهول إلى "أنطون روت" من مقهى إنترنت في "دوسلدورف". ليس هناك أدنى صبغة أجنبية في لهجته، فاللغة الألمانية لـ" خريستوس آدم" لا تشوبها شائبة.

من بين الأمور التي أخبرني بها "ستيليوس"، أعرف أن الطبيب لم يكن حقًا هو الذي يعطي الأوامر للبطلين. لقد أقحموا بعض جُمله القديمة فوق هذا المشهد الجديد. قصُّوا ولصقوا أكذوبة، بقصد إرسال الفيديو إلى "أنطون روت" أولًا ثم إلى "خريستوس آدم". من الذي فعل هذا بالضبط؟ يعتقد "ستيليوس" أن "إيفا ديبليج" هي من استلهمت وأخرجت هذا المشهد. لقد اعتقدت أنها بهذه الطريقة ستوقع بـ"أنطون روت"، لكن في نهاية المطاف حدث العكس تمامًا.

تنزع المرأة ملابسها دون أي تسرع، لكن لا يوجد تواصل بصري مباشر معها. لبضع ثوان، يركز المشهد على ملابسها فقط، التي تتطاير في الهواء قطعةً تلو الأخرى، وتسقط على الأرض. يتغير المشهد ليكشف عن جسد أنثوي عارٍ، يقف بلا حراك فوق السرير. يلطخ حذاؤها أغطية السرير بالفعل. تضع قناعًا جلديًا أسود على رأسها، التناقض بينه وبين لون بشرتها الشاحبة يلفت النظر في الحال. أتعرف بكل سهولة إلى جسد "إيفا ديبليج" الرياضي، فقد شاهدتها وهي تلعب دورًا مماثلًا في وقت سابق. هكذا كانت تقف في وسط هذه الغرفة القذرة، جسدها ممشوق وخالٍ من أي شعر، تبدو كأنها تشارك في إحدى المسابقات غير المعروفة: "ملكة جمال حزينة بلا وجه"

تمر خمسون ثانية بالضبط من الصمت والسكون قبل أن يظهر البطل. وجهه مغطى أيضًا بقناع، ولكن هنا تنتهي أوجه التشابه بينهما. فالبنطال، والقميص، والسترة، والأحذية، والقفازات، جميعها باللون الأحمر الغامق نفسه، الذي لا يسمح برؤية أي جزء من جسده. تُرى هل هذا هو الشاب الذي كان يرافقها في الفيديو السابق؟ بما أنه يرتدي ملابسه، أو بالأحرى بما أنه متنكر، لا يمكنني التعرف إليه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يصعد على السرير ويقف بجانبها مباشرة ويعقد ذراعيه فوق صدره. إن الأداء المصطنع، بالإضافة إلى الملابس وحالة العري، والجدران الخضراء، ونور الكشاف المُسلط عليهما بلا رحمة، تُشكل معًا مشهد محاكاة ساخرة. الصوت نفسه ثانية:

- اركعي أمامه.

لا أحد من البطلين يتحدث. تستجيب المرأة على الفور إلى الأمر الجديد لـ"خريستوس آدم"، الذي يستمر في إرشادهما، غير مرئي كالعادة. على عكس كل التوقعات، يظل البطلان متحجرين على الوضع نفسه لمدة دقيقتين كاملتين، دون أدنى تواصل بينهما. ماذا يعني كل هذا؟ أتبين أنني لا أستطيع أن أشاهد سوى ظهرها وليس يديها. يستغرق الأمر بعض الوقت حتى يتسرب الشك إلى عقلي المُشوَّش. هل تصلي "إيفا ديبليج" بصمت أمام رجل أحمر اللون؟ أم أنها تتوسل إليه جاثية على ركبتيها لسبب مجهول؟

تُسمع العبارة التالية مصحوبة بزفير عميق بعد الكلمة الأولى مباشرة:

- الآن.. حان الوقت.

لا، لا يتعلق الأمر بالزفير فقط. فمن الواضح أن الآمر غير المرئي يلهث أو يكابد. تستلقي "إيفا ديبليج" في وسط الأغطية المتسخة، بينما يقوم شريكها بشد وثاقها بإحكام، بأشرطة خاصة، يشدُّ ساقيها أولًا ثم يديها إلى زوايا السرير الأربع. يحدث كل هذا الآن بوتيرة مغايرة، كما لو أصبح الرجل فجأة في عجلة من أمره. وبنفس الوتيرة بالضبط، يزداد انزعاجي. هل هذا عرض ليس بمقدوري فك شفرته؟ وإذا كان الأمر كذلك، فماذا بعد؟

في هذه المرحلة يقرر المخرج إضافة الموسيقى. بدأت معزوفة فرقة الـ"رامشتاين" تتدفق، بينما "إيفا ديبليج" عارية الآن ومكبَّلة في السرير. يختفي شريكها لبعض الوقت، وعندما يظهر مرة أخرى، نراه يحمل صندوقًا أبيض في يده. مربع الشكل ولا يزيد طوله عن عشرين سنتيمترًا. يقف أمام ساقيها الممدودتين، ويفتحه بوقار، ومن ثمَ يخرج شيئًا منه.

بغض النظر عن مدى تركيزي فقط على الشيء الذي أخرجه من الصندوق، لا يمكنني تمييزه بوضوح. فيد الرجل لا تبقى ثابتة، وفي الوقت نفسه يتحرك ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشيء الذي يمسك به. تُكبّر الكاميرا الصورة. يتحول الانزعاج إلى قلق، الأمر الذي يؤدي – بدوره - إلى خوف أعمى. أبذل جهدي في محاولة أخيرة لتصديق أن هذه مجرد لعبة.

يحمل الرجل الشيء الذي في يده في الهواء لثانية متجمدة. ومن ثمّ يبدأ. أسمع عواء "إيفا ديبليج" وهي ترتفع لأعلى؛ فوق موسيقى الـ"رامشتاين"، فوق الجدران، فوق الغرفة، فوق كل ما كنت أتخيله.

أنهض واقفًا. إنها الساعة الرابعة والنصف صباحًا. قبل ساعتين، كان قد انتهى الاستجواب الأول في مكاتب خفر السواحل، وبعد ذلك مباشرة، اقتادني ضابط بالزي الرسمي في السيارة الرسمية إلى منزل "ستيليوس". كنت مصرًا على الذهاب إلى هناك حيث نسيت هاتفي المحمول.

كان المنزل خاليًا والأبواب مفتوحة. نُقل الطفل الصغير إلى المستشفى قبل ساعات قليلة، ومن المفترض أن تكون عملية زرع الأعضاء جارية بالفعل. تذكرت المكان المحدد الذي تركت فيه هاتفي المحمول. ترك أحدهم كتابًا أسفله مباشرة؛ كتاب **" الغواص"** ويمكنني بسهولة أن أرى أن شيئًا ما قد وُضِع بين صفحاته. لقد فهم ضابط خفر السواحل ترددي اللحظي وسألني: "لمن يكون؟". فتحت الغلاف فقط وأظهرت له الإهداء المسطور باسمي.

حينها شعرت للمرة الأولى بآثار فخر تعس. ربما كنت أحمل توقيع "أنطون روت" الأخير في يدي. أومأ ضابط خفر السواحل برأسه متعجرفًا، وبعد قليل تركني عند البوابة الأمامية لشارع "أجيوس أندرياس". والكتاب برفقتي.

ركضت نحو شقتي. كان مدسوسًا في منتصف **"الغواص"** تقريبًا قرص DVD وظرف مغلق مكتوب عليه "الفيديو أولًا".

لقد تعرفت إليه من أسلوبه. دائمًا ما يكون "ستيليوس" بسيطًا وواضحًا. لقد اتبعت تعليماته مرة أخرى. الفيديو أولًا.

الإضاءة الوحيدة التي تضيء المكان هنا تأتي من جهاز اللابتوب المفتوح. جرى تجميد الصورة على الشاشة، حتى موسيقى الـ"رامشتاين" نفسها قد توقفت. كأنهم شاهدوا الفيديو بدورهم، وكأنهم تشاركوا الصور. فقد كانوا يغنون.. "Du riechst

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"so gut".. "رائحتك جميلة جدًا". لكن لا شيء له رائحة جميلة بعد الآن. بل العكس تمامًا.

يجب أن تكون لعبة فحسب، ما زلت أقول لنفسي. ماذا لو لم تكن لعبة في النهاية؟ أوو، كلا، كلا. يجب أن تكون هناك بعض الحدود التي لا يتخطاها حتى الخيال. يجب أن يكون هناك زجاج غير قابل للكسر يتحول العالم خلفه إلى لعبة مرة أخرى. حتى وإن كانت دموية.

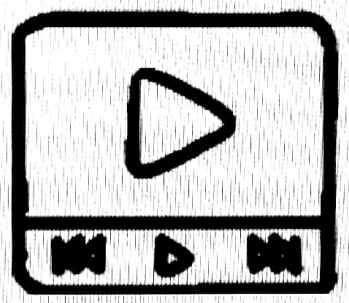

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

26

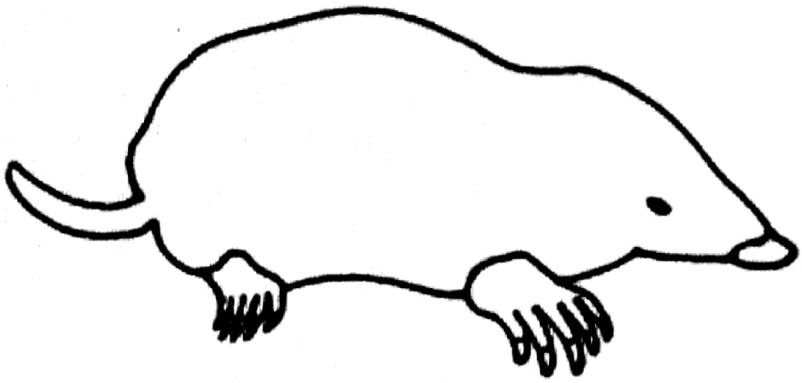

حيوان الخُلد هو قارض صغير ينتمي إلى عائلة الثدييات. لديه عينان غائرتان وغير مرئيتين تقريبًا، يبلغ قطر العين الواحدة واحدًا إلى واحد ونصف المليمتر، مكسوة بطبقة من الجلد المشعر. وهي تتمتع بنوع من الرؤية الضوئية التي تعتمد على الخلايا المخروطية، والتي – بدورها - تسمح له باختيار الأعداء المحتملين تحت الأرض. يعطي مظهره الخارجي انطباعًا أنه حيوان بلا عينين، ومن ثم، فهو أعمى تمامًا. انتشرت هذه المغالطة على نطاق واسع، ومن هنا نتجت تسميته الشائعة بـ"الفأر الأعمى" في اللغة اليونانية.

عادة يتميز حيوان الخُلد بفرو بني أو رمادي ناعم، وأنياب متينة للغاية. إذا ما وقع في الأسر، أو كان هناك نقص طبيعي في الطعام، يمكنه مضغ أي شيء تقريبًا وأكله من أجل البقاء على قيد الحياة. ابتداءً من جذور الأشجار الميتة، والديدان الميتة المتحللة، وحتى قطع البلاستيك الصلبة، وإطارات السيارات. حاسة سمعه الحادة، وخاصة في الترددات المنخفضة، تحذره وتحميه من الكثير من المخاطر. يتحرك في الغالب بشكل ممنهج من خلال ممرات تحت الأرض. يستخدم ساقيه الأماميتين المجهزتين بمخالب غير قابلة للكسر، وهما تشبهان المعاول الحية من أجل عملية الحفر التي يؤديها بلا كَلَلٍ.

مما لا شك فيه أن الميزة الأكثر إثارة للإعجاب لهذه الثدييات تحديدًا هي قدرتها على العيش بشكل دائم تحت الأرض. في كثير من الحالات، تكون المستويات المنخفضة لثاني أكسيد الكربون أعلى خمس مرات مقارنة بسطح الأرض، في حين أن مستويات الأكسجين تقارب النصف. ولكن بفضل بروتين الهيموجلوبين النادر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنتشر في الدم، فإن حيوان الخُلد يتمتع بقدرة فريدة: يمكنه التنفس بشكل طبيعي في الأماكن التي يموت فيها أيُّ حيوان ثديي آخر مختنقًا في غضون دقائق. حتى أنه تعود إعادة استنشاق الهواء الذي أخرجه لتوه دون أدنى مشكلة. يستطيع حيوان الخُلد وفق قدرته التنفسية غير المألوفة أن يعيش في عالم خالٍ من الأكسجين الكافي، وأن يقبع في الظلام إلى الأبد. هذا هو بالضبط السبب في أنه - في العديد من اللغات - يُطلق مجازيًا اسم "الفئران العمياء" على كل تلك الحيوانات التي تبقى تحت الأرض، أي التي بإمكانها أن تعيش، وتتنقل، وتعمل باستمرار بعيدًا عن الضوء لأسباب مختلفة.

يزعم بعض المؤرخين أن التجربة الأولى حدثت عام 1505 في مدينة "قرطبة" الإسبانية. كان الملهم لهذه التجربة هو الأب الكاهن "إينياسوس"، الذي ثبتت معرفته العميقة بعلم الحيوان والطب. في إحدى اللوحات - توجد الآن في متحف "برادو"- لرسام عصر النهضة القشتالي، "بيدرو بيروجيت"، في جزء ما في خلفية اللوحة، وراء العديد من الكهنة، يظهر كاهن ممتلئ الجسم بلحية مدببة تقريبًا. الشكل المدبب هذا يعد أحد أنماط الرسم القوطي الذي ينذر بالسوء، على عكس بقية اللوحة. إذا انتبه المرء إلى وجه الكاهن، فسيرى تعبيرًا لا يمكن تفسيره، كما لو أن الكاهن يرى شيئًا مختلفًا تمامًا عن كل من حوله. يرى البعض أن هذه هي اللوحة الوحيدة الباقية التي تصور "إينياسوس". في أثناء خدمته في محاكم التفتيش، حسبما يظن الجميع، قدم الأب" إيناسيوس" طرقًا جديدة في دروب التعذيب الجسدي. حتى أن هناك شائعة مفادها أن الألم في هذه الحالة تحديدًا يصل إلى مستويات أخرى، مجهولة تمامًا. لأن الجسد، أو الطبيعة - لا أحد على أي حال – قد تجرأ على تخيل مثل هذا الكره الدفين. ومع ذلك، يعتقد معظم الناس أن هذه الطريقة قد طُبقت لأول مرة في ألمانيا عام 1942، وقد أُلقيت ببساطة على عاتق الكاهن الإسباني من أجل تجنب وصمة عار لا تمحى من المسؤولية التاريخية. فلا أحد يريد أن يسمى بمخترع آلة رعب. فمن الأفضل ألف مرة أن يطلقوا عليك مستخدم لها فقط. في النهاية، ما الفارق؟ لا يمكن الآن إثبات مكان التجربة ولا زمانها ولا من اخترعها. يكفي أنه في مكان ما ذات مرة جرى تجربة اللعبة البهلوانية الرائدة. وفقًا لأنماط التاريخ البشري، فهذا يعني أنه - عاجلًا أم آجلًا - سيحدث هذا مرة أخرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في 15 يناير 1944، أي في اليوم الذي كُلف فيه العريف "أنطون روت" -بشكل غير متوقع - بقضية المرأتين، أصبح معروفًا له ما يجب عليه فعله. حينها علم أنه يتعين عليه إعداد وثيقة رسمية. هناك سيتم ذكر بيانات السجينتين ووصف مسار التحقيق معهما، وكذلك إجاباتهما المحتملة بالطبع. لم يفعل مثل هذا من قبل، ولم تكن لديه أدنى فكرة عما اعتاد زملاؤه الآخرون إدراجه في نصوصهم المكتوبة. في الواقع، السؤال الذي كان يشغله كان ذا طبيعة مختلفة بكل تأكيد. ما طريقة التحقيق في النهاية؟ وإلى أي مدى يجب عليه أن يصل؟

احتفظ النقيب "فرانز جوبي" بملف كامل من الملاحظات من عمليات الاستجواب التي أجراها. تحت ضغط الوقت غير المسعف، فكر "أنطون روت" في إيجاد حل. سيجد إحدى وثائق النقيب صاحب الخبرة، الذي غاب لمدة يومين في مهمة خاصة خارج المنطقة، ويستخدمها نموذجًا. في الوقت نفسه، سيكون باستطاعته أخيرًا -من خلال أكثر المصادر ثقة - معرفة كيف كان رئيسه يجرى الاستجوابات بالضبط.

بعد فشله في "عملية كالافريتا"، تعرض "فرانز جوبي" لحالة ازدراء، ونتيجة لذلك خسر مكتبه الرئيس. لم يعد يُسمح له إلا بوضع مستنداته في درجه الشخصي القديم في الطابق الثاني من مقر القيادة العامة الألمانية في "إيغيو". حتى أنه غالبًا ما كان يستدعي "أنطون روت" إلى هناك ويكلفه بترجمة نصوص مختلفة، حتى لا يضيع الوقت بنفسه.

في وقت مبكر من مساء يوم 15 يناير 1944، زار "أنطون روت" مقر القيادة العامة بشارع "كانيلوبولو". قدَّم التحية لجميع الضباط الذين قابلهم في طريقه، ومن ثمَ، صعد إلى الطابق الثاني. طلب منحه حق الوصول إلى مستندات "فرانز جوبي"، زاعمًا أن هناك أمرًا بترجمة عاجلة لأحد النصوص اليونانية. كان الضباط معتادين زيارات العريف المتكررة، ولهذا تركوه دون تردد يفتش في درج النقيب، ولم يزعجه أحد.

عثر "أنطون روت" على الفور على مستندات رئيسه، وجلس على أحد الكراسي لدراستها. في البداية تأثر بالإيجاز الذي صيغت به. وسرعان ما اكتشف أنه لم يرد ذكر لأي طريقة للاستجواب. كان ترقيم المستندات وفقًا للترتيب الزمني، ولكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مهما يتقدم في البحث، تظل النتيجة كما هي. كان يقرأ فقط أسماء أشخاص مجهولين، وأحيانًا بعض المعلومات غير المهمة، التي كانت تُدون بجوارها. قبل إعادة الملفات إلى الدرج مباشرة، عثر على آخر اكتشاف. جذبت كلمة "سري للغاية" الموجودة في أعلى الوثيقة اهتمام العريف على الفور. أرسلت الوثيقة من برلين قبل اثني عشر يومًا، ووجُهت إلى الجنرال "كارل فون لو سوير" نفسه، الذي - بدوره - سلمها شخصيًا إلى النقيب "فرانز جوبي".

تساءل "أنطون روت": كيف يمكن العثور على شيء في غاية الأهمية مُلقى هكذا بين مئات الأوراق الأخرى. بحلول بداية عام 1944، اتخذت الحرب منعطفًا آخر، فلم يعد هناك مجال للإجراءات الشكلية. قريبًا جدًا سيعي العريف هذا الأمر. كُتب اسما مستلمي الوثيقة الواحد تلو الآخر، تبع ذلك الاسم الرمزي التالي: **"الغواص"**. وصفت الوثيقة المكونة من صفحة وحيدة لأول مرة طريقة استجواب اعتُبرت، حرفيًا، "رائدة" و"فعالة بشكل لا يصدق". في نهاية الوصف ذي الصلة، طلب كاتب الوثيقة، العقيد "ولفجانج رابي"، تنفيذ الطريقة الجديدة على الفور. في الواقع، طلب في الحاشية الأخيرة من الوثيقة إبلاغه شخصيًا بنتائجها مع إعطاء الأمر الأولوية القصوى.

بدأ المبنى يدور تحت قدمي العريف "أنطون روت". كان عليه أن يغادر في أسرع وقت ممكن. حاول النزول من الطابق الثاني إلى الطابق الأرضي، بينما يشعر كأن الدرج الرخامي الداخلي يتكسر إلى ألف قطعة متفرقة، ثم يُعاد تشكيله في جزء من الثانية بأبعاد وأشكال مختلفة في كل مرة. عندما خرج من المدخل الرئيس للمقر، كان عليه أن يجلس في مكان ما. في أي مكان. بأي طريقة، لأنه لم يكن ليسمح لأبناء وطنه برؤيته وهو يسقط في الشارع.

تقدَّم عشرات الأمتار، ومن ثمَ جثا فجأة على ركبتيه. لحسن الحظ، كان الظلام يحميه الآن من أعين المتطفلين، إذ كان القيء يلطخ يده اليمنى. في لحظة الإدراك تلك، التي كانت مثل كتلة ضخمة من الجليد في حلقه، شعر بخطئه. لم يدرك في الوقت المناسب مدى ضعفه في نهاية المطاف، أو ربما مدى قوة الآخرين. يعتمد ذلك على الجانب الذي تنظر منه إلى الأمر. ومع ذلك، فقد اختار جانبه بالفعل، بينما كان جاثيًا على الرصيف، في وسط بركة ضحلة من القيء. وُصفت طريقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاستجواب بأنها "بسيطة". نعم، نعم، كانت هذه هي الكلمة. بسيطة. بعد ذلك لم يكن هناك المزيد من الإجراءات العدوانية، فقط إرشادات واضحة. كأنك تجمّع قطعة أثاث. كأنك تُشغّل آلة جديدة. كأنك تُفكّك الحياة. كأنك تستحضر كابوسًا قديمًا.. دعونا إذن نتبع الإرشادات التفصيلية:

• استحمام إجباري. يُقاد الشخص الذي يُستجوب عاريًا وبمفرده إلى المنطقة الخاصة.

• استلقاء على السرير. وجه الرجال نحو الأسفل. النساء على ظهورهن. الأيدي مكبلة ببعضها البعض. كل قدم على حدة بمسافة متر واحد على الأقل بينهما.

• إذا كان هناك سجناء آخرون، فإن فم المتهم يبقى مكشوفًا طوال الوقت. خلاف ذلك، يوصى بإغلاق فمه.

• نعرض الحيوان في القفص، ونوضّح الإجراءات بالتفصيل. الاستعانة بالمترجم إلزامية. يجب أن يعرف المتهم ما سيحدث تمامًا. أن يتم إعلامه بأنه قد حان وقت الغواص.

• يتبع ذلك خمس دقائق من السكون. يبقى القفص بجانب رأسه.

• ندعو المتهم للإدلاء بإفادته، وفي الوقت نفسه نبدأ بتشحيم منطقة الدخول المختارة. في حالة وجود إفرازات ننظّفها وتُهوّى الغرفة. يستمر التشحيم بشكل طبيعي.

• نضع الحيوان داخل العش الورقي الخاص الذي أُرسل إليك. إنذار نهائي للمتهم. نريه الحبل الموجود على حافة العش.

• يتبع ذلك تأكيد صريح: عندما يتقرر الإدلاء بالإفادة، سنسحبه خارجًا.

• نؤكد أنه من المهم جدًا عدم التأخير، حتى لا يتمزق الورق بالكامل.

• يُوصى أن يستخدم ضابط الاستجواب سدادات الأذن.

• نبدأ في إدخال الحيوان في الفتحة المختارة.

• الوقت المقدر من لحظة الإدخال الكلي: دقيقتان إلى ثلاث دقائق. في حال بدأ

المتهم في الحديث، نسحب حبل العش إلى الخارج.

• في حالة الرفض ننتظر.

• الإطار الزمني المتوقع من لحظة تحرير الحيوان: عشرون إلى خمس وعشرين دقيقة.

• في حالة بقاء المتهم على قيد الحياة ننتظر.

• مكان الخروج: مجهول.

• يحفر حيوان الخُلد باستمرار. يمكنه إحداث ثقب في أي مكان من الجسم. علينا أن ننتظر خروجه. سيخرج حيًا. لديه القدرة على التنفس في كل مكان. يتعلق الأمر بقدرته الغريبة على التنفس. يتعلق الأمر بالغواص الشهير.

• العناية اللازمة بعد خروج الحيوان: أن يتم تنظيفه من الدم والإفرازات بعناية قبل إعادته إلى قفصه.

تم إرسال حيوانات الخُلد من ألمانيا.

تعتبر أدوات استجواب فريدة وقيمة.

لا يزال مقطع الفيديو من الغرفة 107 يُظهر الصورة المثبتة نفسها أمامي. امرأة عارية مقيدة بالسرير، وذراع شريكها ممتدة في الهواء، يرتدي بدلة حمراء، ويحمل حيوان خُلد يتحرك. هل ما يمسكه في يده هو لعبة فحسب؟ أم أنه حيوان خُلد حقيقي؟ لا أعلم. ربما الجواب لا يهم حقًا. سوف يقحمه داخل المرأة. داخل "إيفا ديبليج" التي تنتظر الغواص. داخل "إيفا ديبليج"، التي اعتقدت أنها بهذه الطريقة يمكنها أن تبتز "أنطون روت" و"خريستوس آدم". داخل "إيفا ديبليج" التي اعتقدت أن هذا كله يمكن أن يكون دوزا فحسب، عرضًا مسرحيًا فحسب.

شارع "أجيوس أندرياس". قبل الساعة الخامسة صباحًا. هناك طرق على الباب. افتح. في عيني "إيلين"، حزن العالم بأسره. أتقهقر إلى الخلف. نصل إلى غرفة النوم. أُطفئ الشاشة المضاءة على عجل. الظلام يتدفق في كل مكان. في الداخل والخارج.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا كنت تشاهد؟

- شيئًا ما ليس لعبة.

- هل ستشعل الضوء؟

- سيفرق بيننا الضوء.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner